الصوفية

في إلهامهم

تأليف الأستاذ

حسن كامل الملطاوي

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يسر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية أن يقدم للمكتبة الاسلامية الجزء الثانى من كتاب (الصوفية فى الهامهم) للأستاذ حسن كامل الملطاوى وكيل وزارة الخزانة السابق .

ويشمل هذا الجزء المقالات اللاحقة لما تم نشره بالجزء الاول فى سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م من سلسلة المقالات الشهرية التى تنشرها مجلة منبر الاسلام بعنوان الصوفية فى الهامهم .

ويرجو المجلس أن ينتفع القارىء بهذا الجزء كما انتفع بالجزء الاول ... والله ولى التوفيق

١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٢ م

رجال الله وأثرهم

فى التربية الروحية

(ان القلوب لها معان فى مناجاتها ، تتعارف بها الأرواح الخاصة ، وتتفهم دقائقها فى صفاتهم ، اذ تنعكس أشعة الأرواح على بعضها ، فترى بنور الايحاء الرحمانى ما لا يره غيرها ، اذ تتفاوت الأرواح بين الأحباب وأولى الألباب ، واللبيب من لبى أى أجاب مولاه فلباه ، وأعطاه قوة ادراك النفوس ، فيدرك من معانى القلوب ما تتناجى به ، سواء بين العبد وأخيه ، أو بين العبد وربه وهناك فى القلب خبايا وخفايا وأسرار لا يعلمها الا الله ، ولو شاء لأطلع بعض الأخصاء على بعض القلوب لحكمة يعلمها ، وبالجملة فهو ستار غفار)

جاءت هذ السطور فى رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعة مد الله فى عمره ، وفيها يتعرض سيدى الشيخ إلى ارتباط الأرواح بعضها ببعض ، واتصالها من وراء حجب الغيب بخواص جعلها الله فى الأرواح ، والروح من أمر الله ، وسر من أسراره العليا ، وقد أودعها الله الأجساد فتحركت بالروح بعد سكون وفكرت بعد جمود ، وقامت بها الحياة حتى اذا استرد سبحانه الروح عند انتهاء الأجل ، كان الموت ، فعادت الروح الى عالم الملكوت الذى هبطت منه ودفن الجسد فى الأرض التى خلقه منها بقدرته تعالى .

وسبحان ربى ، الذى قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، فقد جعل سبحانه الأرواح متفاوته فى أنوارها ومعارفها ، ورقائقها ودقائقها ومذاقاتها ومشاربها ، والله يؤتى فضله من يشاء .

والعباد متفاوتون فى صلتهم بالله تعالى ، مؤمن وكافر ، والمؤمنون عوام وخواص ، وليست مفارقات العباد فى الأجساد ، انما افترقوا فى الأرواح ، أما الأجساد فخادمة للأرواح ومنقادة لها ، وانقياد الأعمى للبصير .

واذا كانت النفوس كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام

وينوه سيدى الشيخ بأثر طاعة الله فى الأرواح ويقول ان اللبيب من عباد الله من أجاب مولاه فلباه ، ولا يكون ذلك الا بنور فى بصيرته يريه الحق حقا فيتبعه ، والباطل باطلا فيجتنبه ويأتيه ذلك النور من سلوكه الى تعالى وفق مارسمه شرع الله ويسترشد فى سلوكه بدليل من أئمة الهدى ، الذين يعالجون آمراض النفوس الخفية بسر الهى ، يودعه الله أرواحهم الصافية ليكونوا أئمة للمتقين ومنارة للسالكين (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أن من المشركين) .

وهذا السر ، يكشفون به ما غاب عن غيرهم مما شاء الله أن يكشف لهم من العلم والمعرفة وذلك السر يعاونهم فيما أقامهم الله فيه من تربية المريدين تربية صحيحة فى جنب الله ، تخرجهم من الظلمات الى النور باذن ربهم . وقد كان سيدى العارف بالله الامام المرسى أبو العباس رضى الله عنه يقول تحدثا بنعمة الله عليه ، والله لو علم أهل العراق والمغرب والشام ومصر ما تحت هذه الشعيرات (ويشير الى لحيته) من العلوم والأسرار لأتوها ولو سعيا على الوجوه .

وكان شيخه ومربيه سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه يتحدث بنعمة الله ويقول : ما بقى بحمد الله عند غيرنا من أهل عصرنا علم نستفيده ، وانما ننظر فى كلام غيرنا لنعرف ما من الله به علينا دونهم بما هو فوق مقامهم ، فنشكر الله على ذلك .

وكان شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه يقول فى الهامه المرتجل الذى نقلناه عنه :

نحن فى عالم اليقين رجال
قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا

وشراب الرجال علم وحلم
انما نحن فوق ذاك شربنا

ويقول أيضا رضى الله عنه

محبة خالقى مشكاة قلبى
على أنوارها ألقى وصولى

وان الحب أشـواق وصبـر
يعـز على المنـافق والكسـول
وان الـورد يذبل بعد وقت
وورد الحـب كان به ذبـــولى
أدارى الحب حتـى لـو يرانــى
أخو وجـد تشكـك فى نحـولى
وبى نـار لو استقصـى لظاهـا
لحقر وجـده وحـذا سبيــلى
ولو لا العلـم والإيمـان حظـى
وعـون اللـه يمنـع من ذهـولى
لقلت كلام ذى جـذب وشطـح
لمـا أدركـت من فضـل جزيـل
ولـى من مشرق الايمـان علـم
سمـوت بـه علـى كل الفحـول
علومـى فـى الـورى نفحـات ربـى
فمـا بلغـوا مذاقـى أو شمــولى

وقد جرى أكـابر العـارفين علـى التحـدث بنعمـة الله عليهم ، وكـان سيدى الامـام أبـو الحسـن الشاذلى رضى الله عنه يقول كثيرا لاصحابه : اعلنوا بطـاعتكم اظهـار لعبوديتكم ، كمـا يتظـاهر غيركم بالمعاصى ، وعليكم بالاعلام للناس بما منحكم الله تعالى من العلوم والمعارف .

ويحكى سيدى الشيخ الامام الشعرانى ، رضى الله عنه أن شيخه سيدى على الخواص رضـى الله عنه كان يقول : التحدث بنعمة الله تعالى من غير فتنة ولا أغراض نفسية خـاص بالاكـابر من الأولياء فى كل عصر ، بخلاف غير العارفين ، فربمـا دخل الريـاء علـى أحدهم فـى تحدثـه بما انعم الله به عليه .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام : وهناك فى القلوب خبايا وخفايا وأسرار لا يعلمهـا الا الله ، فيشهد بصدقه الخبر : (اتقوا فراسة المـؤمن فانـه ينظر بنـور الله تعالى) أى بـاليقين ، وقول الله تعالى (قد بينا الايات لقوم يوقنون) أى بيناها بنور اليقين .

وروى الامام أبو طالب المكى ، رضى الله عنه عن امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قوله ان لله فى أرضه آنية وهى القلوب ، فأحبها اليه أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال : أصلبها فى الدين واصفاها فى اليقين وأرقها على الاخوان .

وروى كذلك عن سيدى أبى بن كعب ، رضى الله عنه ، انه كان يفسر قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة . .) انه مثل نور المؤمن . وقال : قلب المؤمن هو المشكاة فيها مصباح ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ويتقلب فى نور ثم قال فى قوله تعالى (أو كظلمات فى بحر لجى) قال قلب المنافق ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ويتقلب فى ظلمة .

وقد دعا سيدنا مولانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لسيدنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : (اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل) وقال امامنا على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ما عندنا شىء أسره الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله تعالى ، الا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه . وقال تعالى (ففهمناها سليمان) فخصه بفهم منه سبحانه ، أظهره مع حكم أبيه سيدنا داود عليهما السلام فحكم أبوه بالعدل ، وحكم هو بالفضل .

وقد كتب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أمراء الاجناد : احفظوا ما تسمعون من المتعظين ، فانهم ينجلى لهم أمور صادقة . وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) قيل نور تفرقون به بين الشبهات ويقين تحلون به المشكلات .

وقد جاء فى مناقب سيدنا حذيفة بن اليمان الصحابى ، رضى الله عنه ، أنه خص بمعرفة المنافقين وبسرائر العلم ودقائق الفهم ، وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان سادتنا عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسألونه عن الفتن العامة ، والفتن الخاصة ويرجعون اليه فى العلم الذى خص به ويسألونه عن المنافقين ، وكان سيدنا عمر يستكشفه عن نفسه ويقول له : هل تعلم فى شيئا من النفاق ، فبرأه منه وكان سيدنا عمر رضى الله عنه اذا دعى الى جنازة ليصلى عليها نظر ، فان حضر حذيفة ، صلى عليها وان لم ير حذيفة لم يصل عليها . وكان سادتنا الصحابة يسمون سيدنا حذيفة صاحب السر ، وكانوا اذا سئل أحدهم عن علم يقول : تسألوننى عن هذا وصاحب السر فيكم .

والايحاء الرحمانى الذى يشير اليه سيدى الشيخ فى صدر عبارته يكون وحيا لسادتنا الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، يكون الهاما للأولياء من أهل اليقين ، ومن هذا الاخير قول الله تعالى فى شأن أم موسى عليها السلام (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) فانظر ، رعاك الله ، كيف رسم الله لها طريق الأمن على ولدها الطفل فألقته فى اليم ، مطمئنة الى حفظ الله الذى يتولاه ، ثم كيف أخبرها برده اليها ، وكيف بشرها بأنه سيكون من المرسلين الكرام ، حين يبلغ أشده ، فألهمها رب العزة أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين فى آن واحد فما أكرم ربى وما أجله .

ولما علمت أم موسى عليهما السلام ، أن وليدها وقع فى يد فرعون عدو الله ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، كادت بشريتها أن تغلبها بالخوف على وليدها فكادت أن تقول انه ابنى وكان ذلك خافيا على عدوه اللعين ، فثبت الله قلبها من اضطرابه وربط عليها بسر الهى ، لتكون من المؤمنين الموقنين ، ولتعلم بالمشاهدة ، ان وعد الله حق ، وذلك ما تحكيه الآية الكريمة (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) والآيتان الكريمتان ((فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) .

وبنور الله الذى يودعه قلوب أوليائه من المتقين يحسون ما تتناجى به بعض القلوب ، سواء بين العبد وأخيه أو بين العبد وربه ، كما يقول سيدى الشيخ وذلك لحكمة يعلمها الله وقد شاهدنا ذلك بالتجربة العلمية كثيرا فيما بين سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه ، وأحبابنا من المريدين ، ووقع لى شخصيا من ذلك معه شىء كثير ، وليس هنا مجال لسرده وعده ولكن من المؤسف حقا أن أكثر الناس الذين يلتقون بواحد من أهل اليقين ، يجعلون همهم أن يسمعوا منه فى أمور دنيوية تافهة فان لم يسمع أحدهم منه ما يريد من أمر دنياه ، انصرف عنه ، وأفلتت منه فرصة ذهبية سنحت له لتقوية يقينه وتهذيب مسلكه وتنوير قلبه ، وتزويد معارفه لو أراد بصحبته طريق الاخرة وهذا ما يعلل لنا قلة السالكين فى طريق الحق وندرة الساعين للاخرة سعيها ، فى حين يتزاحم الناس على

ابواب المنجمين والعرفين حتى كأنهم هم الذين أتوا علم الغيب ، وانما الغيب لله وحده ، ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما يشاء لا تقيائه وأصفيائه ، تأييدا لهم فى دعوة الحق .

على انى أود ان انبه القراء الأعزاء الى أنه مع التسليم بعلم القلوب الذى يؤتيه الله بعض أوليائه المتقين ، ليس حتما أن تظهر الكرامات الخارقة على يد الولى الصادق وليس حتما أن يخبر مريديه بشىء من الغيب ، بل من لوازمه صدق الهمة فى طلب الله تعالى ، وعلى منهج الشرع الشريف . وعلامة داعى الحق أن تنجذب قلوب المؤمنين اليه وتهفوا لسماع كلامه ، وتأنس بالجلوس معه ، وتذكر الله بعد غفلة ، وتلين بعد قسوة ، وتلك علامات صدقه واخلاصه . وقد قال العارفون فى هذا المقام : مشى على الماء رجال ، ومات بالظمأ من هم خير منهم .

هذا وان لم يستطع المؤمن أن يستدل بنفسه على وأحد من هؤلاء الصادقين المخلصين ، فليقلد فى اختياره مؤمنا من أهل الرشد ، ممن يوثق بدينه ، ويتبع معه امامه الذى سبقه فى الاخذ عنه والانتفاع به . ومن لوازم المريد السالك الى ربه أن يكون صادق النية صادق العزم فى طلب الله وفى الاسترشاد بالشيخ العارف ، كما أن من لوازمه طاعة الشيخ فيما أمر به الله أو نهى عنه ، وما دام الشيخ أداة اتصاله بالله ورسوله ، فقد صارت طاعته من طاعة الله ورسوله ورضاه من رضا الله ورسوله وسخطه من سخط الله ورسوله ، والشيخ عبد من العباد ولكنه من عباد الرحمن ، فمن والاه والاه الله ومن عصاه فقد عصى الله (ولله جنود السموات والأرض) (وما يعلم جنود ربك الا هو وما هى الا ذكرى للبشر) . وقد قالوا ان الياقوت حجر ولكنه ليس كالحجر وكذلك هم بشر ولكنهم ليسوا كالبشر بل فاقوهم بالمعرفة واليقين .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه : علم سبحانه أن العباد يتشوقون الى ظهور سر العناية فقال (يختص برحمته من يشاء) وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل ، اعتمادا على الأزل ، فقال (ان رحمة الله قريب من المحسنين) والاحسان ، كما عرفه مولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . ولمثل هذا يعمل العارفون .

ويشوقنا سيدى ابن عطاء . رضى الله عنه . الى كسب اليقين فيقول : لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب اليك من أن ترحل اليها ، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها .

ويقول أيضا . رضى الله عنه . ان آداتى المعرفة بالله هما العقل والقلب . والمعرفة بالله قد تكون اثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ، ووصفه على ما هو عليه ، وبما وصف به نفسه . وهذه معرفة عامة المكلفين ، وهى مفروضة عليهم ، وتسمى بالمعرفة العامة . وقد تكون حالا يحدث عن شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وتسمى هذه بالمعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية التى تستند الى الذوق لا الي العقل.

ويستطرد – رضي الله عنه – قائلا : و سواء أكانت المعرفه بالله عقلا أم ذوقا، فإن موضعها هو الذات الألهيه من حيث صفاتها و أسمائها و أفعلها ، و لما كانت مداركنا البشرية، سواء أكانت حسا أم عقلا أم قلبا ، مدارك محدودة مقيده كانت المعرفة بالله أعسر المعارف .

و يرى سيدي إبن عطاء الله . رضي الله عنه . أن القلب كلما زهد في الدنيا ، و انعدم منه الهوي و الحرص و الأمل ، وازداد ايمانه ثم توحيده .. امتلأ بالتوحيد فصار عرشيا وشرفت فى الملأ الأعلى صفاته وعلت فى الملأ الأسفل معرفته .. واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق باخلاق الله ، وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققا مستبصرا فانيا فى شهود المذكور عن ذكره ، وفى هذا القالب ، ورد الحديث القدسى : (لا يسعنى عرشى ولا كرسى ولا سمائى ووسمعنى قلب عبدى) .

ويفسر ذلك سيدى ابن عطاء . رضى الله عنه . فيقول فى ابداع : (ان قلب الانسان لا يسع الله مساحة ولا حلولا ولا حسا ولا حكما وانما يسعه توحيدا ، وايمانا ، وعلما ومعرفة وايقانا ومحبة واخلاصا ، فضلا من الله وتخصيصا) .

ويقول الامام الشعرانى . رضى الله عنه . فى التدليل على ضرورة الاسترشاد بشيخ عارف فى السلوك الى الله تعالى : ان الامام الغزالى طلب لنفسه شيخا يدله على الطريق ، مع أنه كان حجة الاسلام ، وكذلك

طلب الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخا مع أنه كان يلقب بسلطان العلماء ، وكان شيخ الامام الغزالى الشيخ محمد الباذغانى ، وشيخ الشيخ عز الدين ، الشيخ أبو الحسن الشاذلى.

ويستطرد الامام الشعرانى قائلا : ولما اجتمع الامام الغزالى بشيخه المذكور قال : ضيعنا عمرنا فى البطالة ، يعنى بالنسبة لما ذاقه من أحوال أهل الطريق ، وكان الشيخ عز الدين . رضى الله عنه . يقول : ما عرفت الاسلام الكامل الا بعد اجتماعى على الشيخ أبى الحسن الشاذلى . رضى الله عنه وأرضاه . .

وساق الامام الشعرانى . رضى الله عنه . حكاية طريفة جاء فيها أن ابن سريج الفقيه ينكر على الامام أبى القاسم الجنيد ، فقال للجنيد طريقنا . يقصد الفقهاء . أقرب الى الله من طريقكم . يقصد الصوفية . فقال الجنيد : لا بد أن تأتينا ببرهان ، فقال ابن سريج ، أئت أنت لنا ببرهان فقال الجنيد : يا فلان : خذ هذا الحجر فألقه فى حلقة الفقراء فألقاه فصاحوا كلهم الله ، الله ، الله .. ثم قال له ، القه بين هؤلاء الفقهاء ، فالقاه فصاحوا كلهم : حرام عليك ، أزعجتنا .. فقام ابن سريج وقبل رأس الجنيد واعترف بفضله فقال له الجنيد : انما الفضل لكم ، فان أساس طريقنا مما معكم من العلم ، فقال ابن سريج : بلى لكم الفضل ، فإنكم زدتم علينا بحسن معاملة الله تعالى .

ويقول أمامنا مالك بن أنس فى لزوم الشريعة والحقيقة للمؤمن : من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تشرع وتصوف فقد تحقق ، وقوله هذا قول فصل فى الموضوع ، فان أكثر أهل الطريق الصوفية فى زماننا لم يتقدموا فى التصوف لجهلهم بفقه الشريعة ، فتلبسوا بشبه ضارة ، ظن المعترضون على التصوف أنها حجة لهم على الصوفية وليس العيب عيب التصوف والصوفية ، انما هو عيب السالكين والمسلكين الذين ينسبون زورا ، بلا نسب صحيح ، للتصوف وأهله ، والتصوف ثمرة الدين ولبابه الخاص وأهله هم المؤمنون حقا .

ولبيان أهمية الفقه الشرعى لسالك طريق الآخرة نذكر أن ابليس اللعين حاول أن يفتن الامام الكبير ، سيدى عبد القادر الجيلانى . رضى الله

عنه . فظهر له على شكل نور ملأ عليه خلوته ، وناداه على أنه الاله ، حاشا وكلا ، ياعبد القادر لقد وصلت الى غاية رضاى ، فحططت عنك العبادات ، وأتحت لك الشهوات ، فافعل ما يحلو لك ، ولا حساب عليك ...

فأجابه سيدى عبد القادر . رضى الله عنه . اخسأ يا ملعون ، فقال بماذا عرفت أنى ابليس قال .. ان الله لا يأمر بالفحشاء ، فقال : ياعبد القادر لقد نجوت منى بعلمك ، وما أكثر من زلت أقدامهم من الجهلاء بفتنتى هذه .

لذلك يقول شيخى العارف بالله ، سيدى الشيخ على عقل فى الهاماته الفورية الملهمة التى نقلناها عنه :

وتوجت بالقرآن نفسى عقيدة

أصون به نفسى عن الزيغ والدس

وان شرب الناس الطلا وتصببوا

فسنة خير الخلق فى شربها كأسى

تعشقت نور الله وهو بصيرتى

وقد وضح البرهان من آية الكرسى

وان رفع المثرون عجبا رءوسهم

رفعت بذكر الله فوق الورى رأسى

وما اتخذت روحى سوى الله غاية

فتم الهدى للروح والقلب والحس

والطلا فى البيت الثانى ، أى الخمر ، لأن العرب كانت تسميها الطلاء .

ويقول أيضا رضى الله عنه فى احدى تضرعاته :

يا حبيبى زاد ذلى فادفع الأغيار عنى

خذ يدى انى ضعيف للتلاقى متمنى

رب فارحمنى فانى قد جعلت الشرع حصنى

وأهدنى وأرحم مشيبى لا تخيب فيك ظنى

وانى أباهى بشيوخى العارفين الأجلاء صوفية العصور الأولى . علما وعملا . فقد كان الشرع حليتهم ، وكان نور التصوف زينتهم ،

وقد تخرجت فى كلية التجارة مثقفا فى التجارة والمال والمحاسبة جاهلا بالعلوم الشرعية ، ككل خريجى الجامعات ، فلما أسعدتنى العناية الربانية بلقائهم ، وما ابركه من لقاء ، أخذت عنهم الشريعة والطريقة والحقيقة . والشريعة هى أن تعبد الله ، والطريقة هى أن تقصده وتجاهد نفسك فى سبيله ، والحقيقة هى أن تشهده ، فلا تغفل عنه لأنه ليس غافلا عنك .

وبفضل تثقيفهم اياى تشرفت بالمحاضرة مرات عديدة بالازهر المعمور وغيره ، ونفع الله بمحاضراتى كثيرا من الشبان المثقفين ثقافة مدنية أو دينية ، وارتاد بعضهم مجلسى ، راغبين فى فقه الدين ، فعلمتهم فقه العبادات على مذهب الامام مالك . رضى الله عنه . وهو الذى تلقيته عن شيخى العارف بالله الشيخ على عقل ، وكان اقبالهم على درس الفقه سببا فى تأليف كتاب فى الموضوع ، وهو الآن طبع ، وسأوزعه هدية دون ثمن ، حسبة لوجه الله تعالى ، وراعيت أن يكون سهل العبارة ، خاليا من التفريعات الجزئية ، وقد تفضل بمراجعته الاستاذ الجليل الشيخ صالح شرف ، عضو جماعة كبار العلماء ، وسكرتير عام الازهر سابقا، وقدم للكتاب فأثنى عليه بحمد الله وهوكتاب مبسط تزيد صفحاته عن الثلثمائة صفحة ، نفع الله به ، وجعله خالصا لوجهه الكريم . ثم انى لقنتهم التصوف على طريقة سيدى الامام الجليل الحاج محمد أبى خليل ، قدس الله سره ، وهى طريقة الذكر الكثير والمدد الغزير .

ومن يمن طالعى أنى صحبت شيوخى الصوفية الأجلاء ، فى شبابى الباكر ، فأتيح لى أن أعاشرهم طويلا ، فعاشرت شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى . طيب الله ثراه . خمسة عشر عام ، وعاش بعده تلميذه الأنور سيدى الشيخ على عقل نحو أربعة أعوام ، فبلغت صحبتى له نحو تسعة عشر عاما ، وكنت أحرص أن ألتقى باحدهما وبكليهما يوميا ، والمنهل العذب كثير الورد .

ومن عجب أنهما تدرجا بى فى العلم والمعرفة بلطف وحسن مأخذ ، فقد استأذنت فى مبدأ صحبتى فى السفر الى قريتى ملاطية التابعة لمحافظة المنيا بصعيد مصر ، لأ قضى أجازتى ، مع والدى وأهلى ، فبادرنى شيخى . الشيخ على عقل . رضى الله عنه . وقال لى : اقرأ بمسجد البلد درسا فى الحديث أيام الأجازة ، فقلت فى الحديث النبوى

الشريف ؟ قال نعم ، قلت وهل لمثلى ذلك الشرف ، ولا علم لى بالحديث الشريف ، قال : لا شأن لك ، فقلت ساعتبر هذا أمرا من شيخى أتلقاه بالسمع والطاعة دون جدل ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

ولم يكن لدى حينئذ أى مرجع من مراجع الحديث الشريف ، فطلبت الى أحد تلاميذ شيخى من العلماء أن يوافينى ببعض الاحاديث فى رسالة يبعث بها الى بالبريد ، وسافرت ، وجاءتنى الرسالة متضمنة أربعين حديثا من الصحاح فحفظتها عن ظهر قلب ، وكانت هى باكورة البركات التى توالت على بعد ذلك . وجاءت الاجازة التالية فاذا بسيدى الشيخ على يأمرنى أن أعلم الناس بالمسجد فقه العبادات على مذهب الامام مالك ، واختار لى كتاب الشرح الصغير للامام الدردير . رضى الله عنه . فأدركت أن الشيخ يريد منى أن أتعلم وأتفقه قبل أن أعلم وأفقه غيرى ، واختار لى مذهب الامام مالك لأنه منتشر ببلاد الصعيد بوجه عام ، وأراد الشيخ أن أكون متعلما ومعلما فى آن واحد ، وهى من أعاجيب الشيخ .

وصدعت بأمر الشيخ ، وتفقهت وفقهت غيرى فى آن واحد ، وأرجأت المسائل الصعبة حتى أتيته وقلت له مازحا ما رأيت أحدا قبلك يعين مدرسا قبل دراسته ، فضحك . فقلت له : أما وقد أردت منى أن أخوض البحر الخضم ، فعلمنى كيف أعوم على أصول ، فأذن لى أن القاه كل عصر ، لأتلقى عنه الفقه والحديث والقراءة ، فكانت من أسعد أوقاتى ، جزاه الله عنى خيرا ، وكان يجول بى فى جميع المذاهب يبين لى سند الحكم عند كل امام ، وكان يغرف من فيض الهى .

وكان سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى . رضى الله عنه . مباركا أخذى عن سيدى الشيخ على . رضى الله عنه . وقد ذهبت لزيارته مرة ، فبادرنى بعد السلام عليه وقال : اجلس واقرأ على بعض القرآن لانظر ماذا علمك الشيخ على ، فقلت مازحا : امتحان مفاجىء ، فقرأت بضعة أرباع من أول سورة البقرة ، ثم كان . رضى الله عنه . يأمرنى أن أتكلم فى بعض المناسبات ، كمولد النبى . صلى الله عليه وسلم . ثم كان يعيرنى أو يهدى الى بعض مؤلفات والده العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الحلوانى . رضى الله عنه . وكانت كثيرة وفى كل فنون الشريعة وما يتصل بها ، وقد انتفعت بها ونفعت ولله الفضل والمنة .

وهكذا كان التدرج ، التلقين حتى وقفت على ساقى ، وشققت بنفسى طريق التوسع بالاطلاع والتوفيق ، وأرجو أن أكون على الدوام سالكا دربهم ، ملتزما طريق الهدى والصلاح والفلاح ، الذى رسمه شيخنا الأكبر قطب عصره ، ومجدد قرنه ، سيدى الحاج محمد أبو خليل ، مربى الرجال ، فى طريق الوصال ... وباعث الهمة فى أهل المحبة ، والذى سهر الليل فى نوره القلبى الوضاء ، ليكشف لتابعيه حجاب الغفلة فيجتنبوه ويبين طريق الحق فيسلكوه ، بأنوار الشريعة وأسرار الحقيقة . ويالها من أنوار ويالها من أسرار عند هؤلاء الاقطاب الابرار ، الذين هم ودائع الله فى خليقته وصفوته فى بريته ، أمدنا الله بمددهم ، وألحقنا بزمرتهم يوم يحشر المتقين الى الرحمن وفدا حين يكون ما قال سبحانه (يوم ندعو كل أناس بامامهم) .

ترقى الذاكرين

(ان للذكر نورا يظهر من الباطن الى الظاهر ، وتكون له بوادر وطوالع ، فيكون هناك اشراق على الوجه يجذب الأرواح ، فتتلألأ الطوالع فى الذاكر ، وتكون دليل الذاكر فى أحواله وكلامه ومخاطباته ، وتكون باب الهداية للغير .

فاذا ترقى الذاكر اشتد الهامه ، ويترقى بعد الاحوال الى مقامات القرب حتى يتحول من النظر للدنيا الى الاخرة ، فلا يكون بينه وبين الله حجاب وتصير روحه مع الله سبحانه وتعالى فلا يرى غيره ويتحول الاشراق من الظاهر الى الباطن ، حتى تناجى نفسك أين النور الذى كنت أراه ولا تدرى أنه مع الله ، زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله .

جاءت هذه السطور فى رسالة بعث بها العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلونى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك صديقى السيد سالم جمعة ، زاده الله فضلا وتوفيقا ، وهى ترينا أثر ذكر الله تعالى فى أرواح المؤمنين فى بداية سلوكهم وفى وسطه وفى نهايته.

أما فى البداية فان الذكر يخرج القلوب من غفلتها الى اليقظة فتكون أشبه بالنائم الذى استيقظ بعد نوم ثقيل وأخذ يستعيد نشاطه شيئا فشيئا ، حتى يتنبه لما حوله ، تنبه اليقظ فيعى ما يقول أو ما يقال له فاذا تيقظ القلب بذكر الله بعد تمام الغفلة داخلته الأنوار وواتته الاسرار على قدر درجته فى اليقظة وما قدره الله له من رزق القلوب .

فاذا كان مقدرا له أن يكون داعيا الى الله باذنه ، خرج كلام قلبه على لسانه وله حلاوة يذوقها السامع بوجدانه ويرجو منه المزيد ، وما خرج من القلب حل فى القلب ، فكان سببا فى ارشادها وهدايتها .

واذا تكلم السادة الصوفية عن الذكر فانهم يقصدون به عموم ذكر الله وخصوصه ، والمقصود بذكر الله فى عمومه ، تجنب الغفلة عن الله

تعالى : والمقصود بخصوصه فراغ القلب من كل شىء الا من الله سبحانه حتى أنهم يقولون فى معنى قوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) أى سليم مما سوى الله .

فمن عموم الذكر ، جميع العبادات ، لانها فرضت ليذكر العباد ربهم فيها ، اما مناجاة وخضوعا كالصلاة واما شكرا على نعمائه كالزكاة ، أو مراقبة له فى اسرارهم كالصيام ، أو هجرة فى سبيله ونفقة فى مرضاته مراقبة له فى اسرارهم كالصيام ، أو هجرة فى سبيله ونفقة فى مرضاته كالحج ، وهذا كله على أساس الشهادة بافراده وتوحيده ، والاعتراف برسالة رسوله الأمين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، نطقا باللسان ، وتصديقا بالقلب .

وما تستلزم هذه العبادات من فقه بأحكام الشرع فيها ، يدخل فى عموم الذكر ، كما يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما حض عليه الاسلام أو أوجبه من اقامة الروابط بين المسلمين كبر الوالدين وصلة ذوى الأرحام وعيادة المريض ، وتشييع الجنائز وجهاد الأعداء والاصلاح بين الناس وكذلك اجتناب المعاصى من الزنا وقتل النفس وشرب الخمر والقمار والتجسس والغيبة والنميمة .. الخ الخ .

ذلك بأن المؤمن لا يقيم العبادات ولا يأتى الطاعات ولا يجتنب المنهيات الا تنفيذا لأوامر الله ونواهيه ، فهو فى كل ذلك ذاكر ربه ومراع حدوده .

ولكن هذه الأمور وان تكاثرت لا تستغرق وقت المؤمن كله فالصلوات ذات أوقات وكذلك سائر العبادات والطاعات .

أما ذكر الخصوص عند السادة الصوفية فهو الذى يستولى على فراغ القلب بالكلية باليل والنهار سرا وعلانية فلا يبقى معه حيز لغيره سبحانه ، وفى ذلك هم يقولون :

العابدون متصفون بطاعة الله مقبلون على عبادة الله محترفون باستشعار الخلوص فى تقوى الله .

والزاهدون مقيمون على الاكتفاء بوعد الله ، معرضون عما يوجب التهمة فى ضمان الله .

والعارفون ان قاموا قاموا بالله ، وان سكتوا سكتوا بالله ، فكيف دارت أوقاتهم ، وتصرفت أحوالهم ، فالغالب على قلوبهم ذكر الله ،

لاح لأسرارهم منه علم فذهب عن احساسهم كل وهم ، أذاقنا الله مما أذاقهم شمة ، فهوا ولى كل نعمة .

وتلك الدرجة العليا دونها عقبات لا يصبر على اجتيازها الا نفر قليل من أهل المجاهدات ، الذين لا تعرف همتهم الملل ، ولا عزيمتهم الكلل وهم يقولون من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل . وانما يطلبون رضاء الله سبحانه ، ورضاؤه أعز مطلب ، وأعلى منال ولا ينال غاية رضاه من فى قلبه سواه .

وأول عقبة يجتازها أحدهم ، عقبة هم الرزق ، ذلك الهم الذى الهى أكثر الناس عن طلب الآخرة ، حتى كأنهم خلقوا للدنيا ولم يخلقوا للآخرة ، وفى ذلك يقول سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه : كان ابتداء توبتى أنى رأيت غلاما فى سنة قحط يمرح زهوا ، والناس تعلوهم الكآبة لمقاساة أثر القحط (قلة المحاصيل) فقلت له : ياهذا ، ما هذا المرح أما ترى ما فيه الناس من المحن فقال : ما يحق لى حزن ولسيدى قرية مملوكة يدخر منها ما أحتاج اليه .

فقلت فى نفسى ان هذا العبد مخلوق ولا يستوحش لأن لسيده قرية مملوكة ، فكيف يصح لى أن أستوحش وسيدى مالك الملوك فانتهيت وتبت .

ولثقتهم بالله فى تدبير معاشهم يقولون : ان الله خص الأغنياء بالأرزاق وخص الفقراء بشهود الرزاق ، ، وقد قيل لأحد هم من أين تأكل فقال من خزائن ملك لا تدخلها اللصوص ولا يأكلها السوس .

فاذا طرحوا عن قلوبهم هم الرزق ثقة بالله الذى كفل الأرزاق لعباده ومخلوقاته جاهدوا أنفسهم فى ترك المعاصى خوفا من سخط الله الذى نهاهم عنها وحذرهم منها ، ثم أقبلوا على الطاعات طمعا فى مرضاته سبحانه وهو الذى رسمها لهم ، وأمرهم بها . وفى ترك المعاصى مخالفة لهوى النفس وفى الاقبال على الطاعات ايثار لله تعالى على حظوظها ، ومخالفة هواها أهم عندهم من أعمال البر ، لأنهم يقولون : أعمال البر يعملها البار والفاجر ولا يجتنب المعاصى الا صديق .

ولأن النفس لا تستجيب لهم فى نبذ هواهم بسهولة فانهم يدخلون معها فى معترك شديد ، لا يره الناس وانما يراه الله سبحانه بعلمه الذى

لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولأنه سبحانه هو الحق ، فأنه ينتصر للحق على الباطل فتكون الغلبة لهم فى نهاية الشوط على باطل نفوسهم ، فيثبتهم على الحق ، ويكتشف لهم طريقه ويذيقهم بعد مرارة المجاهد حلاوة النصر ولذة التوفيق مصداقا لوعده الكريم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سلبنا وان الله لمع المحسنين) وبذلك الهدى الربانى يأمنون الزلل حتى يلقوا ربهم على خير فى ايمانهم .

ويقول السادة العارفون : ان أمان العبد على قسمين قسم مؤجل وقسم معجل ، فالمؤجل يكون يوم القيامة فى الجنه كما يقول سبحانه (أولئك لهم الأمن) والمعجل يكون فى الدنيا ويأمنهم الله به من خواطر الشيطان التى تقدح فى الايمان ، بما يتيح لهم من واضح البرهان ، ويتيح لأسرارهم من لائح البيان .

فاذا عارضتهم بوارح الشكوك ، او ناظرهم من هو فى الحكم المخالف للكتاب والسنه والجماعه ردوا بالحجج على اهل البدعة وغيروا وجه الشبهة ، قال تعالى (ان الذين اتقو اذا مسهم طائف من الشيطان تذكرو فاذا هم مبصرون) فيكون المخالف فى أسر التهمة وامتداد الظلمة ، وهم فى روح اليقين ، والنور المبين لا يداخلهم شك ، ولاتنازلهم شبهة .

وهم يعنون عناية كبيرة بذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى ليذكرهم سبحانه كما يذكرون (فاذكرونى أذكركم) ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى تعقيبه على قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

أراد به سبحانه التسميات ، ولذلك قال الحسنى وهى تأنيث الأحسن ، ففى الآية دليل على أن الاسم هو المسمى ، وهو سبحانه واحد والأسماء جمع فلابد من صرف اللفظ عن الظاهر الى المجاز فلهذا قلنا ان المراد به : ولله التسميات .

ووصف أسمائه بالحسنى يرمى الى ما تتضمنه وتدل عليه من صفات العلو ونعوت العظمة والكبرياء أو الى ما يستحقه الذكر والداعى له بتلك الأسماء من جزيل الثواب وحسن المآب.

واستطرد ، رضى الله عنه ، يقول بعد ذلك فى ابداع واضح :

ولأن تكون بأسماء ربك داعيا ، خير لك من أن تكون بأسماء نفسك مدعيا فانك اذا كنت بك كنت بمن لم يبق ، واذا كنت به كنت بمن لم يزل ، وشتان بين وصف ووصف .

وأهل الهمة هؤلاء يضعون نصب أعينهم الآية الكريمة (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) ويقولون فى تعقيبهم عليها :

دلت الآية على وجوب الاستقامة ، فان الاصطبار نهاية الصبر ، ومن صبر ظفر ومن لازم وصل ، وقد قيل : من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له وأنشدوا :

انى رأيت وفى الأيام تجربة

للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقال من جد فى شىء يطالبه

فاستصحب الصبر الافاز بالظفر

وعندهم ان تعظيم العبد لربه انما يكون على حسب كماله ومعرفته ، ولذلك يقول الامام القشيرى رضى الله عنه : لو كنت تعرف قدره لما كنت تترك أمره . ويقول بعض العارفين : عجبت لمن يترك الحلال مخافة الداء ولا يترك الحرام مخافة النار .

وهم يشددون فى ترك المخالفات ويقولون لا يعرفه سبحانه عزيزا الا من أعز أمره وطاعته أما من استهان بأوامره فمن المحال أن يكون متحققا بعزة مولاه .

وفى المعنى المتقدم حكوا أن رجلا قال لبعض العارفين : كيف الطريق اليه فقال لو عرفته عرفت الطريق اليه فقال أترانى أعبد من لا أعرفه فقال المسئول : أو تعصى من تعرفه ؟

وهم يشجعون المريدين على التوبة من المعاصى فى أول سلوكهم فيقولون انه تعالى قال (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) أخبر سبحانه عن الذى يأتى السيئات بالفعل ثم يستغفر الله بالقول فانه يجد الله غفورا رحيما فقد سهل الله عليك الأمر حين رضى منك أن تستغفره بالقول من عمل سوء عملته بالفعل ، ثم

انظر فى قوله تعالى (يجد الله ..) وأى نكتة لمن يعقلها ، طلبوا المغفرة فوجدوا الله رب المغفرة ، فالعجب من عاص طلب المغفرة فوجد الله تعالى .

ويقول فى ذلك أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه الهاما لوقته :

لو كان كالطود ذنبى فى ضخامته

وقلت يارب عنى الذنب قد مسحا

الذنب يحزنى والعفو يفرحنى

فاعجب لكاسب ذنب ينتشى فرحا

ويقول السادة الصوفية ان الله تعالى يفتح للنفوس بركات التوفيق وللقلوب زوائد التحقيق ، فبتوفيقه تزين النفوس بالمجاهدات ، وبتحقيقه تتزين القلوب بالمشاهدات ويقولون أيضا أنه سبحانه يرزق الأرواح والسرائر ، كما يرزق الأشباح والظواهر .

أما ما يقوله سيدى الشيخ رضى الله عنه من أن الذاكر اذا ترقى اشتد الهامه ، فيرقى من الأحوال الى مقامات القرب حتى يتحول نظره من الدنيا الى الآخرة فلا يكون بينه وبين الله حجاب ، وتصير روحه مع الله سبحانه وتعالى فلا يرى غيره ... الخ فيوضح ذلك لنا سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه فيقول :

اعزاز الله لعبده يكون فى الدنيا والآخرة ، فأما فى الدنيا فيكون بالمال والحال ، فالمال لتجميل الظواهر والحال لتزيين السرائر وبالمال يستغنى العبد عن الاشكال والامثال (أى من الناس) وبالحال يحصل له افتقار الى من لم يزل ولا يزل (سبحانه) فالاعزاز بالمال فيما بين الخلق والاعزاز بالحال على باب الحق .

ثم يقول رضى الله عنه : واعلم أنه سبحانه يعز الزاهدين بعزوف نفوسهم عن الدنيا ، ويعز العابدين بسلامة نفوسهم عن الرغائب والمنى ، ويعز أصحاب العبارات بسلامتهم عن اتباع الهوى ويعز العارفين بتأهيلهم لمقامات النجوى ويعز المحبين بالكشف والغنى عن كل ما هو غير وسوى ويعز الموحدين بشهود جلال من له البقاء والبهاء .

وأما ما يقوله سيدى الشيخ فى ختام عبارته : زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله ، فيبينه لنا سيدى الامام القشيرى فى ابداع واضح فيقول :

وصفة الجمع ألا يكون العبد لنفسه بنفسه ، بل يكون لربه بربه ، واذا علم أن مولاه يسمع ما يقول ويرى ما يختلف به من الأحوال فانه يكتفى بسمع الله وبصره عن انتقامه لنفسه وانتصاره بنفسه ، فان نصرة الحق سبحانه أتم له من نصرته لنفسه .

ويستطرد رضى الله عنه قائلا : قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) ثم أنظر بماذا سلاه ، وكيف خفف عنه أثقال بلواهم بما شغله به عنهم فأمره به حيث قال تعالى : (فسبح بحمد ربك وكن مع الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى اتصف أنت بمدحنا وثنائنا اذا تأذيت بسماع السوء فيك ، فاستروح بروح ثنائك علينا .

ويقول أبو على الدقاق رضى الله عنه : ان الله تعالى قال مخبرا عن ابراهيم عليه السلام (انى ذاهب الى ربى سيهدين) كان ذاهبا فى الله فلهذا صار ذاهبا الى الله تعالى : فذهابه فى الله ذهابه الى الله .

ويقول السادة العارفون انه تعالى لطيف بعباده ومن لطفه بهم أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة قال سبحانه (واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) والأسباغ ما يفضل عن قدر الحاجة ، وقال تعالى فى صفة التكليف (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقال تعالى : (ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم) . والاصر الثقل والأغلال الشدائد . وقال صلى الله عليه وسلم (بعثت بالحنيفية السمحة السهلة) . الحنيفية أى الشريعة المائلة عن كل

دين باطل . وقال صلى الله عليه وسلم (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) .

ويقولون كذلك : ان الله تعالى حين أوجب على العبد فى اليوم والليلة خمس صلوات لم يكلفه أن يؤديها مرة واحدة ، بل جعلها عليه مجزأة ، فصلاة يومك لم يقبضها منك دفعة واحدة واعطاك من الرزق ما يكفيك لسنين كثيرة فلا تسخط ولا تتبرم .

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى روعة بالغة :

ومن لطفه تعالى بالعباد حفظ التوحيد فى القلوب وصيانة العقائد عن الارتياب وسلامة القلوب عن الاضطرار ، قال تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وبقاء المعرفة بين وحشة الذنب أعجب من اخراج اللبن من بين فرث ودم . الفرث تفل الكرشى . ولكن جرت سنته سبحانه لحفظ كل لطيفة بين كل كثيفة ، بل أجرى سنته باخفاء الوداع فى مواضع مجهولة ، فكما جعل الحجر الصلد معدن الذهب والفضة وكثير من الجواهر جعل كذلك القلوب معادن العقائد الصافية والمعادن الصحيحة . وكما جعل الغار للمصطفى والصديق مأوى والجب ليوسف مثوى والصدف للدر درجا والنحل للعسل مكانا والدود للحرير محلا كذلك جعل قلب العبد لمحبته ومعرفته مستقرا .

ويقول الامام كذلك :

ومن لطفه بالعباد أنه يوفقهم لذكره والرجوع اليه ومناجاته ورفع الحوائج بحضرته ودوام المناجاة معه متى شاءوا مع كثير ما يتعاطونه من مخالفة أمره ، فسبحانه ما أحلمه على العاصين ، وأكرمه للمؤمنين .

ويقول السادة الصوفية : ان الله تعالى يجازى العبد على اليسير من الطاعات بالكثير من الدرجات قال تعالى : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) والله سبحانه أنعم على العباد بجميع ملاذ الدنيا وكرائمها ثم عد ذلك قليلا فقال تعالى : (قل متاع الدنيا قليل) ثم انه تعالى يقبل اليسر من طاعة العباد ويثنى عليهم بالكثير قال تعالى : (.. والذاكرين الله كثيرا والذكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) فكم كان عمرهم حتى عد ذكرهم كثيرا .

ويعقب سيدى الامام ابن عجيبة الحسنى رضى الله عنه على قوله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) فيقول : يخرجهم من ظلمة الكفر الى نور الايمان ومن ظلمة المعصية الى نور الطاعة ومن ظلمة الغفلة الى نور اليقظة ومن ظلمة الحس الى نور المعنى أو من ظلمة الكون الى نور المكون .

ويقول بعض الصوفية ليس فى الدنيا ما يشبه نعيم الجنة الا ما يجده الذاكرون فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

وهم يقولون ان الناس فى شهود الأنوار الباطنية على ثلاثة أقسام ، قسم يشهدونها على البعد وهم أهل مقام الاسلام وقسم يشهدونها على القرب وهم أهل المراقبة من مقام الايمان وقسم يشهدونها على الاتصال وهم أهل المعرفة من مقام الاحسان . فأهل مقام الاسلام أنوارهم ضعيفة كأنوارالنجوم وأهل مقام الايمان أنوارهم متوسطة كنور القمر وأهل مقام الاحسان أنوارهم ساطعة كأنوار الشمس .

بل قال بعضهم أن نور أولياء الله أعظم من نور الشمس والقمر . وعللوا ذلك بأن نور الشمس قد يعتريه الكسوف ونور القمر قد يعتريه الخسوف أما قلوب الأولياء فلا تكسف ولا تخسف وفى ذلك قيل :

هذه الشمس قابلتنا بنور

ولشمس اليقين أبهر نورا

فرأينا بهذه النور لكن

بهاتيك قد رأينا المنيرا

ولهذا قال سيدى الشيخ زروق رضى الله عنه : شمس القلوب لا تغيب أبدا بل هى دائمة لا تنقطع وباقية لا تنصرم لبقاء مددها ، وهى معانى الأوصاف الربانية والمتعلق بها متعلق بحقيقة لا تنصرم ، ومن هذا الوجه كان غنى القوم بالله بالأسباب ، وتعلقهم به سبحانه لا بشىء دونه .

وفى ذلك يقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى الذى أخذناه عنه :

فتشت كل الخلق عن علم فلم

أر لى سوى رب السما من وال

فتركت كل العالمين وجئته

وجعلت ذكرى ذاته منوالى

يا نفس انى لا أمالىء غيره

قومى الى حوض الكريم تعالى

ان الذى فهم المحبة قلبه

فى القدر من بين البرية عال

ويقول أيضاً رضى الله عنه :

ان تكن نشوة الضلوع بخمر
قد جعلنا هداه للروح خمرا
ان ذكرنا وقد سكرنا بروح
فسكارى ولم نذق بعد سكرا

ويقول كذلك رفع الله فى أوليائه قدره :

أمسى على أرق اشتاق فى حرق
بالدمع فى غرق قصدى محياه
الحب يكسبنى عزى ويلبسنى
ثوب الوقار ويهدينى للقياه
وان اراد الهى بامرىء شرفا
يرى المحبة مبناه ومعناه
طال المدى وفؤادى لا يفارقه
والحب ان دام تذكينا حمياه
لا أنثنى عن هواه لحظة أبدا
وكيف أسلو وقلبى بيت جدواه
أرواحنا قال فيها الحق من قدم
ها هم رجالى وان المقصد الله

والجدوى هى العطية .

وينوه رضى الله عنه بأن ذكر الله تعالى كان بابه الى محبة الله تعالى فيقول :

ولم أدر طعم الحب من بدء نشأتى
ولكنهم بالذكر قد شغفونى
وكنت خليا لست أعرف ما الجوى
ولكنهم بالحق قد شغلونى
خلا حبه فهما ووجدا ورغبة
لذلك كل الخلق قد رغبونى
أطوف بوجدانى على كل عاشق
فألقى احتراما ان همو شهدونى

**والجوى هو الشوق الشديد

ألا رضى الله عن أسلافنا الصالحين وعن شيوخنا المباركين ، الذين رأينا فى مسلكهم لله تعالى مثلا من الأولين وقدوة للآخرين والحق واضح والطريق لائح والداعى قد أسمع التخلف بعد ذلك الا من قصور وتقصير . أما أهل العزم فمنهم الاقبال ولهم القبول وليس مع الهمة الا بلوغ القمة ولا ظفر الا بالصبر ولا حصاد الا بالزرع ، ولا حياة الا بالقوت ولقد أقام الله الأسباب ليفتح بها لعباده الأبواب بابا بعد باب فمن طرح الفتور وأزال القشور كشفت له الحقائق وظهرت له القائق ووقف بعد جهاده على الدقائق وبان له الفرق بين البداية والنهاية وبين العبد الآبق والمحب الذائق فالأول يضرب فى أرض التيه ولا يهتدى سبيلا والثانى يرد بحار الجمال فيغرف ويعرف ويشرب ويطرب ثم يصدر عن رى لا ظمأ بعده . وكيف يظمأ من سقاه ربه شرابا طهورا ولقاه نضرة وسرورا (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب) .

محاسبة النفس وتقوى الله

(وأنا أبرأ الى الله مما قيل بغير حق ، فأوصيك يالتقوى ، واطلب من الله المزيد من الأعمال الصالحة ، فهو المعطى سبحانه وتعالى ، وجد واجتهد ولا تقل عملت كذا ، بل خذ ساعة من نهارك وليلك ، وحاسب نفسك بين يدى ربك ، وعلمها الأدب معه ، واستصغر نفسك أمام الله ، فلا تعرف سواه ، فهو العليم الحكيم القادر المقتدر ، وارض بقضائه وقدره ، وكن مع القضاء حيث أراده الله لك ، واترك أمورك بين يديه فانك لا تعلم الخير فى تعجيل المسائل أو تأجيلها)
.

ذلك مما كتب سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعة مد الله فى عمره وزاده من فضله ، وهى نصيحة غالية كما تراها ونحن أحوج ما نكون للانتصاح بها ، فهى تدعو الى تقوى الله تعالى والهمة فى طلب مرضاته ومحاسبة النفس فى سلوكها معه سبحانه ، واستقلال الكثير من عملها فى جنبه تعالى ، والركون اليه ، والاعتماد عليه ، والرضا بحكمة ،لأن أفعاله كلها حسنة وان خالفت ما نريده ، وهو تعالى يعلم مالا نعلم .

وإنما أراد الشيخ لتلميذه أن يسلك فى ايمانه طريق الخواص من عباد الرحمن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فاستقامت ظواهرهم وبواطنهم ، وساروا الى الله على نور من ربهم ، وتأسوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله والفرق كبير بين هؤلاء وبين عوام المؤمنين الذين قال الله لهم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) . . وعلى الرغم من أن عوام المؤمنين لم يصدقوا الله فيما عاهدوه عليه فانه سبحانه حذرهم من غضبه ، ولم يسلبهم وصف الإيمان بل ترك لهم فرصة لتوبتهم وصلاح شأنهم حتى تتفق أفعالهم مع أقوالهم والله غفور يقبل توبة التائبين ويعفو عن كثير .

فأهل الايمان ليسوا سواء ، فمنهم ذاكرا وغافل ، اما الذاكرون فانهم يسعون فى تقوى الله ومرضاته وأما الغافلون فانهم مفرطون فى الطاعات ومقبلون على الشهوات فاذا دهمتهم الحوادث هرعوا الى الله يجأرون ودعوه أن يكشف الضر عنهم ، فلم يعرفوه سبحانه على الدوام فى العسر واليسر ، والبلاء والرخاء ، أما الذاكرون فافتقارهم الى الله قائم ودائم ففى الرخاء هم راضون شاكرون ، وفى البلاء هم صابرون مسلمون ومع ذلك هم فى معترك مع أنفسهم يستنهضون همتها فى الطاعات والمجاهدات ، ويتهمونها على مر الأوقات بأنها مفرطة فى جنب الله ، الذى أسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة ، وهم فى ذلك يقولون : كيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ويوسف الصديق يقول (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) .

فلا تعجب بعد ذلك أن ينصح الشيخ تلميذه ، فيوصه بالتقوى وطلب المزيد من الأعمال الصالحة من ربه المعطى الوهاب ، كما يوصيه ألا ينسب لنفسه عملا ويمن به على الله صاحب المنة والفضل العظيم (وما بكم من نعمة فمن الله) .

والتقوى كلمة قليلة فى مبناها ، كثيرة فى معناها ومما يدل على عظم معناها أن القرآن الكريم يدور كله حول قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) فالتقوى اذن تتضمن – فى اساسها – الايمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره وسائر الايمانات .

ثم تتضمن بالتبعية طاعة الله ورسوله وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات ، وهو ما يقتضى مجاهدات ظاهرة وباطنة ، لا يحرص عليها ويوفق اليها الا السابقون بالخيرات باذن الله .

وانك لا تستطيع أن تدرك من التقوى عظم شأنها الا بعد أن تتدبر طويلا فى قول الله تعالى عز وجل (انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) .

والمقصود بالأمانة فى الآية الكريمة التكاليف الشرعية التى حملنا الله اياها ، ولا يصل الانسان الى تقوى الله الا اذا أدى تلك التكليف كما يحب الله ورسوله ، وهذا يفسر لنا ما نبهنا الله اليه من العناية بفهم كتاب

الله الكريم والاصغاء التام لأوامره ونواهيه فى مثل قوله تعالى (واذكروا ما فيه لعلكم تنقون) والمؤمن مخاطب بالقرآن الكريم كلمة كلمة وحرفا حرفا ، وقد يسره الله للذكر ، فهل من مدكر .

وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتغير لونه اذا جاء وقت الصلاة ، فكانوا يقولون له :

مالك ياأمير المؤمنين فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان فلا أدرى أحسن أداء ما احتملت أم لا.

والمتأمل فى قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) يرى ولا شك أن الله حاضر معنا ويرى ما يقع منا من خير وشر . فيجب أن نعامله معاملة الحاضر لا معاملة الغائب ، فان اجترحنا السيئات التى نهانا سبحانه عنها كان فى اجتراحها الدليل القائم على غفلتنا عنه مع ما نبهنا اليه فى كتابه الخالد من أنه حاضر معنا ويرانا فى متقلبنا ومثوانا ويعلم سرنا وجهرنا .

ومما تقدم تعلم كيف تفاوتت رتب المؤمنين فى قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) فالأولون ظلموا أنفسهم أو ظلمتهم أنفسهم الأمارة بالسوء حين أطلقوا لها العنان فى الشهوات ، والأوسطون ذوو نفوس لوامة تغفل حينا وتتيقظ حينا ، واذا غفلت تابعت هواها واذا تيقظت ندمت على ما فرط منها وتابت الى الله فتابت الى رشدها بعد الغى ، أما السابقون فهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وفهموا عن الله فساروا الى الله وأعرضوا عما سواه ، فأنسوا به واستوحشوا من غيره فهم أجسام روحانيون وفى الارض سماويون .

وهؤلاء السابقون بالخيرات هم أهل السعادة الحقة ، فان لهم فى الدنيا جنة المعرفة ، ولهم فى الاخرة جنة الزخرفة التى ورد فيها حديث البخارى فقد روى بسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن الله تعالى (أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ، واقرأوا ان شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) .

وما أبدع ما يقوله سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى الفرق بين عوام المؤمنين وخواصهم حين يقول فى حكمه : اهتدى الراحلون اليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة فالأولون للانوار وهؤلاء الانوار لهم لانهم لله لا لشىء دونه (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) .

والتقوى تقتضى المبادرة بالاعمال الصالحة قبل أن يحول بين المؤمن وبينها بعض المعوقات أو الموت ، وقد وعظنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بالغة حين قال لنا صلوات الله وسلامه عليه (بادروا بالأعمال سبعا قبل طروء سبع ، هل تنتظرون الا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة أدهى وأمر) وهو بهذا يشرح لنا قوله تعالى (فاستبقوا الخيرات) .

ويقول الامام سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : أول الانس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصا ، فيأنس العبد بالله أى يسكن اليه .

ويدلنا السادة الصوفية على الميزان الذى نعرف به منزلتنا فى سيرنا الى الله فيقولون : اذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فاعرف قدر الله عندك ، وهو كما ترى ميزان قسط ، وقد نبه اليه أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثره فى فتوحاته الشعرية الملهمة التى سجلناها سماعا منه فقال :

وإذا أردت بأن توازن بينهم — فزن الرجال بحب ربك واصطف

ثم استطرد فدلناعلى علامة حبه سبحانه فقال رضى الله عنه .

واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى — حافظ على آياته بتلهف
وانهض بروحك نهضة قدسية — ولسنة المختار فى السير اقتف

وأرشدنا رضى الله عنه الى اخلاص النية والصبر فى العبادة وذكر الله تعالى فقال :

لا تذكر البارى بقصد ولاية — أو أن تكون على السماء لا تنطفى
بل فابغ وجه الله جل جلاله — من رام غير جنابه لم يشرف
واصبر فان الصبر عنوان الوفا — لا يدرك التقوى سوى القلب الوفى
ليس التصوف بالكلام وانما — صدق الفعال قرارة المتصوف

ولا يبلغ المؤمن درجات المتقين الا بالورع ، وقد قال الامام ابن سيرين رضى الله عنه ، ليس شىء أهون على الله من الورع ، اذا رابنى شىء تركته ، ولا شك أنه استضاء فيما يقوله بالحديث الشريف (الاثم ما حاك فى صدرك) ولهذا قال صالى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحابى رضى الله عنه (استفت قلبك وان أفتاك المفتون) وقد يفتى أهل الفتوى بشىء لا يرتاح اليه القلب التقى فيترك المؤمن ما يربيه الى ما لا يريبه وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) والفرقان نور فى القلب يفرق به بين الحق والباطل وقد زكى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، ولذلك لقبه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاروق أى الذى فرق الله به بين الحق والباطل .

ويحرص السادة الصوفية على أكل الحلال حتى يقبل الله عبادتهم ويعرفون الحلال فيقولون : الحلال هو الذى لا تعصى الله فيه ، والحلال الصافى هو الذى لا تنسى الله فيه . ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى دعائم العبادة : وجدت العبادة فى أربعة أشياء : أولها أداء فرائض الله تعالى ، والثانى اجتناب محارم الله تعالى ، والثالث الأمر بالمعروف ابتغاء ثواب الله تعالى ، والرابع النهى عن المنكر اتقاء غضب الله تعالى .

وأما محاسبة النفس التى يدعو سيدى الشيخ اليها تلميذه ، فانها من نهج السلف الصالح ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزن عليكم . وقد شكا اليه جماعة من امام عينه عليهم وقالوا انه يصلى بنا ثم يغنى فسأله أمير المؤمنين أحقا أنك تصلى ثم تغنى قال نعم يا أمير المؤمنين ، قال ماذا تغنى قال أغنى وأقول :

وفؤادى كلما عاتبته
عاد للذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر الا لاهيا
فى تماديه فقد برح بى

ياقرين السوء ما هذا الصبا

فنى العمر كذا فى اللعب

وشباب بان منى فمضى

قبل أن أقضى منه أربى

نفسى لا كنت ولا كان الهوى

اتقى المولى وخافى وارهبى

فنظر أمير المؤمنين للشاكين وقال لهم : من كان منكم مغنيا فليغن هكذا ، لأنه رأى الامام يحاسب نفسه فيما يتغنى به . وقد كان الصحابى الجليل سيدنا أبو ذر رضى الله عنه يقول : ان قيامى بالحق لله تعالى لم يدع لى صديقا ، وان خوفى من يوم الحساب ما ترك على بدنى لحما ، وأن يقينى بثواب الله تعالى ما ترك فى بيتى شيئا ، وقد كان سيدى عبد الوهاب الشعرانى يقول : ومما من الله به تعالى على تفتيشى صباحا ومساء لكل جارحة من جوارحى الظاهرة والباطنة لا نظر ما فعلته كل جارحة فى ذلك النهار أو فى تلك الليلة من الطاعات أو المعاصى لأشكر الله تعالى أو أستغفره .

وقد نصح سيدى الشيخ تلميذه أن يجد ويجتهد فى مرضاة ربه مراعيا فى نصيحته هذه قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وفى ذلك يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل الهاما لوقته من كلام كثير :

واسلك سبيل الأقدميـ

ـن وخل ذكر الله وردك

يا قلب انك ان ترد

باب الا له فلن يردك

البس لباس تقى وسر

تدرك بفضل الله رفدك

ودع الحياة اذا دعت

وانظر لما خلدت بعدك

انا قد خلوت عن الورى

وجعلت حبى فيك وحدك

وأخذت ذكرك غايتى

وتبعت بالايمان جندك

يا قلب مالك غيره

بعد الممات يعيد ذكرك

اياك أن تأوى الى

دنيا تضر ولن تمدك

مهما أقمت بها فلن

تلقى على الأيام خلدك

ستزول عنك بصفوها

وسيضحك الباقون بعدك

وأما ما يوجه سيدى الشيخ من الرضا والتسليم بقضاء الله فانه من كمال الايمان ، لأن ما يجرى به القضاء هو من حكم الله الذى يجب أن يقبل بالصبر الجميل تنفيذا لقوله تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) ويقول سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه : من وصل الى مقام التسليم فاز برياض النعيم . ويقول سيدى أحمد الحلوانى والد سيدى عبد السلام رضى الله عنهما :

أفعاله محكمة وقل من يفهمها

يفعل ما يشاؤه لحكمة يعلمها

ويعلق على البيتين بقوله : ما فرحت بشىء من نظمى قط فرحى بهذين البيتين ، وأرجو أن ينفعانى غدا ان شاء الله تعالى ، وانى أكررهما فى النازلة تنزل بى فيكشف عنى غمها .

ويقول القطب الكبير سيدى عبد القادر الجيلانى قدس الله سره :

لا الأمر أمر ولا التدبير تدبيرى

ولا الأمور التى تجرى بتقديرى

لى خالق رازق ما شاء يفعل بى

أحاط بى علمه من قبل تصويرى

ويقول السادة الصوفية : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ، ورضاء الخواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل ما سواه وهو كلام نفيس فاحرص عليه وانتفع به .

ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما يقول له : أما بعد فان الخير كله فى الرضاء ، فان استطعت أن ترضى والا فاصبر . كما أنه رضى الله عنه كان يصف رضاءه بالقضاء فيقول فى استواء البلاء والرخاء عنده : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب .

ولا تعجب أن يقول أمير المؤمنين عمر ذلك فانه كان يقول فى فلسفته العالية التى يتحلى بها خواص الخواص : ما من بلاء يصبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم : النعمة الأولى أن البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، النعمة الثانية أنه لم يقع أكبر مما وقع ، النعمة الثالثة أن الله منحنى صبرا عليه فاحتملته ، النعمة الرابعة أن الله ادخر لى ثواب الصبر عليه .

آما مولانا الامام أبو عبد الله الحسين السبط رضى الله عنه فقد مات له ابن فلم ير الناس عليه الجزع الذى يرونه على الآباء حين يفقدون الأبناء فسألوه فى ذلك فقال شارحا رضاءه بقضاء الله تعالى : نحن أهل البيت نسأل الله فيعطينا فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا . وبذلك دلنا رضى الله عنه على أننا يجب أن نشكره تعالى على العطاء وكما نشكره على العطاء يجب أن نصبر على البلاء لأنه سبحانه هو المقدر للعطاء والبلاء على السواء .

ويقول سيدى أبو بكر الشبلى رضى الله عنه : من عرف الله لا يكون له غم أبدا . وسئل فى معنى تلك الكلمة فقال معناها كلمة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبح سرورى فى مواقع القضاء والقدر ، ولذلك سمعوا سيدى الشبلى ينشد :

ذاب مما فى فؤادى بدنى
وفؤادى ذاب مما فى البدن
فاقطعوا حبلى وان شئتم صلوا
كل شىء منكمو عندى حسن

ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى فتوحاته الملهمة .

رضاء الفتى بالله يشرح صدره
فلن يتأذى بالحوادث والخطب

ونحن أولو علم ولكن بوجدنا

شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب

كما يقول رضى الله عنه :

حياة الورى حلو ومر وانما

حلا المر بالتوحيد من رقة الحس

وانك لو عظمت دينك عالما

وعاملت بالحسنى وأدبت للنفس

وكنت على الأحداث بالله راضيا

سواء عليك الموت أو ساعة العرس

سعدت من الدنيا بربك محسنا

ونلت من الأخرى العطاء بلا بخس

اذا قيل لى أطلب قلت ربى مطلبى

وان قيل اشرب قلت أنواره كأسى

ولا يظن القارىء الكريم أن ما قاله سيدى الشيخ بعيد المنال ، فقد رأيت بنفسى منه صبر أولى العزم حين فقد أكبر آبنائه وكان فى نحو العشرين من عمره فصبر صبرا جميلا حتى كأنه لم يصب بشىء ، وقد أخبرت سيدى عبد السلام بعجبى من ثباته وصبره فى ذلك الحادث الأليم فقال لى رضى الله عنه ، أنا والشيخ على هكذا تأتينا المصائب فلا نتزحزح فقلت فى نفسى (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين).

ويفلسف سيدى الشيخ على عقل علة نزول البلاء فيقول فى روعة ظاهرة :

لولا التألم فى الحياة لما بدا

نور التأمل لامرىء قوام

لولا وقود النار فيما ينبغى

ما كان ينضج بعد أى طعام

وقد يسأل البعض وكيف يتأتى للانسان أن يحمل هموم المسلمين اذا نزل بهم بلاء أخذا بالحديث الشريف : من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم ، مع تسليمه ورضائه بما يجرى به القضاء ؟ والجواب على ذلك السؤال أجاب به الامام سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فقال : ان تحمل هموم المسلمين لا ينافى التسليم لله تعالى ، فيسلم العبد لله من حيث تقديره ويحمل همهم من حيث استحقاقهم ذلك بكسبهم .

ومن بديع ما نصحنى به سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، حين كنت فى شرخ شبابى وانتفعت به . فى حياتى . قوله لى فى احدى رسائله .

(أما عن الدنيا وما فيها ومن فيها ، فدعها بما فيها لمن يدبرها فيوفيها ، وفيها ما فيها : لأنك ان دبرت وصح التدبير وهو مطلوب شرعا ، فلا تدرى كيف قضى فيه ، فان صح القضاء بالرضا فهو القضاء ، وان حصل الجفاء ، سألناه اللطف فى القضاء ، مع الرضاء على أنه الرضاء) .

وأخيرا وليس آخرا أريد أن أنبه الى ما نهى الشرع عنه من الجدل فى القضاء والقدر : فقد حدث أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

(خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى أحمر وجهه ، ثم قال :

(أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت اليكم ، انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا) .

وسأل رجل الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه عن القدر ، فقال طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال بحر عميق لا تخض فيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال سر خفى لا نفشيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال ان الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ، فقال كما شاء، فقال ان الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ، قال : كما شاء ، قال ألك مشيئة مع

مشيئة الله ، أو فوق مشيئة الله أو دون مشيئة الله ؟ أما ان قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وان قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته .

وهذا الكلام منطقى ، كما ترى ، وهو درس قيم من امامنا على كرم الله وجهه . فمن تعلمه وحرص عليه تجنب السخط على المقدور ، وعاش فى راحة من الرضا ، لأن قضاء الله وقدره من سلطانه المطلق الذى لا دخل لنا فيه ، ولا حيلة لنا معه ، فانما نحن عبيد ، والله يفعل ما يريد . سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

المسبب والأسباب

(اتخذ الأسباب اتباعا للأمر ، وهو المعطى عملا ، قال صلى الله عليه وسلم (لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا) فالغدو سبب والعطاء من الله ، والطير يغدو ملهما من حيث لا يدرى ، والمؤمن اذا اتخذ الأسباب متوكلا على الله يكون كالطير لا يدرى ما يتم به القضاء ، فلا يتحدى نظام الطلب ، ولا يذهب نفسه على رزقه حسرات وهو شديد الحرص على طلبه) .

ذلك مما كتب شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه الصالح التقى الصديق السيد / سالم عمر جمعة مده الله فى عمره ، وفى نصيحة سيدى الشيخ توجيه الى اتخاذ الأسباب مع حسن التوكل على الله فى ثمراتها ، وهذه قاعدة من قواعد التصوف الحق ، الذى يقوم على هدى الكتاب والسنة ، ولذلك دعم الشيخ توجيهه بالحديث الشريف : لو توكلتم على الله حق التوكل .. ثم بين لتلميذه ان الطير يغدو فى طلب الرزق ولا يقعد فى عشه انتظارا لرزقه ، لان الله ألهمه السعى عليه فى الفضاء الواسع خارج العش حيث يجد فى الزروع المختلفة ثمرات كل شىء ، وما يسره الله له أكل منه ما قدر الله أن يأكل ، فيعود شبعان بعد أن كان غدا جائعا ، وسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم (حق التوكل) يعلمنا ان نتوكل حقا ولا نتواكل جهلا ، فقد يترك شخص السعى على رزقه ، ويظن ان فى ذلك القعود توكلا على الله الذى تكفل بأرزاق عباده ، فى حين أنه ينتظر عطفهم من حيث يظن أنه متوكل على الله ، وقد قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم أرزقنى وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

وقد قال رجل من هؤلاء الكسالى القاعدين للامام الجليل أحمد بن حنبل رضى الله عنه : أنى أريد ان أحج ولا آخذ معى زادا لأنى سأخرج متوكلا على الله ، فسأله الامام : تخرج وحدك أو تخرج مع القافلة ، قال : لا بل مع القافلة ، فقال الامام : أنت لا تتكل على الله بل تتكل على أخراج الناس .

ويقول السادة الصوفية ان التوكل محل القلب ، والحركة بظاهر الاجساد لا تنافى التوكل بالقلب ، ما دام العبد متحققا من أن التقدير من الله تعالى ، فان تعسر شىء فبتقديره ، وأن تيسر فبتيسيره سبحانه وتعالى ، وهذا ما يفسره لنا كيف ربطت آيات القرآن الكريم بين التوكل والايمان فى مثل قوله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) وقوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

فالايمان بالله تعالى محله القلب ، وكذلك التوكل محله القلب ومقرون به ، والايمان بالله تعالى يستتبع الايمان بقضائه وقدره ، والايمان بالقضاء والقدر يستتبع الايمان بأن الله يبسط الرزق لمن يشاءويقدر ، وقد أقام الله الأسباب بحكمته ، ولكن قد يتفق شخصان فى سبب من أسباب الرزق ، ويختلف رزق كل منهما مع اتحاد السبب ، ذلك تقدير العزيز العليم.

ومن هنا نفهم معنى ما يقوله سيدى ابن عطاء الله السكندرى : فلا بد لك من الأسباب وجودا ، ولا بد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها تعالى بحكمته ، ولا تستند اليها لعلمك بأحديثه .

وقد روى انس رضى الله عنه فقال : جاء رجل على ناقة له فقال يارسول الله أدعها وأتوكل ؟ (أى يتركها من غير قيد ويتوكل على الله فى حفظها) فقال صلى الله عليه وسلم : أعقلها وتوكل . فأمره ان يتخذ السبب ويتوكل على الله لأن اتخاذ سبب الحفظ لا ينافى التوكل على الحافظ جل جلاله ، والعقال فيه حركة الظاهر ، والتوكل فيه اطمئنان القلب بالله تعالى .

ويقول الامام سهل بن عبد الله : التوكل حال الرسول صلى الله عليه وسلم والكسب سنته ، فمن بقى على حاله ، فلا يتركن سنته ،

ويقول أيضا رضى الله عنه : من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الايمان . ويقول الامام الدقاق رحمه الله : للمتوكل ثلاث درجات ، التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، وقد شرحها رضى الله عنه فقال : التوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص . وقد شرحها مرة أخرى فقال رضى الله عنه : التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة ابراهيم عليه السلام ، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن أروع ما يقول السادة الصوفية قولهم : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوى اليه الا ثدى أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدى الا الى ربه . ولذلك هم يقولون : كن كما كنت فى بطن أمك ، مدبرا (بفتح الباء) غير مدبر (بكسر الباء) مرزوقا من حيث لا تحتسب .

وهذا التفويض الذى يذهب اليه السادة الصوفية يكون بالجزم القلبى واليقين الروحى بأنه ليس مع تدبير الله تدبير ، ولا مع ارادته ارادة ، ولا ينافيه اتخاذ الأسباب ، فانه تعالى يقول (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) فنسب المشى الينا سببا ورد الرزق الى تقديره جلا وعلا ونسبه اليه سبحانه ، ومع أنه عز وجل قال (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) فانه أمر باتخاذ أسباب النصر فقال تعالى مثلا (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ..) ومن نصائح السادة الصوفية :

توكل على الرحمن فى الامر كله

ولا ترغبن بالعجز يوما عن الطلب

الم تر أن الله قال لمريم

وهزى اليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها

جنته ولكل شىء له سبب

وعلى قدر ايمان المؤمن ويقينه تكون درجة توكله ، وقد سئل أمامنا على بن أبى طالب عن رجل أغلق عليه (بضم الهمزة) باب الدر كيف

يأتيه رزقه فقال كرم الله وجهه : كما يأتيه أجله ، فهو لم يقعد عن طلب الرزق انما حيل بينه وبين طلبه باغلاق الباب عليه وحبسه ، فاتاه رزقه من حيث لا يحتسب ، لشدة يقينه بالله ، وقوة توكله عليه ، كما رزق الله مريم بغير سبب وهى فى محرابها ، حين قالت لكافلها سيدنا زكريا عليه السلام : هو من عند الله . وذلك استثناء من ضرورة طلب الرزق من أسبابه ، ولا يصرفنا الله به عن اتخاذ الأسباب انما أراد الله به سبحانه أن يقوى بقصصه علينا حسن ظننا فى الله تعالى وتثبيت توكلنا عليه ، ولا يجوز أن نفهم منه التخلى عن الأسباب ، فقد أمر سبحانه مريم عليها السلام باتخاذها فى قوله الكريم (وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) ، وهى بذاتها التى رزقها بغير سبب ، ومن ذلك نعلم ان الاستثناء لا يكون قاعدة متبعة فى العادة .

وكما أن اتخاذ الأسباب لازم فى أمر الرزق ، فهو كذلك لازم فى سائر الأمور الدنيوية والدينية ، فمثلا العلم يكون بالتعليم ، والتقوى تكون بالطاعات والكف عن الشهوات ، والحياة بالطعام والشراب وهكذا ومع يقين رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه ، وحسن توكله عليه ، وتفويض أمره اليه ، بما لا مطمع لبشر فى مثله ، فانه قام الليل حتى تورمت قدماه ، وشد مئزره وأيقظ أهله ، وقال لهم : لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم . ومن ذلك نعلم أن حسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه ، يقتضيان ان يأخذ المؤمن دينه بقوة ، وأن يكون فى عبادته من أهل الفتوة ، فلا يوسوس له الشيطان ان العبرة بالخواتيم وليس حتما ان ترتبط الخاتمة بالاعمال ، فهذا قول حق من جهة ما قضاه الله ، وما قضاه وأراده بنا طواه عنا فى غيبه ، وما أراده منا قضاه الله ، وما أراده منا أظهره لنا وطالبنا به ، ومن ثم لا يجوز أن نهمل ما أراده منا وقد علمناه استنادا الى ما أراده بنا ولم نعلمه ، ولا سبيل الى علمه ، وانما الغيب لله ، وهذا هو مناط التكليف .

ومما تقدم نرى أن القاعد عن طلب رزقه الدنيوى أو الأخروى انما يتحدى الأوامر الالهية ، لأنه يتحدى نظام الطلب ولذلك نهى الشيخ تلميذه عنه ، لأنه طيب الله ثراه كان يربينا على الآداب الشرعية الصحيحة التى تربى هو عليها على يد شيخه وأمام وقته القطب الكبير سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه الأنور بالزقازيق ، وكان

كل منهما يكسب عيشه بجهده ومن الأسباب المشروعة ، وأنفق كل منهما ماله على عياله وعلى الدعوة الى الله عز وجل ، فجاء هما المال من حله ، وانفقاه فى مرضاة الله سبحانه ، وقد كان سيدى الامام ابراهيم ابن أدهم يقول : عليك بعمل الابطال ، الكسب من الحلال والنفقة على العيال .

ويقول السادة الصوفية انه اذا اشتغل الصوفى بالمكاسب ، فيجب ألا تلهيه عن أداء الفرائض فى أوقاتها ، كما يجب أن ينوى بها معاونة المسلمين ، فاذا فضل شىء من كسبه ونفقة عياله أنفقه على المحتاجين فلا يجمع ولا يمنع ، وهم فى ذلك يتأسون بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أعطى رجلا غنما تسد بين جبلين حتى قال الرجل أشهد أنه ما طابت بمثل هذا الا نفس نبى ، وحين كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، كما يعيش فى بيته عيشة الكفاف حتى قالت سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : كنا نرى الهلال والهلال والهلال ولا نوقد نارا ، أى انهم لا يطبخون ، ولما سئلت ماذا كانوا يأكلون ، قالت كنا نعيش على الأسودين التمر والماء .

وفى حين رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيشة الكفاف لنفسه ولآل بيته كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان أجود ما يكون فى رمضان والبطون خاوية من أثر الصيام ، وفى حجة الوداع بلغ هديه الذى عقره للفقراء والمساكين فى منى مائة ناقة ، وقد عقر منه بيده الشريفة ٦٣ ناقة وعهد الى امامنا على بن ابى طالب بعقر الباقى ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم منك واليك ، أى ان المال من عطائك وانى أنفقه فى مرضاتك كما كان صلى الله عليه وسلم يقول للفقراء : من شاء فليقتطع أى يأخذ حاجته من اللحم .

فلا تعجب بعد ذلك أن يهب امامنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه كل ما ملكت يداه لله ، وحين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما الذى أبقيت لعيالك ، قال أبقيت لهم الله ورسوله ، وذلك الذى فعله لا يكون الا من أهل التمكين أى أهل الثبات واليقين . وقد وهب امامنا عمر بن الخطاب نصف ماله ، وقال : يا رسول الله هذا نصف مالى وأبقيت النصف لى ولعيالى . أما امامنا عثمان بن عفان فكان الخرج من ماله أحب اليه من الدخل ، وكان يقول : لولا أنى خشيت

أن يكون فى الاسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته ، ولذلك تراه مول جيش العسرة فى غزوة تبوك بسبعمائة بعير محملة بالزاد هى وما حملت وأعطى المقاتلين عشرة آلف دينار من ذهب فأخذ صلوات الله وسلامه عليه يقلبها بين يديه ويقول : اللهم أغفر لعثمان . أما امامنا على فقد أوقف أرضه التى كانت له فى ينبع فى سبيل الله وزهد فى الدنيا وما فيها ، وكان يقف على خزانة بيت المال ويقول : ياصفراء ويا بيضاء غرى غيرى لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها ، وقد قنع بعيش الكفاف .

هؤلاء هم الخلفاء الراشدون الذين ملكوا الدنيا ولم تملكهم ، وغلبوا الهوى ولم يغلبهم ، فكانت فى أكفهم لا فى قلوبهم ، صبروا عليها حين فقدت ، وآثروا الله بأموالهم حين وجدت ، فتصرفوا فيها تصرف الخازن الامين ، لحسن فهمهم عن الله تعالى حين قال (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) .

أما ما يقوله سيدى الشيخ : ولا يذهب نفسه على رزقه حسرات وهو شديد الحرص على طلبه ، فانما يوجه تلميذه فيه الى الرضا بما أعطى الله من الرزق وقسم ، فقد يجتهد المؤمن فى طلب الرزق ويتوقع الكثير فيأتيه القليل فيسخط على قلته ولو فى قرارة نفسه فيكون معترضا على ما قضى الله وقدر ، وليس ذلك شأن المؤمن التقى أو الصوفى النقى ، بل تلك شيمة الجهلاء .

والرضا ، كما يقول السادة الصوفية . باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وقد عرفوا الرضا فقالوا هو أن يكون العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل ، وقال ابن عطاء رحمه الله : الرضا نظر القلب الى قديم اختيار الله للعبد ، بأن يعلم انه تعالى اختار له الافضل فيرضى به ويترك السخط . ولعل هذا الذى قالوه يقرب الينا فهم ما جاء فى الحديث الشريف (لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب) .

والرضا أو السخط يتوقف على حال العبد ولا يتوقف على ماله ، فقد يكن كثير المال ساخطا لانه يطلب الاكثر ، وقد يكون قليل المال راضيا لانه رد الامر فى قلة ماله الى حسن اختيار الله له ، وكذلك

ليس الزهد بقلة المال فى اليد أو بكثرته ، فقد يكون كثير المال زاهدا وقد يكون فقير المال غير زاهد .

ويحكى السادة الصوفية فى هذا المناسبة ان رجلا بالمغرب كان من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه . فأراد بعض أصحاب هذا الزاهد أن يسافر الى بلد من بلاد المغرب ، فقال له الزاهد : اذا دخلت الى بلد كذا فاذهب الى أخى فلان ، وأقرئه منى السلام ، واطلب الدعاء منه لى فإنه ولى من أولياء الله تعالى ،

قال فسافرت حتى قدمت تلك البلدة وسألت عن ذلك الرجل ، فدلونى على دار لا تصلح الا للملوك ، قال فتعجبت من ذلك ، وطلبته فقيل لى هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، فبعد ساعة ، واذا هو آت فى أفخر ملبس ومركب ، وكأنما هو ملك فى موكبه ، قال فازداد تعجبى أكثر من الأول ، قال فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت لا يمكننى مخالفة الشيخ فاستأذنت فاذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم ، والشارة الحسنة ، فقلت له (أخوك فلان يسلم عليك) ، قال :

جئت من عنده ؟ قلت نعم ، قال : اذا رجعت اليه قل له : الى كم اشتغالك بالدنيا ، والى كم اقبالك عليها ، والى متى لا تنقطع رغبتك فيها ، فقلت : هذا والله أعجب من الاول ، فلما رجعت الى الشيخ قال : اجتمعت بأخى فلان ؟ قلت : نعم ، قال : فما الذى قال لك ؟ قلت لا شىء ، قال لابد أن تقول لى ، فاعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال : صدق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدى وعندى اليها بقايا التطلع .

وشدة الحرص فى طلب الرزق ليست مجلبة للرزق ، لان رزق الانسان عن قدر من الله ، ورزقه لا يعطى لغيره ، كما أنه لا يعطى رزق غيره ، وقد جاء فى الحديث الشريف عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : (ان من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، وان تحمدهم على رزق الله ، وان تذمهم على ما لم يؤتك الله . ان رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كره كاره ، ان الله بحكمته وجلاله

جعل الروح (بفتح الراء) والفرج فى اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط) .

والحديث يجرنا الى حسن الاعتقاد فى الله تعالى والاطمئنان الى عطائه ، ويحذرنا من أن ننظر الى الاسباب وننصرف بها عن المسبب ، ولا شىء عليك إذا شكرت من جرت نعمة الله لك على يديه ما دمت تعتقد أن العطاء عطاء الله ، وان الخلق أدوات يسخرها كيف يشاء لمن يشاء وقد قال تعالى (ان اشكر لى ولولديك الى المصير) .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم (ولا يرده كره كاره) نهى عن أن يحسد بعضنا بعضا على نعم الله ، لان الحسد لا يرد الله عما قضاه ويبقى وزر الحسد فى صحيفة الحاسد ، ويأتى المحسود رزقه من الله على رغم الحاسد .

ويعلمنا الحديث الشريف ان القانع غنى وان جاع ، وان الحريص فقير وان ملك ، لان حرص على الزيادة يورثه الشره فيملكه المال ، ويكون كل همه فيه ، وقد يجره الحرص على كسب المال من حرام فيهلك نفسه من حيث لا يدرى ، وعن انس رضى الله عنه : (من أخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به ، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به ، أف للدنيا وما فيها من البليات ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب) .

ويقول سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه : ميز بين ما تعطى (بكسر الطاء) وتعطى (بفتح الطاء) ، ان كان من يعطيك أحب اليك فانك محب للدنيا ، وان كان من تعطيه أحب اليك فانك محب للآخرة ويقول رضى الله عنه : عملت فى القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة فأصبته فى حرفين ، وهو قول الله تعالى : (وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى) . وقد سئل رضى الله عنه : بأى شىء يعرف أن العبد واثق بربه ؟ قال : يعرف بأنه اذ فاته شىء من الدنيا يحسبه غنيمة . واذا أبطأ عليه شىء من الدنيا يكون أحب اليه من أن يأتيه . ولذلك قال رضى الله عنه : اذا أردت أن تكون فى راحة فكل ما أصبت ، والبس ما وجدت ، وأرض بما قضى الله عليك .

ويقول من الهامه الارتجالى استاذى وسيدى الشيخ على عقل فى الرضا بمواقع المقدور وفى اتجاهه لله تعالى دون خلقه :

قلبى اصبر لا تكن تشكو
ونفسى لا تئنى
ان أقل يارب أنجح
فرضاه حسن ظنى
ان سألت الناس أحرم
ان سألت الله يغنى
ان سألت الناس أبعد
ان سألت الله يدنى
ان آيات التجلى
بالمعانى عرفتنى
آية الوجدان روضى
وشهود الله فنى

ويقول رضى الله عنه مرة أخرى الهاما وارتجالا :

ولو ان الفتى فى الناس يبقى
عزيزا لا يمد يد الضراعة
ويذكر فقره فيقول ربى
ويذكر يسره فيقول طاعه
يتاجر فى الهدى بمقام صدق
ويجعل حبه البارى البضاعة
ويعلم أنما الدنيا متاع
وليس تدوم فى الدنيا جماعه
يظل مؤيدا بالله ربى
عزيزا يرفع الرحمن باعه
وكم من مظهر علياء نفس
ويفسد حبه الدنيا طباعه

وكم من مدع فيها اقتناعا

ولكن فى شراهته فظاعه

فودع ما بأيدى الناس طرا

على خلق الكرامة والقناعه

أما والله ما للخلق الا

رضاهم فالرضا كنز المناعة

الا رضى الله عن أسلافنا الصالحين ، الذين عملوا بما علموا ، فورثهم الله علم مالم يعلموا ، فنظروا الى باطن الدنيا حيث نظر الناس الى ظاهرها ، وأهمهم آجلها حيث أهم الناس عاجلها ، وزهدوا فى الدنيا وان أقبلت عليهم ، وتحلوا بالرضا وان أدبرت عنهم (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الاباب) .

النور و الظلام

(أما بعد فلك نظرتان ، نظرة فى الدنيا ، ونظرة فى الآخرة ، فنظرة الدنيا متابعة الحق ومسالمة الخلق وحفظ الأمانة وحب من أحب الله اذ يقول الله يوم القيامة (أين المتحابون فى) وأما الأخرى فمناجاة الله وتوجيه قلبك اليه والى نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعدم الركون الى أهل الظنون ، وعدم الركون الى ما لا يكون ، بل يسير عملك على مقتضى الهامك من باطن الأمر الى بصيرتك التى تضاء أمام عقلك فتوصلك من دهليز الشهوات الى دهليز الطاعات فترى بعقلك النور يزداد ضوءه أمام بصيرتك ، فتكون الرؤيا بالتدريج حتى لا تقع فى أمر مريج ، فتزج بروح من عنده الى عالم تتفرس فيه بنور الله فلا تكون عنه لا هيا ، بل تصير أواها ، فان شدت العزائم كنت الهائم فى الغنائم فغفلت عن الظلمات ونسيتها فى النورانيات) .

ذلك مما كتب شيخى العارف بالله سيد عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه الصالح المبارك الصديق السيد – سالم جمعة ، حفظه الله ورعاه ، وهى نصيحة الشيخ العارف لتلميذه المطيع الذى حرص على وصايا شيخه كل الحرص وانتفع بها وسمح لنا بنشرها لينتفع بها كل من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، فيكون لسيدى الشيخ فضل الارشاد ، ولتلميذه أجر المناولة.

أما متابعة الحق فتكون فى اتباع شرع الله ، فاذا تابع المؤمن شرع الله كفلت له متابعة الثمرات فسالم الخلق ، فلم يظلم أحدا منهم ، بل صان منهم حرمة الدم والمال والعرض كما علمه مولانا رسول الله صلى الله عليهم وسلم ، ثم خص الصالحين منهم بحب فى الله تعالى لا تشوبه علة دنية ، أو فائدة دنيوية ، بل هو حب فى الله وبالله ولله ، وقد أشار الشيخ رحمة الله الى آثار ذلك الحب يوم القيامة فأشار الى الحديث الشريف الذى رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الل عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله

تعالى يقول : يوم القيامة : اين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى كما قال صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله ، ومنهم رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، على ما رواه البخارى ومسلم .

وكذلك روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب . كما روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم – متى الساعة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعددت لها قال حب الله ورسوله قال أنت مع من أحببت . وفى رواية لهما قال أنس فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت ، فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى اياهم .

وروى أيضا البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه والمقصود فى ذلك الحديث الشريف أخوك فى الإيمان لأنه تعالى أقام الأخوة بين المؤمنين رحما روحيا لا ينفصم عراها ، بينما قطع سبحانه رحم الدم بالكفر فقال تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم) وقد حكى الله تعالى عن سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام أنه تبرأ من أبيه آزر قال تعالى (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) وفى ذلك أقوى زجر عن مودتهم بسبب مخالفة الدين .

ويقول سيدى سهل بن عبد الله التسترى : من صحح ايمانه وأخلص توحيده فانه لا يأنس بمبتدع ولا يجالسه ويظهر له من نفسه العداوة ، ومن داهن مبتدعا سلبه الله حلاوة السنن ، ومن أجاب مبتدعا لطلب عز الدنيا أو غناها أذله الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك الى مبتدع نزع الله نور ايمان من قلبه ومن لم يصدق فليجرب .

وقدر روى الترمذى والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما دعاء طويلا كان يدعو به النبى صلى الله عليه وسلم من جملته : (اللهم اجعلنا هداة

مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، صلحا لأوليائك ، وحربا لأعدائك ، نحب بحبك من أحبك ، ونعادى بعداوتك من خالفك) وهذا ونحوه تعليم منه صلى الله عليه وسلم لأمته والا فهو فى ذاته صلى الله عليه وسلم كان متصفا بذلك اليقين .

وقد كان امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يحض على مؤاخاة الصالحين فيقول : عليكم بالاخوان فانهم عدة فى الدنيا والآخرة ، ألا تسمعون الى قول أهل النار (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) . وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول : والله لو صمت النهار لا أفطر ، وقمت الليل لا أنامه ، وأنفقت مالى فى سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ، ما نفعنى ذلك شيئا . وكان يحيى بن معاذ رضى الله عنه يقول ولى الله ريحان فى الأرض فاذا شمه المريدون وصلت رائحته الى قلوبهم فاشتاقوا الى ربهم .

ومن نفائس ما أوصى به الشيخ الأكبر سيدى محى الدين ابن عرابى – رضى الله عنه – فى كتاب الفتوحات المكية قوله فى احدى وصاياه :

(وعليك بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم ، وساو بينهم كما سوى الاسلام بينهم فى أعبائهم . ولا تقل هذا ذو سلطان وجاه ومال كبير ، وهذا صغير وفقير وحقير ، ولا تحقر صغيرا ولا كبيرا فى ذمته .

(واجعل الاسلام كله كالشخص الواحد والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص ، وكذلك هو الأمر ، فان الاسلام ماله وجود الا بالمسلمين ، كما أن الأنسان ما له وجود الا بالاعضاء وجميع قواه الظاهرة والباطنة .

(وهذا الذى ذكرناه هو الذى راعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه من قوله فى ذلك : المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم . وقال صلى الله عليه وسلم : المسلمون كرجل واحد ان اشتكى عينه اشتكى كله ، وان اشتكى رأسه اشتكى كله .

((ومع هذا التمثيل فأنزل كل واحد منزلته كما أنك تعامل كل عضو فيك بما يليق به وما خلق له ، فتغض بصرك على أمر لا يعطيه السمع ، وتفتح

سمعك لشىء يعطيه البصر ، وتصرف يدك فى أمر لا يكون لرجلك ، وهكذا جميع قواك كل عضو منك ما خلق له .

فان اشترك المسلمون فى الاسلام وساويت بينهم ، فأعط العلم حقه من التعظيم والاصغاء الى ما يأتى به ، واعط الجاهل حقه بأن توقظه من نوم غفلته بالتذكير لما غفل عنه مما هو عالم به غير مستعمل علمه فيه .

واعط الكبير حقه من الشرف والتوقير ، فان من السنة رحمة الصغير وتوقير الكبير ومعرفة شرفه ، فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا ، وفى حديث ويوقر كبيرنا .

وعليك برحمة الخلق أجمع ومراعاتهم كانوا ما كانوا فانهم عبيد لله وخلق الله وان عصوا وفضل بعضهم فانك اذا فعلت ذلك أجرت .

وافعل الخير ، ولا تبال بمن تفعله تكن أنت أهلا له ، ولتأت كل صفة محمودة من حيث ما هى مكارم الأخلاق تتحلى بها وكن محلا لشرفها عند الله وثناء الحق عليها ، فاطلب الفضائل لأعيانها ، واجتنب الرذائل لا عيانها .

وأما ما يوصى به سيدى الشيخ عبد السلام من مناجاة الله تعالى وتوجيه القلب اليه والى نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعدم الركون الى أهل الظنون ، وعدم الركون الى ما يكون فقد بين فيما تلا ذلك من كلامه أن ذلك انما يتم بترك الشهوات والتزام الطاعات حتى تستنير البصيرة ويسير المؤمن بالهامه على نور من ربه .

والسادة الصوفية حين يتكلمون على ترك الشهوات لا يقصدون بها شهوات الجسد الحيوانية فحسب ، بل يقصدون الى جانبها أمراض القلوب الخفيفة من الحقوق والحسد وحب الرياسة ، وحب الثناء الخ ولذلك يقول سيدى القطب الكبير ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه :

من شأن المريد ألا يكون عنده حسد ولا غيبة ولا بغى ولا مخادعة ولا مكاذبة ولا كبر ولا شطح ولا سوء ظن .

لا تقنعوا ببوس اليد والرياسة ، ولا تغتروا باجازة واعملوا بما فيها من النصائح ، واعلم أن اجازتك حسن سيرتك واخلاص سريرتك وشرط المجاز أن يكون أبعد الناس عن الآثام ، محافظا على الصيام والقيام ، مواظبا على ذكر الله والعبد كلما خدم قدمه سيده ، وهذه هى الاجازة ، ومن قام بالاسحار ، ولزم فيها الاستغفار ، كشف الله له عن الأسرار والأنوار .

كيف يدعى أحدكم أنه ابن طريق وهو ينام وقت الغنائم وفتوح الخزائن وتجلى الحق القيوم ، والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة ودخلوا تحت الأوامر لا ستغنوا عن الأشياخ ، ولكن جاءوا الى الطريق بعلل وأمراض فاحتاجوا الى حكيم والشيخ حكيم المريد ، فاذا لم يعلم المريض بقول الطبيب لا يحصل له الشفاء .

فصحح عزمك ، ولج بحر الحقائق ، وسلم الأمر لله ، واقتف أوامر شيخك ، والق عصاك ولا تطلب خير نفسك من غيرك ، بل اعمل حتى تتكشف حقائقك .

من أشغل قلبه بحب شيخ رقاه الله ، لأنه أحبه لذات الله ولولا أن الشيخ سلم لترقية المريد لمقت الله كل قلب وجد فيه محبة لسواه .

أطلب العلم . ولا تقف ولا تسأم ، فان الله يقول لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (وقل رب زدنى علما) وطلب الزيادة من العلم انما هو طلب زيادة الأدب .

ومن أراد أن يكون ابنى فليحبس نفسه فى قمقم الشريعة ، وليختم عليها بخاتم الحقيقة ، وليقتلها بسيف المجاهدة ، وليتجرع مرارات الصبر فى كل شىء امتثالا وأدبا .

وأنت ترى مما تقدم أن المريد يتقدم فى سلوكه على قدر جهاده وطاعة شيخه ، فتستنير بصيرته ، ويواتيه الهام قلبى صادق ، يفرق به بين الحق والباطل ، فيتبع الحق ، ويترك الباطل ، ويرث من وراء ذلك الورع وتجنب الشبهات ، فتقوى صلته بالله عز وجل ، فلا يكون عنه لا هيا ، بل يشتد وجده ويزداد فى الله هيامه كما يشير سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه .

والسادة الصوفية يعنون بتربية القلوب ، ويرون أن فقه المؤمن لا يكون بحفظ الأحكام الشرعية ودراستها فحسب ، بل يكون بتطبيقها وجنى ثمارها ، ويؤيدون حجتهم بقوله تعالى فى أهل الكفر (لهم قلوب لا يفقهون بها) ، كما يقولون :

لا يوصل الى رعاية الحقوق الا بحراسة القلوب ، ومن لم يكن له سر فهو مصر ، والمصر لا تصفوا له حسنة . كما أن السادة الصوفية يرون أن الحجب التى بين العبد وربه لا ترفع الا اذا تخلق المريد بالأخلاق المحمدية . وهذا التخلق لا يتم الا بالمتابعة بهمة وعزم مؤكد وقد قال تعالى ان طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيل الاهتداء (وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) .

وهم كذلك يقولون : أصولنا سبعة أشياء ، التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة وأداء الحقوق . كما يقولون : صفاء العبادات لا ينال الابصفاء معرفة أربعة : فأول ذلك معرفة الله تعالى ، والثانى معرفة النفس ، والثالث معرفة الموت ، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد الله ووعيده ، فمن عرف الله تعالى قام بحقه ، ومن عرف النفس استعد لمخالفتها ومجاهدتها ،ومن عرف الموت استعد لوروده ، ومن شهد وعيد الله تعالى ينزجر عن نهيه ويخضع لأمره . والسادة الصوفية يعيشون فى صلتهم بالله تعالى بين الخوف والرجاء ، وعندهم أن الخوف والرجاء بمثابة الجناحين للطائر ، لا يطير الا بهما معا ، ويفسر لنا سبب ذلك سيدى أبى سعيد بن الأعرابى فيما كتبه فى صدر رسالة بعث بها أصحابه .

كلأكم الله كلاءة الوليد ، وألحقنا واياكم بصالح العبيد ، الذين كشف عن قناع قلوبهم ، فشاهدوا الوعد والوعيد ، فمن كان منهم خائفا فالرجاء منهم غير بعيد ، ومن كان منهم راجيا فالخوف فى قلبه عتيد .

فهم بمحبته صائلون ، ولهيبته خاضعون ، بسطتهم المحبة والرجاء أن يكونوا قانطين ، وقبضهم الخوف أن يكونوا مخدوعين أو آمنين ، فهم بين الخوف والرجاء واقفون ، فقد أقلقهم الشوق ، وأزعجهم الذوق ،

فحسن الظن قائدهم ، وخوف القوت سائقهم ، والتوفيق رائدهم ، والحب مطيتهم ، طالبين مطلوبين ، منورة لهم أعلام الطريق ، معمورة لهم المناهل تلوح لهم بالعوائد ، منقلبين بالطرف والفوائد .

كذلك نرى السادة الصوفية فى دعواتهم بين الخوف والرجاء فهذا سيدى يوسف بن الحسين رضى الله عنه يدعو فيقول :

اللهم انا نبات نعمك ، فلا تجعلنا حصائد نقمك ، اللهم اعطنا ما تريده منا ، يامن أعطانا الايمان به من غير سؤال ، لا تمنعنا عفوك مع السؤال ، فانا اليك آيبون ومن الاصرار على معصيتك تائبون ، فانا اليك ذاعنون تائبون .

اللهم تقبل ما مننت به علينا من الاسلام والايمان الذى به هديتنا ، واعف عنا ، الهى نعمك محيطة بنا ، وأنت المذخور لشكرها ، وعزتك ما شكرك أحد الا بك .

ومن دعاء سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه .

اللهم ان نجيتنى نجيتنى بعفوك ، وان عذبتنى عذبتنى بعدلك . رضيت ما بى لأنك ربى وأنا عبدك ، الهى أنت تعلم انى لا أقوى على النار ، وأنا أعلم انى لا أصلح للجنة ، فما الحيلة الا عفوك .

كما كان رضى الله عنه يدعو ويقول :

الهى وسيدى ومولاى ، ومن جميع الأشياء مغناى ، ضيعت نفسى بالذنوب فردها على بالتوبة ، أنت تعلم ان الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه ، وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم الأكرمين فاعف عنى .

الهى انك تعلم أن ابليس عدو لك ولى ، وليس شىء انكى لكمده وأقطع لكيده من غفرانك لى ، فاغفر لى يا أرحم الرحيمين .

وكان شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل يقول فى فتوحاته الملهمة التى نقلناها استماعا منه :

يارب أنت علمتنى لم تخف منى خافية
سقمى يزيد وانما آيات عفوك شافية

وكان رضى الله عنه يتعلق بمحبة الله ، ويراها وقاية للعبد من عقاب الله تعالى فيقول :

اذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى اليه
وما تثنى الذنوب عن الحب
حياتى حياة المذنبين ومهجتى
لها أدب فى الحب جل عن الذب
أضاء الهدى قلبى ونقى سريرتى
فلست كبعض الناس أنسب للترب
فيارب ان زادت ذنوبى فاننى
وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى
فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظة
فانك غفار الذنوب بلا ريب
وان كان لى مما فعلت جريمة
فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبى
وما لذتى الا التجائى لوجهكم
فوجهكمو دون العوالم لى قطبى

ويبين من أبياته المتقدمة أن محبة الله كانت معراجه الى الله فان كان بحكم بشريته قد هفا وأذنب ، فانه بفضل محبته تمسك بمغفرة ربه ، فى قوة يقين ، وسعة رجاء ، ويؤكد ذلك بقوله :

أملى عفوك الذى منه أرجو متابتى
ان روحى بحبه قد ترقت ورقت
وتواصت بحقه واستقامت وقامت
بالهدى صاننى وقد بعت نفسى برغبتى
بين عز وحكمه أكمل الله نعمتى

وما دام شيخنا قد تمسك بمحبة ربه ، فهو لا يعبأ بملامة الائمين من الجاهلين الذين لم يذوقوا طعم المحبة ، لذلك يقول رضى الله عنه :

من يطلب الرحمن جل جلاله لم يخش بعد ملامة من شان
ان حدثوا عنى فانى مغرم متمسك بالواحد الديان
أسموا بروحى فى حماه وأنتمى فالعشق تاجى واليقين عيانى

وهو يتشرف بمقام المحبة وان رآه الجاهلون مخطئا فى محبته العارمة فيقول :

ان كان حب الله ذنبى عندهم   هذا لعمرك فى المقام كفانى

ولست أنسى حلاوة انشاده الفورى ، رحمه الله ، حين سأله سائل فى حفل كبير ان يأتى له بأبيات على وزن البيت التالى وقافيته :

ياليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده

فقال فورا فى ابداع ظاهر :

ياليل الصب متى غده   لمريض ملت عوده
ما كان هواى لغانية   أو كان لظبى أعهده
بل لاسم الله وفى اسم   الله وباسم الله أوحده
فيرينى العفو فأعبده   ويرينى الفضل فأحمده
ان عز الناس بما لهم   عزى دين أتعهده
أنا فان منى عنى بل   بك باق يسلم سؤدده
ولديك هداى ومنك   مناى ومنك عطائى أشهده
فمتى ألقاك وبى شغف   أقيام الساعة موعده

ولا تعجب أيها القارىء الكريم أن يكون وجد شيخنا كما وصف فهو الذى يقول مرة أخرى :

سألت فوفانى رجوت فزادنى   وان كريم الكف ما خاب سائله
أحن على ذل وأهوى على هدى   وأسرى على علم بقلبى أواصله
وهل يدرك الآيات الا رجالها   وهل يعرف الوجدان الا مزاوله
وذو الوجد لا يغفو عن الحب لحظة   به عاش حتى لو أصيبت مقاتله
شهدنا وشاهدنا وطابت نفوسنا   فهامت به أرواحنا اذ نسائله
أسامر ليلى خاليا بشهوده   وقلبى بنور الحق فاضت

ويقول السادة الصوفية أول الوجد رفع الحجاب ، ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ومحادثة السر ، ولذلك قال سيدى الشبلى رضى الله عنه :

فلما أرانى الوجد أنك حاضرى   شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت معلوما بغير تكلم   ولا حظت موجودا بغير عيان

وقال سيدى أبو سعيد الأعرابى رضى الله عنه :

الذى يحجب العبد عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلق بالعلائق والأسباب ، لأن النفس محجوبة بأسبابها ، فاذا انقطعت الأسباب ، وخلص الذكر ، وصحا القلب ورق وصفا ، نجعت فيه الموعظة والذكر ، وحل من المناجاة فى محل غريب ، وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد طاهر ، فشاهد ما كان منه خاليا ، فذلك هو الوجد ، لأنه وجد ما كان عنده عدما معدوم .

أقول وسل فؤادك عن قوم قال فيهم جل جلاله ((يحبهم ويحبونه)) وقد اصطفاهم على غيرهم من البشر ، فعاشوا بأبدانهم بين الناس فى الأرض وبأرواحهم بين الملائكة فى عالم الملكوت ، وهو ما يعبر عنه سيدى الشيخ على عقل فى قوله :

نعم نحن من أبناء آدم عنصرا ولكننا فوق السموات نكرم

اذا كانت الأجساد تروى من الثرى فانا بنور الله نروى وننعم

أتحسبنى أنساه فى العمر لحظة وكيف وقلبى باسمه يترنم

أفاض على الحق من بحر نوره فقلبى بغير الحق لا يتكلم

ولولا حجاب الغفلة اليوم فوقنا تفانى على نور المشاهد مغرم

وقد رأينا همة خارقة فى المجاهدات ، فسهر ليله قرابة أربعين عام

حتى قبضه الله راضيا مرضيا ، ولا يتم ذلك الا عن وجد لازمه وعاش به لله تعالى ، وقد قال العارفون بحق : حب الواجد افراد الواحد ، وقد كانت كلماته تنفذ الى قلوبنا فتحركها من سكونها ، وتشوقها الى العالم

الأسنى ، جزاه الله عنا خير كثيرا .

وقد ذكر عن أبى الحسين النورى ، رحمه الله أنه اجتمع مع جماعة من المشايخ فى دعوة فجرى بينهم مسألة فى العلم وهو ساكت ، قال فرفع رأسه فأنشدهم هذه الأبيات :

رب ورقاء هتوف فـالضحى　　　ذات شجو صدحت فى فنن
فبكائـى ربمـا أرقها　　　وبكاها ربمـا أرقنـى
هى ان تشكـو فلا أفهمهـا　　　واذا أشكـو فلا تفهمنـى
غير انـى بالجوى أعرفهـا　　　وهى أيضا بالجودى تعرفنى

قالوا فما بقى فى القوم أحد الا قام وتواجد لما أنشد النورى تلك الأبيات .

اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك ، واسلك بنا سبيل أصفيائك وخاصتك الذين جعلتهم حزبك وقلت فيهم (أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) .

التوكل

" توكلت وسلمت ، وأنا لا أملك التوكيل والتسليم إلا بأمره فلا نعبد ولا نستعين به إلا بحوله وقوته ، فمنه وإليه أمرى ، فهو الرب المجيد القادر ، توكلت عليه فى أمورى كلها ، فى رزقى ، وقيامى ، وقعودى ، وعبادتى ، وسعيى ، فإن شاء وفقنى وجعلنى من المؤمنين الموفقين ، وإن شاء حولنى إلى ما يريد " ..

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه إلى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه مد الله فى عمره ، وزاده فضلا ونعمة ، وفى تلك السطور ، وهى أحرف من نور ، توجيه إلى التوكل على الله تعالى فى الأمور كلها ، وكفى بالله وكيلا .

والتوكل عند السادة الصوفية مقام شريف ، ومعناه عندهم إعتماد القلب على الله تعالى ، ثقة بوعده (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ففى هذه الآية الكريمة رد سبحانه المتوكلين إليه ولم يردهم إلى غيره ، وقد أمر عز وجل بالتوكل أحب أحبائه وأصفى أصفيائه ، سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم) وقال أيضاً (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) .

والسادة الصوفية حين يدعون إلى التوكل لا يعنون به ترك الأسباب ، بل هم يأخذون فى الأسباب معتمدين على فضل الله فى ثمراتها ، وراضين بالنتائج مهما كانت ، راضين الأمر له سبحانه ، فإن أعطوا شكروا ، وإن لم يعطوا صبروا ، لأن التوكل عندهم يقتضى الرضا والتسليم ومن ثم يتركون أختيارهم لنفوسهم أكتفاء بأختيار الله لهم ، فهم مع القضاء كالهباء فى الهواء يحركه كيف تشاء .

ويساعدهم على التوكل قوة يقينهم بالله تعالى ، واليقين نور فى القلوب يشاهدون به أنه لا فاعل إلا الله تعالى ، والأسباب أدواته فى العطاء

وليست هى الرازقة ، بل أنه سبحانه هو الرازق ذو القوة المتين ، ولذلك نرى سيدنا الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يرد أمره كله فى الدنيا والآخرة إلى الله تعالى الذى قال حاكيا ما كان منه فى سورة الشعراء (الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبى أنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم) .

فأنت ترى من ذلك أن سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام رد أمره كله فى الدنيا والآخرة إلى ربه جل وعلا ، وسأله سؤال المحتاج إليه فى الدارين ، ولا تعجب أن يكون هذا شأنه فقد ألقاه أعداؤه فى النار : فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : ألك حاجة يا إبراهيم ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما لربى فحالى يغنى عن سؤالى ، فكان سبحانه عند يقينه به وثقته فيه فقال عز وجل وعلا (يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) فنجاه الله من حر النار ببرد اليقين والتوكل على الله رب العالمين ، وقد قال العلماء لو لم يقيد الله بردها بالسلام لقتل من شدة بردها .

وهذا ما يفسر لنا قول سيدى الشيخ عبدالسلام رضى الله عنه : فمنه وإليه أمرى ، فهو الرب المجيد القادر ، وقد كتب الإمام أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه إلى بعض اخوانه :

" من أشار إلى الله ، وسكن إلى غيره ابتلاه الله تعالى ، وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه ، فإن انتبه وانقطع ممن سكن إليه ، كشف الله ما به من المحن والبلوى ، وإن دام على سكونه لغير الله ، نزع الله تعالى من قلوب الخلق الرحمة عليه ، وألبس (بضم الهمزة) لباس الطمع ، فتزداد مطالبته منهم ، مع فقدان الرحمة من قلوبهم ، فتصير حياته عجزا ، وموته كمدا ، ومعاده أسفاً ، ونحن نعوذ بالله من السكون إلى غير الله " .

ونحن نحمد الله أن قيض لنا شيوخاً صالحين ، رأينا فيهم ومنهم مشرب السابقين الأولين من عباد الله المتقين ، فى التوكل على الله

وحسن الظن بـه ، والأعتماد علـى الله ، والأتجـاه فـى السر والعلن إليـه ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، وصدق الإمام سهل التسترى فى قولـه : لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا بالصبر ، وفى قوله : ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلع عليها فى ساعات الليل والنهار ، فأيما قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط الله عليه ابليس . وفى قوله : البلوى من الله على وجهين : بلوى رحمة وبلوى عقوبة ، فبلوى الرحمة تبعث صاحبها على إظهار فقره إلى الله تعالى وترك التدبير ، وبلوى العقوبة تبعث صاحبها على اختياره وتدبيره .

وعند السادة الصوفية أن من فاته الإيمان بربه فقد فاته كل شىء ، وهو يقولون بحق : الفوت أشد من الموت ، لأن الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق . وقد قيل ليحيى بن معاذ : أخبرنا عن الله ، ما هو ؟ قال إله واحد . قيل : كيف هو ؟ قال : ملك قادر . قيل أين هو ؟ قال : بالمرصاد . قيل : ليس عن هذا نسأل ، قال يحيى فذاك صفة المخلوق ، فأما صفة الخالق فما أخبرتكم به . فعلمهم بذلك أنه تعالى لا يحصره المكان وقد سبق وجوده المكان والزمان ؟

ويحكى أحد تلاميذ أبى حفص النيسابورى فيقول : كنت أخاف الفقر مع ما كنت أملك من المال ، فقال لى يوما أبو حفص : ان قضى الله عليك الفقر لا يقدر أحد أن يغنيك ، فذهب خوف الفقر من قلبى رأسا . وكان أبو حفص يقول : الكرم طرح الدنيا لمن يحتاج إليها والأقبال على الله لأحتياجك إليه . كما كان يقول : من رأى فضل الله عليه فى كل حال أرجو إلا يهلك . وسئل رضى الله عنه : من الرجال ؟ فقال القائمون مع الله تعالى بوفاء العهود ، قال تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) . وكان رضى الله عنه يقول : ما أعز الفقر إلى الله وأذل الفقر إلى الأشكال (أى الناس) .

ويذكرنا الله سبحانه بأفتقارنا إليه فيقول عز وجل (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله تعالى والله هو الغنى الحميد ، أن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز) ويقول سيدى منصور بن عمار :

سبحانه من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة وقلوب المتوكلين أوعية الرضا .

والزهد عند السادة الصوفية هو إلا تفرح بموجود فى الدنيا ولا تحزن على مفقود فيها عملا بقوله (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) وهم يقولون أن المؤمن قد يملك الدنيا ويزهد فيها ، فإذا سألتهم عن الأمثلة قالوا لك أنظر إلى الخلفاء الراشدين أو إلى عمر بن عبد العزيز ، فهؤلاء ملكوا المشارق والمغارب ولكنهم لو يفتنوا بملك الدنيا ، ونظروا إلى الآخرة وعملوا لها ما وسعهم الجهد البشرى فحكموا نفوسهم ، ولم تحكمهم نفوسهم ، وقد جاء فى حكمهم : نفسك كالدابة ان ركبتها حملتك وأن ركبتك قتلتك.

ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى إلهامه المرتجل محذراً من هوى النفس ، وكان أحد الحاضرين قد سأله أن يرتجل على وزن البيت الآتى وقافيته :

عجباً لها تهوى الذى تهوى به

دون الذى تعلو به فى ذاتها

فأجاب رضى الله عنه فوراً بما يبهر العقول فى وصف النفس ، وبما يؤكد للسامعين أن إلهامه من عطاء الله تعالى لأوليائه :

(عجبا لها تهوى الذى تهوى به)

كم عالم قد زل من نزعاتها

تنأى عن الأصلاح طول حياتها

وتواصل الأقبال فى شهواتها

وقفت على الدينار حسن بلائها

فأمالها عن هديها وهداتها

قد رحبت بالسيئات مريضة

وتضج ان دعيت إلى حسناتها

والنفس أعدى صاحب تبلى به

قد أدخلتنا النار من رغباتها

ان أنت تنصحها تضل طريقها

وإذا تركت غرقت فى حسراتها

ومضى يتدفق رحمه الله إلى أن قال :

ترضى تسفلها لكل نقيصة

(دون الذى تعلو به فى ذاتها)

ويقول رضى الله عنه فى خضوع الناس جميعاً لحكم القضاء ، ويدلل على ذلك بأن رزق الذكى قد يضيق وأن رزق الغبى يتسع ، فيقول :

كل خلق العباد عندى سواء

يفعل الله فيهمو ما يشاء

كم ذكى قد عاش وهو فقير

وغبى يضفو عليه الثراء

وينصح سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه كل مؤمن فيقول له :

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلا وقد كفاك ومنحك وأعطاك ، فلم يبق لك حاجة عند غيره ، كما يقول رضى الله عنه :

متى أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف اليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك .

ويقول كذلك رضى الله عنه :

وكفى بك جهلا أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا (بضم الهمزة) وتشغل قلبك بما عندهم ، فتكون أجهل منهم ، لأنهم أشتغلوا بما أعطوا وأشتغلت أنت بما لم تعط .

ويقول ايضاً :

للزاهد فى الدنيا علامتان ، علامة فى فقدها ، وعلامة فى وجودها ، فالعلامة التى فى وجودها الإيثار ، منها ، والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها ، فالإيثار شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان .

ومن الحوار الطريف الذى أطلعت عليه ، حوار جرى بين رجل وبين الصوفى الكبير حاتم الأصم فقد قال ذلك الرجل لحاتم : من أين تأكل ؟ فقال : من خزائنه ، فقال الرجل : يلقى عليك الرزق من السماء ؟ فقال : لو لم تكن الأرض له لكان يلقى على الرزق من السماء ، فقال الرجل : أنتم تقولون الكلام ، فقال حاتم : أنه لم ينزل من السماء إلا الكلام فقال الرجل : أنا لا أقوى على مجادلتك ، قال حاتم لأن الباطل لا يقوم مع الحق .

ويقول السادة الصوفية ان من علامات المعرفة أنك لا تسأل حوائجك قلت أو كثرت إلا من الله تعالى ، ألست ترى أن موسى عليه السلاهم أحتاج إلى رغيف فقال (رب انى لما أنزلت إلى من خير فقير) وأشتاق لرؤية ربه جل وعلا فقال (رب أرنى أنظر إليك) فلجأ إلى الله تعالى فى الحالتين .

ويقولون أيضاً أن الله تعالى يعز عبده فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا ، فيعزه بالمال والحال ، والمال يكون لتزيين الظواهر ، والحال يكون لتزيين السرائر ، وبالمال يستغنى المؤمن عن أمثاله من الخلق ، وبالحال يحصل له الأفتقار إلى من لم يزل ولا يزال سبحانه ، فالأعزاز بالمال يكون فيما بين الخلق ، والأعزاز بالحال يكون على باب الحق .

ومن رحمته تعالى بعباده أنه وكل بهم ملائكة يحفظونهم من البلاء والآفات ، فقد قال تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) فهو الذى يحفظ مالك ودينك وحالك وقوتك وعيالك ، فلو رفع عنا رعايته فى ذلك كله لهلكنا ، ولكن أكثر الناس لا يفطنون لهذا الفضل الكبير .

وعند كلامهم على حسن التوكل يضرب لنا السادة الصوفية المثل بما وقع من أم موسى فى حسن توكلها على الله ، حيث ألهمها الله أن تلقى به فى اليم متوكلة على ربها فى حفظه ، ويقولون فى تعقيبهم على تلك القصة : أنظر كيف ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين ، وكيف حفظ لها طفلها ، وكيف رده إليها .

ويعلمنا السادة الصوفية أن التوكل ينتهى بنا إلى الرضا ، والرضا هو أعلى مقامات اليقين ، وقد جاء فى الحديث الشريف : ذاق طعم

الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، وهم يقولون أن الشكوى إلى الله تعالى مما يصيب المؤمن لا تنافى الرضا ، لأن الرضا معناه الا تعترض على حكم القضاء ، ويستدلون على ذلك بأن سيدنا أيوب عليه السلام شكا إلى الله مما أصابه فقال (أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) ولكنه مع ذلك كان صابراً على البلاء وراضياً بالقضاء وشهد الله له بذلك فقال تعالى (انا وجدناه صابرا نعم العبد أنه أواب) فشكواه إلى الله لم تنف عنه الصبر أو الرضا ، والله المطلع على سريرته الذى أثنى عليه ومدحه .

وقضاء الله تعالى نافذ لا محالة ، رضى العبد أو كره ، إذ أنه لا معقب على حكم الله تعالى ، ويقول سيدى الإمام عبد القادر الجيلانى : ان شرط الرضا أن يكون بعد وقوع القضاء ، أما قبل وقوع القضاء فإنه يكون من باب العزم على الرضا .

وقد فرقوا بين العبادة والعبودية فقالوا أن العبادة هى الأئتمار بأوامر الله تعالى والأنتهاء بنواهيه سبحانه ، أما العبودية فهى الرضا بما يجرى به قضاؤه ، وقد قالوا : الرضا بمواقع المقدور نعم الوسيلة إلى درجات المعرفة ، كما قالوا : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ، ورضاء الخواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل ما سواه .

وقد حكى لنا سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه مثلا مما وقع له فى توكله فقال أنه أحتاج للمال يوماً ولم يرد أن يسأل الناس شيئاً فأمسك بورقة وكتب فيها : من كان رزقه على الله فلا يحزن ، قال ثم طويت الورقة ووضعتها فى جيبى ، وبعد وقت قصير جاءه زائر على غير ميعاد وقدم له مبلغاً من المال معتذراً له فى تأخر أدائه ، وكان ذلك الزائر قد أقترض المال من سيدى الشيخ ولم يتيسر له أداؤه إلا فى ذلك اليوم وكان سيدى الشيخ يعلمنا كثيراً بالأمثلة العملية التجريبية فذلك أوقع فى تربية النفوس ، وأبلغ أثراً فى التوجيه لمكارم الأخلاق.

والسادة الصوفية حين يقولون باسقاط التدبير ، لا يقصدون به ترك اتخاذ الأسباب ، بل يقصدون به الراحة النفسية التى تؤدى إلى أن يتفرغ المؤمن عن الشواغل فيتمكن من الأقبال على الله تعالى حتى

يصل إلى الله بأن يعرف إلا فاعل إلا الله فينسب ... الفضل إلى الله فيما يوفق إليه من الأعمال الصالحة مع الرضا بحكمه سبحانه فإن تم له ما يريد فمن فضل الله ، وإن لم يتم فذلك من قدر الله لحكمة يعلمها سبحانه ويجهلها العبد .

وعند السادة الصوفية لا يجوز أن ييأس مذنب من رحمة ربه ، بل يجب أن يحسن المذنب ظنه بربه ، ويحسن التوكل عليه فى غفران ذنبه ، فهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك :

لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى . فإن من عرف ربه ، أستصغر فى جنب كرمه ذنبه .

كما يقول رضى الله عنه :

إذا وقع منك ذنب ، فلا يكن سبباً ليأسك من حصول الأستقامه مع ربك ، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك .

وجاء فى الحكم العطائيه :

عنايته فيك لا لشىء منك ، وأين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته ، لم يكن فى أزله اخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الأفضال ، وعظيم النوال .

والسادة الصوفية فى حسن توكلهم على الله سبحانه ورضاهم بما يجرى به قضاؤه ، انما يتأسون فى ذلك بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنس رضى الله عنه فقال خدمته صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ولا لشىء فعلته لم فعلته ولا لشىء تركته لم تركته ، بل كان يقول لى ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وعلى مثل هذا الرضا جرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان كل من عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما يقول : لأن الحس جمرة ، أحرقت ما أحرقت ، وأبقت ما أبقت ، أحب إلى من أن أقول لشىء كان ليته لم يكن ، أو لشىء لم يكن ليته كان .

وإذا أصاب أحد السادة الصوفية هم أو غم لجأ إلى الله تعالى فى كشف همه وغمه ، وقد أخذوا أدبهم هذا من الحديث الشريف :

" من أصابه هم أو غم فليقل : الله الله ، لا أشرك به شيئاً ، فإن الله يذهب همه وغمه " وهم يقولون أن سبب القبض انما يأتى للعبد من الغفلة عن الله والنظر إلى ما سواه .

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر فقال :

" ما قال أحد : اللهم انى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمتك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل أسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو أستأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدل مكان همه فرحاً وسروراً " .

وأخيراً أذكر أنى دخلت يوماً على سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فى مرضه الأخير ، فوجدته صابراً على مرض شديد ، كاد أن يعجزه عن الكلام ، فتألمت لألم سيدى الشيخ ، وسكت فى ألم بالغ ، فقال لى فى صوت خافت ، تكلم ، فقلت ، ماذا أتكلم يا سيدى ، قال أى كلام ، وكأنما أراد أن يخفف عنى ألمى ويصرفنى بكلامى عن الألم ، فقلت سأتكلم إن شاء الله عندما تأتى مناسبة الكلام ، فقال رضى الله عنه معلما ومرشدا ومسليا ومواسياً :

" له الملك وله الحمد ، عطف سبحانه الحمد على الملك ، والملك يشمل الخير والشر ، اشارة منه سبحانه إلى أنه يجب أن يحمد فى الخير والشر على السواء " .

فحمدت الله تعالى أن رزقنى شيخاً مثل شيخى الكامل ، أرى فيه بالتجربة والعيان كيف يختص الله برحمته من يشاء ، وكيف يكون الأولياء على قدم سيد الأنبياء وكيف ينوبون عنه صلى الله عليه وسلم (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

الإخلاص عند الصوفية

" والصدقة من حيث هى صدقة ، يثيب الله عليها ، لا سواه ، فهى لله (ولا يأتل أولو الفضل منكم) فلا تمنع صدقة كنت تدفعها ، ويدفعك عنها ما تراه من المتصدق عليه من أمور أنت تكرهها ، ما دمت تراه فى حاجة ، فالبر بالفقراء مجلبة النعمة " حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين " .

ذلك مما كتب سيدى وأستاذى الشيخ عبد السلام الحلوانى لتلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعة مد الله فى عمره وهى كلمات صوفية منيرة يرفع بها همته من الخلق إلى الخالق كما ترى . لأن السادة الصوفية يعاملون الله فى عباده ليقينهم بأن ما عند الله تعالى يبقى وان جحده الناس ، ومادامت وجهتهم فى الصدقة خالصة لله ، فلا عليهم من العباد ان أحسنوا أو أساؤا ، وهذا ما يكشف لنا عن إخلاص القوم لله تعالى .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ما هو " قال سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو ؟ قال سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سر من سرى أستودعته قلب من أحببته من عبادى " .

وقد فرق الإمام الدقاق بين الإخلاص والصدق ، فقال رضى الله عنه : الإخلاص التوقى عن ملاحظة الخلق ، والصدق التوقى من مطالعة النفس ، فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا اعجاب له .

وقال سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه : الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه ، والصدق لا يتم إلا بالإخلاص فيه والمداومه عليه ، وقال أيضاً : ثلاث من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

والسادة الصوفية يتحلون بالإخلاص فى اقوالهم وأفعالهم وأحوالهم مدفوعين إليه بقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) وبقوله تعالى فى السادة الصحابة عليهم رضوان الله (تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا) وبقوله تعالى فى أهل الصفة رضى الله عنهم (يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) .

ويقول الإمام سهل التسترى رضى الله عنه : أهل لا إله إلا الله كثير والمخلصون منهم قليل ، وقد قال له رجل ذات يوم : أن لصا دخل دارى وأخذ متاعى ، فقال : أشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وأفسد التوحيد ، ماذا كنت تصنع ؟

وسيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه يشد تلميذه إلى التدبر فى قوله تعالى فى سورة النور (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم). وقد نزلت تلك الآية الكريمة فى شأن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث كان ينفق على مسطح ابن خالته ولما خاض مسطح فى حديث الإفك فى حق أم المؤمنين سيدتنا عائشة ابنة الصديق رضى الله عنهما ، حلف سيدنا أبو بكر الصديق أن يقطع النفقة عن مسطح الذى تنكر لفضله عليه وإحسانه إليه ، فأمر الله الصديق رضى الله عنه أن يوالى الأنفاق على مسطح فكفر عن يمينه وأعاد النفقة ، وعندما قرأ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية على مسمع الصديق رضى الله عنه وسمع فيها (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) قال رضى الله عنه بلى أحب أن يغفر الله لى .

والآية الكريمة شهدت بالفضل لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه ووجهته إلى الإنفاق على مسطح وكان من فقراء المهاجرين ، كما كان من أهل بدر الذين غفر الله لهم ورفع أقدارهم بين السادة الصحابة الكرام البررة رضى الله عنهم أجمعين ، وقد عذرت الآية الصديق رضى الله عنه ، وطلبت إليه العفو والصفح عن مسطح ، وبينت أن صفح المؤمن عن المسىء إليه مدعاة إلى صفح الله عن المؤمن ، فهى تقول اصفح عن أخيك كما تحب أن يصفح الله عنك ، وما أجلها من تربية ربانيه ، يرفع بها العليم الحكيم عبده إلى الأفق الأعلى من الأخلاق ، ويسمو به

من جانب الخلق إلى جنب الخالق بالإحسان إلى من أساء لله طلبا لمرضاة الله تعالى وغفرانه.

ولا تعجب أن يكون سيدنا أبو بكر محل هذه العناية الربانية ، فهو أبو بكر الصديق السابق إلى التصديق المؤيد من الله بالتوفيق ، والملقب بالعتيق ، صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم فى السفر والحضر ، وثانى أثنين إذ هما فى الغار ، وثانى أثنين فى القيام على المسلمين ، وثانى أثنين فى روضة الأنوار ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) .

وقد ملك رضى الله عنه المال وزهد فيه ، فسخره فى مرضاة ربه ، وخرج عن كل ما ملكت يداه فى سبيله تعالى ، وها هو ذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشيد بفضل الصديق فى البذل والإيثار فيقول :

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك مال عندى ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر ان سبقته يوماً ، قال فجئت بنصف مالى ، قال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أبقيت لاهلك ؟ " قال فقلت مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أبقيت لاهلك ؟ " قال أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت لا أسابقك إلى شىء أبداً .

وقد كنا نتذكر مرة فى سيرة الصديق العاطرة ، فاسترعى نظرى أخ لى فى الله ، أنتقل إلى رحمة الله ، وهو المرحوم السيد / على السيد طيب الله ثراه إلى أن سيدنا أبا بكر الصديق رضى الله عنه ذكره الله تعالى خمس مرات فى قوله تعالى (ثانى أثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) فقلت له وكيف فقال : ثانى أثنين أحدهما أبو بكر ، إذ يقول لصاحبه هو أبو بكر ، لا تحزن أى أنت والضمير المستتر يشير إلى أبى بكر الصديق ، إن الله معنا ، دخل أبو بكر فى المعية مع مولانا رسول الله ، وهذه هى المرة الخامسة ، فعجبت يومها من ذلك التخريج الطريف الذى لم يكن خطر ببالى قبل ذلك .

وإذا أردنا أن نرى كيف كان فى الصحبة صافياً وفى المؤاخاه وافيا فلننظر إلى ما كان منه حين وصل مع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى باب الغار ليلة الهجرة ، فقد قال رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى فلأدخل قبلك فإن كانت حية أو شىء كانت لى قبلك ، قال : أدخل ، فدخل سيدنا أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جحرا جاء بثوبه فشقه ثم القمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال فبقى جحر فوضع عقبه عليها ، ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فلما أصبح ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : " فأين ثوبك يا أبا بكر ؟ فأخبره بالذى صنع ، فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال ، اللهم أجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة " فأوحى الله تعالى إليه : " إن الله قد أستجاب لك " .

وقد نصح الصديق رضى الله عنه رعيته فكان فيما قاله لهم : يوصيكم الله لفقركم وفاقتكم أن تتقوه ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تستغفروه انه كان غفارا ، ،اعلموا أنكم ما أخلصتم لله عز وجل فربكم أطعتم ، وحقكم حفظتم ، فاعطوا ضرائبكم فى أيام سلفكم ، واجعلوها نوافل بين أيديكم تستوفوا سلفكم حين فقركم وحاجتكم ، ثم تفكروا عباد الله فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس ، واين هم اليوم ، أين الملوك الذين كانوا أثاروا الأرض وعمروها ، وقد نسوا ونسى ذكرهم ، فهم اليوم كلا شىء (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وهم فى ظلمات القبور (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) وأين من تعرفون من أصحابكم واخوانكم ؟ قد وردوا على ما قدموا ، فحلو الشقوة أو السعادة ، أن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به أخيراً أو يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره ، وأنه لا خير بخير بعده النار ، وإلا شر بشر بعده الجنة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

أما قول سيدى الشيخ عبد السلام فالبر بالفقراء مجلبة النعمة ، فيشير إلى التدبر فى قوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) لأن انفاق المؤمن المال فى مرضاة الله تعالى شكر عملى لنعمة الله الذى آتاه المال وجعل يده العليا التى تعطى ولا تأخذ ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

وبذلك الفهم جد السادة الصحابة الكرام فى التوسعة على الفقراء حين درت عليهم التجارة الأموال الوفيرة ، حتى لو نظرت فيما بذلوا لظننت أنهم أسرفوا فى البذل والعطاء إذا قست الأمور بمعاييرنا فى هذا الزمان ، ولكنهم يرون أن الأسراف لا يكون إلا حين ينفق المال فى سخط الله ولو كان قليلا ، أما انفاقه فى مرضاته تعالى فهو شكر لله مهما كان كثيراً ، وقد أستمدوا هذا من قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) فحرصوا على سعة العطاء فى سبيله سبحانه ليبقى لهم عندهم ما قدموه لأنفسهم من خير ، ولا يفوتنا أنهم تأسوا بفعل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وقد أعطى رجلا غنما تسد بين الجبلين فقال الرجل مبهورا : أشهد أنه ما طابت بمثل هذا إلا نفس نبى .

ويقول أبو هريرة رضى الله عنه أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشترى الجنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، حين حفر بئر رومة ، وحين جهز جيش العسرة ، وبئر رومة حفرها سيدنا عثمان واوقفها لله تعالى يستسقى منها المؤمنون بلا مقابل ، وجيش العسرة هو جيش غزوة تبوك ، وقد دعا له مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : اللهم لا تنس لعثمان ، ما على عثمان ما عمل بعد هذا ، وقد أثر عن سيدنا عثمان كذلك أنه كان يطعم الناس طعام الأمارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت .

وعن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا على ان الله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها ، هى زينة الأبرار عند الاله عز وجل ، الزهد فى الدنيا فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين : فجعلك ترضى بهم اتباعاً ويرضون بك اماماً " . ولذلك جاء فى حكم الإمام كرم الله وجهه : من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات ، وقال كرم الله وجهه أيضاً : كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل . كما قال كرم الله وجهه : هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجوده .

وتحدث السيدة سعدى بنت عوف إمرأة سيدنا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فتقول : لقد تصدق طلحة بمائة ألف درهم ، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفى ثوبه . وحدثوا عنه كذلك أنه رضى الله عنه باع أرضاً بسبعمائة ألف ، فبات ذلك المال عنده ليلة فبات أرقا من مخالفة المال ، حتى أصبح ففرقه .

وحدثوا عن سيدنا الزبير بن العوام رضى الله عنه فقالوا أنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، كان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه شىء . وحدثوا عنه أيضاً أنه مع وفرة ماله أستشهد وفى ذمته دين كبير : ولم تكن عن اقتراض ، بل كان يأتيه الرجل بماله فيستودعه أياه ، فيقول الزبير ولكنه سلف ، فإنى اخشى عليه الضيعة .

ويحدث عنه ابنه عبد الله بن الزبير فيقول : لما كان يوم الجمل جعل الزبير يوصى بدينه ويقول : يا بنى ان عجزت عن شىء فاستعن عليه بمولاى ، قال فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت : يا أبت من مولاك ؟ فقال : الله . قال عبد الله ما وقعت فى كربه من دينه إلا قلت يا مولى الزبير أقض دينه فيقضيه ، فحسبت ما عليه فوجدته ألفى ألف فقضيته .

أما سيدنا سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فقد مرض فعاده مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن له يومئذ إلا ابنة واحدة فقال : يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال : " لا ، الثلث والثلث كثير " .

وأما سيدنا عبد الرحمن بن عوف فقد حدث عنه أبو نعيم بسنده أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : " يا ابن عوف انك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً ، فاقرض الله عز وجل يطلق لك قدميك " قال ابن عوف : وما الذى أقرض الله قال : " تتبرأ مما أمسيت فيه " قال : من كله أجمع يا رسول الله ؟ قال : " نعم " فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ، فأتاه جبريل فقال : مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ، فإذا فعل ذلك كانت كفارة لما هو فيه .

وحدث أبو نعيم بسنده عن سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه

كان لا يعجبه شئ من ماله إلا خرج منه لله عز وجل : وكان ربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألفاً ، وقد أعطى فى مولاه نافع عشرة آلاف دينار . قال فهلا ما هو خير من ذلك ؟ هو لوجه الله تعالى . وقد جاءه يوماً عشرة آلاف درهم فجاء إلى السوق يريد علفاً لراحلته بدرهم نسيئة ، فقال من عرف أنه فرق عشرة الآلاف حتى لم يبق معه ما يشترى به علف راحلته : يا معشر التجار ما تصنعون بالدنيا وابن عمر أتته البارحة عشرة آلاف درهم ، فأصبح اليوم يطلب لراحلته علفاً بدرهم نسيئة .

ويحدث عنه مولاه نافع رضى الله عنه فيقول : ان ابن عمر أشتهى عنباً وهو مريض ، فاشتريت له عنقوداً بدرهم ، فجئت به فوضعته فى يده : فجاءه سائل فقام على الباب فسأل ، فقال ابن عمر : ادفعه إليه ، فوضعته فى يده ، فعاد السائل ، فقال ابن عمر : أدفعه إليه ، قلت : ذقه (كل منه) ، قال : لا أدفعه إليه : فدفعته : فما زال يعود السائل ويأمر بدفعه إليه حتى قلت للسائل فى الثالثة أو الرابعة . ويحك تستحى : فاشتريته منه بدرهم : فجئت به إليه فأكله .

أما قول سيدى الشيخ عبد السلام : وحسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين ، فإنه يقوى به ثقة تلميذه بربه سبحانه ، بالركون إليه والأعتماد عليه فى أموره كلها ، أما المؤمنين المؤازرون فهم أسباب الله : يشد بهم الأزر : ويعين بهم عبده فى البر والتقوى : لأن المرء ضعيف بنفسه قوى بأخوانه ، ويد الله مع الجماعة .

وحين ألقوا سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بالمنجنيق فى النار قال معتمدا على حفظ ربه ورعايته : حسبى الله ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ، قال : أما اليك فلا ، وأما لربى فحالى يغنى عن سؤالى ، وعندئذ أمر الله تعالى النار فقال عز وجل (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) ولو لم يقيد الله بردها

بالسلام لقتلت إبراهيم ببردها ، وقال العلماء كذلك أن الخليل عليه الصلاة والسلام حين قال لجبريل عليه السلام : أما اليك فلا ، إنما قالها وفاء لأعتماده على ربه وحده حين قال : حسبى الله ، وهذا هو ما يفسر به قوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) فقد وفى بفعله فصدق بفعله ما قاله بلسانه حين قال : حسبى الله .

وقد كان نقش الخاتم الذى يلبسه الإمام مالك رضى الله عنه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فسألوه فى سبب أختياره ذلك القول ، فأجابهم : لأن بعدها فى كتاب الله تعالى (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) .

الذاكرون والمحبون

" ذكر الله بهاء ، والتوحيد صفاء ، والحب رضاء ، والقبول مكفول بحب الرسول صلى الله عليه وسلم ، أمدنا الله لمدده ، وهو سبحانه المعطى ، وقد أعطى القسمة للنبى صلى الله عليه وسلم " .

جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى نور الله ضريحه ، إلى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه زاده الله فضلاً وبركة ، وقد بدأ الشيخ بتوجيه تلميذه إلى ذكر الله ووصفه بأنه بهاء ، وذكر الله فى عمومه معناه أداء حقه سبحانه فيما أمر به أو نهى عنه ، وفى خصوصه معناه عدم الغفلة عنه ، فى ليل أو نهار ، لا فى السر ولا فى الجهر .

وذاكر الله مؤمن تقى لا يغفل عنه ولا ينساه ، والغافل عن الله كافر أو فاسق ينكره ولا يذكره ، ونفهم ذلك من المقابلة التى وردت فى قوله تعالى فى سورة الحشر : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون " وكذلك من قوله تعالى فى سورة السجدة : " أفمن كان كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون * أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون " .

والسادة الصوفية حين يتكلمون عن الذكر فإنما يقصدون به ذكر الخواص المراعين أنفاسهم مع الله ، والذى يتدرج فيه المريد السالك فيذكر الله باللسان ثم يذكره بالقلب ثم يذكره بالروح ثم يذكره بالسر وهم يقولون إن ذكر الله باللسان إنما هو ذكر حسنات ، وأما ذكر الله بالقلب فهو ذكر درجات ، وذكر الله بالروح فهو إمتلاء القلب بمحبة الله ، ولا يحصر ثوابه ، أما ذكر السر فهو الذى لا يطلع عليه ملك

فيكتبه ولا شيطان فيفسده ، وهو ذكر السابقين المقربين ، والخواص المتحققين .

وذكر الله عندهم يكون بأسمائه الحسنى ، فيردد المريد لسانه الإسم الذى يأمره به شيخه ، فينطقه بلسانه ، ويراعى معناه فى قلبه مستحضراً عظمة الله سبحانه ، مستمداً منه العون ، وكأنه فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه باب العباد إلى الله تعالى ، وكأن شيخه مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه نائب عنه فى الإرشاد إلى طاعة الله تعالى ، وكأن الملائكة تحف به وتثبته فى جهاد نفسه وكسب أنسه ، والله تعالى مع الجميع يرعاهم ويشدهم ويمدهم بعونه وفيضه ، وذلك الأستحضار يعين الذاكر على تركيز فكره وقلبه فى المذكور سبحانه .

والسادة الصوفية يقولون إن من خصائص ذكر الله بأسمائه الحسنى ، أنه غير موقوت بوقت معين ، فما من وقت من ليل أو نهار إلا والمؤمن مأمور بذكر ربه فيه . والصلاة مع أنها فرض وهى أشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الأوقات ، وهم يؤولون قوله تعالى " الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم " فيقولون فى ذوقهم العالى ومشربهم الصافى أى قياماً بحق الذكر ، وقعوداً عن الدعوى فيه ، ومن ذلك ترى أنهم نظروا فى تأويلهم إلى بواطن الألفاظ ولم يقفوا عند ظواهرها وفهموا من خفايا الخطاب القدسى بنور قلوبهم مالم يفهمه غيرهم ، ولا عجب فى ذلك فقد سماهم الحق جل وعلا (أولى الألباب) حين قال سبحانه (إن فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) .

وهم يحاسبون السالكين على صدقهم فى ذكر الله تعالى ، فيقولون للسالكين : إن الله تعالى يقول فى الحديث القدسى : أنا جليس من ذكرنى ، فما الذى إستفدتم من مجالسة الحق سبحانه ، وهم إنما يقصدون بهذه المحاسبة أن يدربوا السالكين على مراعاة الحضور فى الذكر ، حتى لا يذكر السالك ربه فى غفلة وهو شارد اللب ، متفرق الأهواء فى أودية الدنيا ، فيحجبه شروده عن تلقى أنوار الذكر التى يحيا بها القلب ، وتستنير بها الروح .

وهم كذلك يقولون ، حياة الروح بالذكر ، وحياة الذكر بالذاكر ، وحياة الذاكر بالمذكور ، ويضيفون إلى ما تقدم قولهم : إن من خصائص الذكر أن الله جعل فى مقابلته ذكر الله للذاكر ، وأى شرف هذا للذاكر ، فأين ذكر العبد لربه من ذكر الله له ، ويستندون فى ذلك إلى قوله تعالى فى سورة البقرة : (فأذكرونى أذكركم) ، وإذا كان المرء يفرح إذا علم أن شخصاً عظيماً ذكره بالخير ، فكيف يكون فرحه إذا علم أن ربه الأعلى سبحانه ذكره فى خواصه وأفاض عليه من جوده وإحسانه فأخرجه من ظلمة الغفلة إلى نور الذكر ومن قسوة القلب إلى رقة الشعور .

وذكر اللسان يوصل إلى ذكر القلب ، لأنه تعالى أقام بحكمته رابطة بين الجوارح والقلب ، فتنتفع الجوارح من فعل القلب ، وينتفع القلب من فعل الجوارح ، ولذلك يعلق السادة الصوفية أهمية على ذكر اللسان لأنه مدخل إلى ذكر القلب ، وقد قال بعض السالكين لشيخهم : نحن نذكر الله تعالى ولا نجد فى قلوبنا حلاوة فقال لهم : أحمدوا الله تعالى على أن زين جارحة من جوارحكم بطاعته .

ويصبوا السادة الصوفية إلى أن يصلوا فى نهاية الشوط إلى ذكر الله تعالى على الحقيقة وهم يشيدون بذكر الله على الحقيقة فيقولون من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسى فى جنب ذكره كل شىء ، وحفظ الله تعالى عليه كل شىء ، وكان له عوضاً من كل شىء .

أقول والقرآن الكريم يشهد لهذا الذى ذهبوا إليه فى مثل قوله تعالى فى سورة آل عمران (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فإنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وأتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) فدلت الآية على أن اليقين بالله تعالى يثبت القلوب فى مواطن الشدة ، ولا يتأتى مثل هذا اليقين إلا لذاكرين الله على الحقيقية ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة الرعد (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

وإطمئنان القلوب الذاكره إنما هو أثر من آثار المشاهدة التى

يتميزون بها عن سواهم : لأن ذاكر الله يخرج بموالاة ذكره سبحانه من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة ، فيشهد ربه بعين يقينه ، وإذا شهد ربه بعين يقينه أيقن أنه لا فاعل إلا الله ، فإذا كان فى شدة ، علم أنه سبحانه هو القادر وحده على كشفها ، وإذا كان فى حرب مع الأعداء علم أن النصر من عند الله ، وإذا كان فى نعمة علم أن الله تعالى ولى كل نعمة ، فيجب أن يشكر ربه فيها باستعمالها فيما يرضيه تعالى ، فيطمئن إلى دوامها ، بل إلى زيادتها ، وهكذا يكون مطمئناً بربه فى عسره ويسره ، وفى بلائه ورخائه (قل كل من عند الله) .

ومن هنا قال السادة الصوفية : ذكر الله بالقلب سيف المريدين ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم ، وإن البلاء إذا أظل العبد ، فإذا فزع بقلبه إلى الله تعالى يحيد عنه فى الحال كل ما يكرهه . وقد حدث عند فتح تستر أن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" كم من ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك رضى الله عنه " فقال البراء : اللهم فإنى أقسم عليك لما رزقتنى الشهادة ورزقت أصحابى الفتح ، قالوا فأستجاب الله دعاءه ، فأستشهد البراء وفتح الله على المسلمين .

ويعلمنا سيدنا أبو بكر الصديق درساً قيماً فى اليقين بالله تعالى فيقول رضى الله عنه :

ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل اشتغلت بها عما سواها احداها قوله تعالى (وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) فعلمت أنه إن أرادنى بخير لم يقدر أحد أن يمنعه عنى غيره ، وإن أرادنى بشر لم يقدر أحد أن يصرفه عنى غيره والثانيه قوله تعالى (فأذكرونى أذكركم) فأشتغلت بذكره تعالى عن كل مذكور سوى الله ، والثالة قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) فوالله ما أهمنى رزقى منذ قرأت هذه الآية ، بمعنى أنه لم يقلق على رزقه بل أطمأن عليه بالله الذى كفله له ، فأخذ فى أسباب التكسب مع حسن التوكل على الله الذى تكفل بالأرزاق .

وقد مدح الله تعالى أهل الصفة رضوان الله عليهم ، وأوصى بهم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فقال تعالى فى سورة الكهف

(وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وأتبع هواه وكان أمره فرطاً) وفى الآية نهى عن طاعة أهل الغفلة ممن غلبهم هوى نفوسهم ، لأن بصيرتهم مطموسة لا ترى الحق حقاً ولا الباطل باطلا ، لأن هوى النفوس يعمى عن الحق ويصم والعياذ بالله .

ويقول السادة الصوفية : إن الله تعالى يرزق حلاوة ذكره سبحانه فإن فرح المؤمن بها وشكر الله تعالى آنسه ربه بقربه ، وإن قصر فى شكر الله أجرى الله الذكر على لسانه وسلبه حلاوته . وهم كذلك يقولون : الغافلون يعيشون فى حلم الله ، والذاكرون يعيشون فى رحمة الله ، والعارفون يعيشون فى لطف الله ، والصادقون يعيشون فى قرب الله ، والقرب هنا ليس قرب مسافة بل هو قرب معرفة ومشاهدة ويقين وإستئناس بالمذكور جل جلاله ، فقد قالوا ان الذكر طعام العارفين فلا تستغنى أرواحهم عنه ، ولا تحيا إلا به وله .

وقد رأى الناس سبحة فى يد الإمام الجنيد ، وكان سيد الصوفية وأمامهم فى القرن الثالث الهجرى ، فقالوا له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ، فقال : طريق به وصلت إلى ربى لا أفارقه . ويعتبر السادة الصوفية أن الغفلة عن ذكر الله نوم ثقيل ، ويرون أن ثقل الغفلة يوقع الغافل فى الشهوة ، ومن حكمهم فى هذا الشأن قولهم : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة ، وقد قال سيدنا يوسف الصديق عليه السلام حين دعته إمرأة العزيز إلى الفاحشة : (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فأستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) وما ذلك إلا من قوة مشاهدته لربه ودوامه على ذكره ، وقد إستجاب الله له وصرف عنه كيد النساء وجعل له من محنة السجن منحة ، فخرج من السجن حاكماً بعد أن كان محكوماً ، وآمرا بعد أن كان مأموراً ، ولم تكن له أمنية عند ربه إلا أن يقبضه على ملة الإسلام ويلحقه بالصالحين من الأنبياء والمرسلين فقد قال عليه السلام (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) .

وهم يتدرجون بالسالكين فى مدارج الذكر حتى يمتلئ القلب من محبة الله تعالى ، فيتجنب السالك المعصية ، وتكون أوقاته فى طاعة ربه فى سره أو جهره ، وفى ليله أو نهاره ، وعند ذلك يقطع المفاوز الى الآخرة ، ومن حكمهم فى هذا المقام قولهم : مفاوز الدنيا تقطع بالاقدام ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب ، من ذلك ترى ان المعول عندهم على ذكر القلب فى التقرب الى الله وكسب رضاه ويحكى لنا سيدى الامام سهل بن عبد الله التسترى كيف تدرج به فى ذكر الله تعالى خاله الصالح سيدى محمد بن سوار فيقول :

قال لى خالى يوما : ألا تذكر الله الذى خلقك ؟

فقلت : كيف أذكره ؟

قال لى : قل بقلبك عند تقبلك فى ثيابك (أى عند النوم) ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : الله معى ، الله ناظر الى ، الله شاهد على .

فقلت ذلك ثلاثة أيام ، ثم أعلمته به ، فقال لى :

قل فى كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال : قل فى كل ليلة إحدى عشرة مرة ، فقلت ذلك ، فوقع من قلبى له حلاوة .

فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ما علمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر ، فانه ينفعك فى الدنيا والآخره .

فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة فى سرى .

ثم قال لى خالى يوما : يا سهل ، من كان الله معه ، وهو ناظر اليه وشاهده ، أيعصيه ؟ اياك والمعصية .

ولعل السادة القراء فهموا ما تقدم لماذا قال سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى لتلميذه : ذكر الله بهاء ، فليس أبهى من مؤمن ذكر الله فذكره الله وجاد عليه برضاه ..

وأما قول سيدى الشيخ : والتوحيد صفاء ، فانه أراد أن ينبه تلميذه الى أن السادة الصوفية بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحه فى التوحيد ، فكان توحيدهم صافيا ، افردوا فيه القلب والقالب لله تعالى وحده ، وها هو ذا الامام القشيرى رضى الله عنه يتكلم عنهم فى رسالته القيمة فيقول فى هذا المقام :

اعلموا ، رحمكم الله ، ان شيوخ هذه الطائفة قد بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت موجود من العدم (أى الحادث الذى أوجده الله بعد أن لم يكن) ، ولذلك قال سيد هذه الطائفة الجنيد رحمه الله : التوحيد افراد القدم من الحدث ، كما قال :

ان أول ما يحتاج اليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدث كيف كان احداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدث ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ، فان من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه .

ويقول السادة الصوفية ان صفاء العبادات لا ينال الا بصفاء التوحيد ويقول الامام الجنيد : التوحيد علمك واقرارك بأن الله فرد فى أزليته لا ثانى معه ، ولاشئ يفعل فعله ، وأنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد ، بنفى الاضداد والانداد والأشباه ، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) .

ويقول الامام عمرو بن عثمان المكى رضى الله عنه :

كل ما توهمه قلبك ، أو سنح فى مجارى فكرك ، أو خطر فى معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو أنس أو جمال أو ضياء أو شبح أو نور أو شخص أو خيال فالله تعالى بعيد من ذلك ، ألا تسمع الى قول الله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) وقوله تعالى (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

وقد رأى الامام سيدى جعفر الصادق جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه فسأله سيدى جعفر عن حقيقة التوحيد ، فعلمه قاعدة رائعة مختصرة ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه :

(كل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك) .

وما أعظمه صلى الله عليه وسلم من معلم ، فليحرص كل قارئ على هذه القاعدة الثابتة ويعلمها لغيره .

ويعلمنا سيدى الامام جعفر الصادق كذلك أن نكف عن الكلام فى قضاء الله وقدره ، فيقول فى روعة من بيانه رضى الله عنه ان الله تعالى أراد منا شيئا . وبينه لنا ، واراد بنا شيئا وطواه عنا ، أراد منا الطاعة والكف عن المعصية ، وأراد بنا ما قضاه علينا وقدره ، فلا يجوز ان نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا .

وقد نهى الشرع الحنيف عن الجدل فى القضاء والقدر ، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ثم قال :

(أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت اليكم ، انما هلك من كان قلبكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا) .

وقد سأل رجل الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن القدر ، فقال الامام للرجل : طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر ، فقال : بحر عميق لا تخض فيه ، فقال : يأمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر ، فقال : سر خفى لا نفشيه ، فقال : يأمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر ، فقال :ان الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء ، فقال ان الله يبعثك يوم القيامه كما شئت أو كما شاء ؟ قال : كما شاء ، قال : الك مشيئة مع مشيئة الله أو فوق مشيئة الله أو دون مشيئة الله ؟أما ان قلت مع مشيئة ادعيت الشركة معه ، وان قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام لتلميذه من ان القبول مكفول بحب الرسول ، فانه يبين له اثر محبة المؤمن لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهى باب القبول عند الله عز وجل ، ذلك بأن محبته صلى الله عليه وسلم علامة على محبة الله تعالى لأنه صلى الله عليه وسلم

هو الذى دعانا الى الله باذنه ، فاهتدينا على يديه الى الله سبحانه ، كما أنه صلى الله عليه وسلم بلغنا ما أنزل اليه من ربه ، وفصل لنا ما أجمله كتاب الله عز وجل ، وبين لنا حلاله وحرامه ، وكان امام الأمة بأقواله وأفعاله وأحواله ، وألزمنا الله طاعته فى ذلك كله فقال جل شأنه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وبين لنا سبحانه ان طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم انما هى طاعة لله ، فقال عز وجل (من يطيع الرسول فقد أطاع الله) كما بين أن طاعته صلى الله عليه وسلم هو سبيل الاهتداء (وان تطيعوه تهتدوا) وحذرنا سبحانه من مخالفته تحذيرا شديدا فقال تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) كما أنه تعالى علمنا طريق الفوز العظيم فقال جل جلاله (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) .

ويقول السادة الصوفية ان أصول الدين هى اثبات صدق الافتقار الى الله تعالى ، وحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قالوا ان فروع الدين أربعه : الوفاء بالعهود ، وحفظ الحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود .

ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم هو علامة محبته لان المحبة تدعو المحب الى التقليد والتأسى اعتزازا من المحب بحبيبه واعجابا به وتقديرا لفضله ، لا بل ان متابعته صلى الله عليه وسلم دليل على محبة المؤمن لربه سبحانه ، لانه تعالى يقول (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فمتابعته صلى الله عليه وسلم تؤدى الى أن يحب الله عبده ويغفر له ذنبه ويقبله فى جنبه ، ومن ذلك يتبين قول سيدى الشيخ : والقبول مكفول بحب الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعددت لها ؟ قال : حب الله ورسوله ، قال : أنت مع من أحببت : وفى رواية للبخارى ومسلم قال أنس : فما فرحنا بشئ فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت ،

فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى اياهم .
وأخيرا يسأل سيدى الشيخ ربه ان يمده بمدد النبى صلى الله عليه وسلم ، ويرشد تلميذه الى أن العطاء إنما هو من الله سبحانه ويأتينا على يد حبيبه ومصطفاه ، الذى أرسله رحمة للعالمين ، وجعله قاسما لعطاء الله بين العباد ، بما شاء سبحانه أن يكون ، كما جعله هاديا الى الايمان لمن شاء الله لهم الايمان ، دالا بذلك على ان عطاءه سبحانه يجرى بأسبابه وفق ما قضى وقدر ، والاسباب خلقه ، والقضاء سلطانه ، ولا معطى لما منع ، ولا مانع لما اعطى ، وما مكن فيه رسوله لا اعتراض عليه الا من جهول خلط فغلط ، واتبع هواه بغير علم من الله ، فان تكلمنا فى مدد الرسول فانما نتكلم فى معرض الاسباب التى اقامها سبحانه وتعالى بحكمته ، وشهدنا ان العطاء من الله يأتينا على يد رسوله ، الذى أقامه فينا وجعله حجه لنا أو علينا ، فسمعنا كلام الله منه واخذناه عنه ، فكان صلى الله عليه وسلم الواسطة لله ، ولولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط ، فصلوات الله وسلامه عليه ما نعمنا بشرعه الحنيف ، وما والانا الله بمدده الشريف ، وما غمرتنا أنواره وهو السراج المنير ، وما أكرمنا الله ببركته صلى الله عليه وسلم ورأفته ، وما رحمنا بعطفه صلى الله عليه وسلم ورحمته ، فهو القائل سبحانه فى وصف رأفته ورحمته بنا صلى الله عليه وسلم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الاهو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .
ولقد دخل الامام أبو بكر الشلبى على رجل صالح فقبله ذلك الصالح بين عينيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام يقبله ، فقلت له يا رسول الله بماذا استحق الشبلى منك ذلك ، فقال انه يقرأ عقب كل صلاة الآيتين الاخيرتين من سورة التوبة (وهما الايتان الواردتان فى الفقرة السابقة) ثم يصلى على ثلاثه مرات .
ويخاطب العارف العالم سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى وسيدى عبد السلام) مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول فى احدى قصائده :

بالله صل حبل الرجاء تفضلا

انا ضيف جودك يا امام أولى الكرم

جد للضعيف بمبتغاه فانه

ما للضعيف سوى رحابك ملتزم

جدلى فان خزائن الرحمن فى

يدك اليمين وأنت أكرم من قسم

اللهم اجعلنا أهلا لشرف الانتساب اليه ، واجعلنا يوم القيامه من المحمولين عليه ، يوم تفزع الخلائق بين يديه طالبين شفاعته العظمى : فيقول فى ثقة بربه ، وتوكلا عليه : أنا لها ان شاء الله ، ثم يسجد لله تعالى ، ويثنى على ربه بما يفتح الله ، فيناديه ربه : يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع ، وسل تعط ، وقل يسمع لك فيرفع رأسه ويشفع لاهل الموقف فى الانصراف ، فيقول : يا رب مر بعبادك الى الحساب فقد اشتد الكرب ، فيجاب الى ذلك ، وهذا هو المقام المحمود الوارد فى قوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافله لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

آل البيت ووراثة
الاخلاق النبوية

(وأنت موصوف كما وصف النبى صلى الله عليه وسلم بأنه صافى الروح ، صافى النور ، صافى القبضه ، صافى القلب ، صافى الذات ، صافى التوحيد ، صافى العمل ، صافى الوقت ، لاستغراقة فى جمال ربه ونعمه ، فهو مبعوث دائما بالصفاء وصفاء الصفاء والوفاء) .
(اذا تشبهت بالنبى صلى الله عليه وسلم فأنت جدير بذلك الصفاء لأنك بعنصرك وأرومتك تنتمى الى بنى الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تشبه بأصله فما ظلم).
ذلك مما كتب سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصديق الصالح المبارك المرحوم السيد / سالم جمعة طيب الله ثراه ، وهى ترينا كيف يتحلى المؤمن بمكارم الأخلاق حين يتأسى فى أقواله وأفعاله وأحواله بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى بلغ الغاية فى المكارم بشهادة الله الذى يعلم السر وأخفى ، فقد وصفه سبحانه أخلد وصف فى قوله الكريم (وإنك لعلى خلق عظيم) وهذا فى الاجمال ، أما فى التفصيل فيتعرض القرآن الكريم لنواحى الخلق العظيم فى مواضع شتى ، فمثلا يصف رب العزة رسوله الأمين فى رأفته ورحمته بالمؤمنين فيقول جل جلاله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليه بالمؤمنين رؤوف رحيم) ويصفه فى لين الجانب والسماحة فيقول (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ويصفه سبحانه مرة أخرى فى تمنى الخير للناس حرصا على اسعادهم بالايمان وأسفه الشديد على كفرهم بالقرآن المجيد فيقول سبحانه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وهكذا نرى صورة الأخلاق النبوية المثلى فى جانب صلته بالناس عامة وبالمؤمنين خاصة .
أما فى جانب صلته بالله تعالى فقد قام الليل صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ، فقال له جبريل أبق على نفسك فان لها عليك حقا ، وأنزل الله عليه قوله تعالى (طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشفى) وفى توجهه صلى الله عليه وسلم لربه وركونه اليه فيما يريد ، يقول الحق جلا وعلا

(قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) وكان صلى الله عليه وسلم يود لو يحوله الله الى المسجد الحرام بدلا من الصلاة الى بيت المقدس ، وكن يتطلع الى ربه ويحسن ظنه به فى تحقيق تلك الرغبة التى قصد بها تأليف قلوب العرب للإسلام ، باعتبار المسجد الحرام أقدم القبلتين ، كما أنه قبلة أبيهم ابراهيم الخليل عليه الصلاه والسلام ، فضلا عن مخالفة اليهود الذين دلتهم التوراة على صحه الرسالة المحمدية ، ولكنهم تجاهلوا واستحبوا العمى على الهدى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى و أضل سبيلا) .

وكان صلوات الله وسلامه عليه اذا حزبه أمر قام الى الصلاة يفرج بها عن نفسه ، وكيف لا يفعل وقد دله الله تعالى على ذلك فى قوله الكريم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والصلاة تجمع بين التسبيح والسجود وهما العلاج الذىوصفه الله تعالى لضيق الصدر .

وسيدى الشيخ عبد السلام يشير الى صفاء الفطرة الذى ورثه تلميذه من أجداده الاشراف الكرام البررة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

فكانوا أئمه الهدى على مر الأجيال ، ذرية بعضها من بعض ، وقد دلت التجارب العملية فى الانسان والحيوان والنبات على قيام وراثة الصفات بين الفرع وأصله وكما تورث الصفات المادية تورث كذلك الصفات الخلقية والمعنوية ، وسبحان من ربط بين الأسباب وثمرتها وفرق مع اتحاد الجنس بين الخبيث والطيب والفاضل والمفضول (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

وقد رأينا أن أقل الطاعات تبدو أنوارها على السادة الأشراف لصفاء فطرتهم وصدق يقينهم وحسن ظنهم بالله تعالى ، كما أنهم يندمون أشد الندم على أيه صغيرة تقع منهم ، وهم قريبوا البكاء لرقة قلوبهم ودقة شعورهم .

كما رأينا أن أهل الهمة فيهم لا يشق لهم غبار ، أما فى الليل فصافون أقدامهم (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا) ، وأما

فى النهار ، فمأمون شرهم مأمول خيرهم ، يأمرون بالمعروف ويفعلونه ، وينهون عن المنكر ويبطلونه وأما فى الصدقات فيؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ويقول امامنا على كرم الله وجهه : أشد الأعمال ثلاثة ، اعطاء الحق من نفسك ، وذكر الله على كل حال ، ومواساة الأخ فى المال .

وقد روى الامام أبو نعيم فى الحلية بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سره أن يحيا حياتى ، ويموت مماتى ، ويسكن جنة عدن غرسها ربى فليوال عليا من بعدى وليوال وليه ، وليقتد بالأئمة من بعدى ، فانهم عترتى خلقوا من طينتى ، ورزقوا فهما وعلما ، وويل للمكذبين بفضلهم من أمتى ، القاطعين فيهم صلتى ، لا أنالهم الله شفاعتى) .

وانك لتعجب من الوصف الذى وصف به ضرار الكنانى امامنا عليا كرم الله وجهه فى مجلس معاوية ، فقد دخل ضرار على معاوية يوما فقال له : صف لى عليا يا ضرار ، فقال له : أو تعفيننى ، قال لا أعفيك ، فقال ضرار : أما اذ لابد من وصفه ، فانه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوابه ، وتنطق الحكمة من نواحيه .

يستوحش من الدنيا وزهرتها : ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن .

كان والله كأحدنا يدنينا اذا أتيناه ، ويجيبنا اذا سألناه ، وكان مع تقربه الينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له .

فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لايطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل فى محرابه قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم (أى الملدوغ) ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا – يتضرع اليه – ثم يقول للدنيا ، الى تقربت ، الى تشوقت ، غرى غيرى ،

قد طلقتك ثلاثا ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وعطرك يسير ، آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

قالو فسالت دموع معاوية على لحيته ما يملكها ، وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء ، وقال معاوية : هكذا كان أبو الحسن رحمه الله ، فكيف كان حزنك عليه ياضرار ؟ قال حزن من ذبح واحدها فى حجرها ، لا ترقأ دمعتها ، ولا يسكن حزنها ، ثم قام ضرار فخرج .

ولنأخذ من بكاء معاوية العبرة والاعتبار ، فان فضل الأئمه العدول من سادتنا آل البيت لا يموت وان ماتت أجسادهم ، ولا يستطيع أن ينكر فضلهم الثابت خصم عنيد أو عدو حسود الا كما ينكر ضوء الشمس مكفوف البصر ، ويقول السادة الصوفية بحق : وما ذنب البستان اذا قصرت فى جنى ثماره ، وما ذنب النهار اذا أغمضت العين عن شهود أنواره ؟

وأمامنا على كرم الله وجهه عظيم من عظماء الاسلام الشوامخ ، فهو كما يقول الامام أبو نعيم فى حيلة الأولياء : قدوة المتقين ، وزينة العارفين ، المنبئ عن حقائق التوحيد ، المشير الى لوامع علم التفريد ، صاحب القلب العقول ، واللسان السؤول ، والأذن الواعى ، والعهد الوافى ، محب مشهود ، ومحبوب المعبود .

ومن روائع حكم امامنا على كرم الله وجهه .

احفظو عنى خمسا ، فلو ركبتم الابل فى طلبهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوهن : لا يرجو عبد الا ربه ، ولا يخاف الا ذنبه ، ولا يستحى جاهل ان يسأل عما لا يعلم ، ولا يستحى عالم اذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم ، والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا ايمان لمن لا صبر له .

وكذلك يقول كرم الله وجهه .

إن أخوف ما اخاف اتباع الهوى وطول الأمل ، فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ألا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ، ألا وان الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل واحد منهما

بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فان اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل .

وقد أخذ السادة الصوفية الكثير من علم امامنا على واشارته ، ويرون بحق أن علمه علم لدنى مما يؤتيه الله لخاصته وأوليائه ، حتى قال الامام الجنيد رضى الله عنه مشيرا الى فضله : لو لم تشغله الحروب لأفادنا فى علمنا هذا معانى كثيرة ، ذلك امرؤ أعطى علما لدنيا ، ولذلك كان الامام كرم الله وجه يقول متحدثا بنعمة ربه : لو شئت أو قرت سبعين جملا فى تفسير سورة الفاتحه ، كما كان يقول وهو يشير الى صدره : ان ها هنا لعلما جما لو أ جد له حملة .

ويرشدنا الصوفى الكبير سيدى السرى السقطى رضى الله عنه ، وهو أستاذ الامام الجنيد رضى الله عنه ، فيقول ناصحا لنا : الأمور ثلاثة : أمر بان لك رشده فاتبعه ، وأمر بان لك غيبة فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فقف عنده ، وكله الى الله عز وجل ، وليكن الله دليلك ، واجعل مفرك اليه تستعين به عمن سواه .

كما أنه رضى الله عنه يرشدنا الى أن نفعل ما نقول ونقهر هوى نفوسنا ومن حكمه : ما أكثر من يصف الصفه وأقل من يوافق فعله صفته ، وقوله : أقوى القوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه وقوله : أحسن الأشياء خمسه .. البكاء على الذنوب ، واصلاح العيوب ، وطاعه علام الغيوب ، وجلاء الرين من القلوب ، وألا تكون لكل ما تهوى الركوب .

وفى كل جبل من أجيال هذه الأمة يأخذ الناس تربيتهم عن أئمه الهدى من سادتى آل البيت الكرام ، فمنهم نجوم يقتدى بهم السالكون ويسترشد بهم الحائرون ، والاضطهاد الذى وقع عليهم كان سببا لانتشارهم فى المشارق والمغارب ، فعم نورهم الآفاق ، وسبحان من اذا شاء قلب المحن منحا ، (وعسى أن تكرهو شيئا وهو خير لكم) وهم فى كل زمان رضى الله عنهم دعاة أمن وايمان ، وحريصون على نفع الأمة ما وسعهم الجهد ، ويحدثنا أبو حمزة الثمالى فيما رواه أبو نعيم فى الحيلة بسنده عن امام من أجل الأئمه الأشراف ، وهو سيدى الامام على زين العابدين ابن الامام الحسين السبط رضى الله عنهم أجمعين فيقول :

أتيت باب على بن الحسين فكرهت أن أضرب ، فقعدت حتى خرج فسلمت عليه ، ودعوت له ، فرد على السلام ودعا لى ، ثم انتهى الى حائط له ، قال يا أبا حمزة : ترى هذا الحائط ، قلت بلى يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فانى اتكأت عليه يوما وأنا حزين ، فاذا رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ينظر فى تجاه وجهى ثم قال : يا على ابن الحسين ، مالى أراك كئيبا حزينا ، أعلى الدنيا ، فهى رزق حاضر ، يأكل منها البر والفاجر ، فقلت ما عليها أحزن لأنها كما تقول ، فقال ، أعلى الآخرة ، هى وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر ، قلت ما على هذا أحزن لأنها كما تقول ، فقال ، وما حزنك يا على بن الحسين ؟ قلت ، ما أتخوف من فتنة ابن الزبير ، فقال : يا على ، هل رأيت أحد سأل الله فلم يعطيه ؟ قلت ، لا ، ثم قال ، فخاف الله فلم يكفه ؟ قلت لا ، ثم غاب عنى ، فقيل لى يا على ، هذا الخضر عليه السلام ناجاك .

والسادة آل البيت الكرام يتمسكون على الدوام بالحق ، ولا يحيدون عنه يمنة أو يسرة ، ولا يحبون أن يجاملوا على حساب الحق ، وها هو ذا سيدى على زين العابدين رضى الله عنه يحدثنا بما وقع بينه وبين المتطرفين من غلاة الشيعة فيقول :

أتانى نفر من أهل العراق ، فقالو فى أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم (أى قولا غير لائق) ، فلما فرغوا ، قلت لهم : ألاتخبرونى ، أنتم المهاجرون الأولون (الذين خرجو من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) قالو : لا ، قلت فأنتم الذين "تبوأو الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " قالوا : لا ، قلت : أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين ، ثم قلت : أشهد أنكم لستم من الذين قال فيهم الله عز وجل (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبهم غلا الذين آمنو ربنا انك رؤوف رحيم) أخرجوا فعل الله بكم .

وكان رضى الله عنه ينصح الناس لله وللرسول ، فكان يقول : يا معشر أهل العراق ، يا معشر أهل الكوفة ، أحبونا حب الاسلام ولا ترفعونا فوق حقنا . ومن خصاله الشريفة رضى الله عنه أنه كان

اذا تصدق على سائل بصدقة قبل (بتشديد الباء) السائل قبل أن يعطيعه الصدقة . وكان رضى الله عنه على علمه وفضله يجلس الى زيد بن أسلم ويسمع من علمه ، وقد قالو له : مثلك يا امام يجلس الى هذا المولى ؟ فقال رضى الله عنه : انما يجلس الرجال الى من ينفعه فى دينه . فانظر رعاك الله كيف كان يتواضع للعلم والعلماء وهو امام وقته غير منازع .

ويعلمنا سيدى الامام زين العابدين رضى الله عنه فيقول : اذا كان يوم القيامة نادى مناد : ليقم أهل الفضل ، فيقوم ناس من الناس ، فيقال ، انطلقوا الى الجنه ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: الى أين ؟ فيقولون: الى الجنة ، قالو : قبل الحساب ؟ قالو نعم ، قالوا : من أنتم : قالوا : أهل الفضل قالوا : وما كان فضلكم ؟ قالوا ، كنا اذا جهل علينا حلمنا ، واذا ظلمنا صبرنا ، واذا أسى علينا غفرنا ، قالو : ادخلو الجنة ، فنعم أجر العاملين .

ثم ينادى مناد ، ليقم جيران الله فى داره ، فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم ، انطلقوا الى الجنة فتتلقاهم الملائكة ، فيقال لهم مثل ذلك ، قالوا وبم جاورتهم الله فى داره ؟ قالو : كنا نتزاور فى الله عز وجل ، ونتجالس فى الله ، ونتبادل فى الله ، قالو : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

واذا أردت أن تشرب غرفة سائغة هنيئة من بحر علمه الغزير ، فاستمع الى الامام ابن شهاب الزهرى اذ يحدثنا عنه فيقول :

دخلنا على الامام على بن الحسين بن على فقال : يا زهرى فيم كنتم ؛ قلت تذاكرنا الصوم فأجمع رأيى ورأى أصحابى على أنه ليس من الصوم شئ واجب الا شهر رمضان .

فقال : يا زهرى ليس كما قلت .

الصوم على أربعين وجه ، عشرة منها واجبة كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها حرام ، وأربعة عشر خصلة صاحبها بالخيار ، ان شاء صام وان شاء فطر ، وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب .

قال ، قلت فسرهن يا ابن رسول الله .

قال : أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصيام شهرين متتابعين ، يعنى فى قتل الخطأ ان لم يجد العتق – قال تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ) الآية وصيام ثلاثة أيام فى كفارة اليمين ان لم يجد الاطعام ، قال عز وجل (ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم) وصيام حلق الرأس ، قال الله تعالى (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) الآية ، صاحبه بالخيار ان شاء صام ثلاثا : وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدى ، قال تعالى (فمن تمتع بالعمرة الى الحج) الآيه ، وصوم جزاء الصيد ، قال الله عز وجل (ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم) الآية ، وانما يقوم ذلك الصيد قيمة ثم يقص ذلك الثمن على الحنطة .

وأما الذى صاحبه بالخيار ، فصوم يوم الاتنين وخميس ، وصوم ستة أيام من شوال بعد رمضان ، ويوم عرفه ، ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه بالخيار ، ان شاء صام وان شاء أفطر .

وأما صوم الاذن ، فالمرأة لا تصوم تطوعا الا باذن زوجها ، وكذلك العبد والأمة .

وأما صوم الحرام ، فصوم يوم الفطر ويوم الأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم الشك نهينا أن نصومه كرمضان ، وصوم الوصال حرام ، وصوم الصمت حرام ، وصوم نذر المعصيه حرام ، وصوم الدهر حرام ، والضيف لا يصوم تطوعا الا باذن صاحبه ، قال صلى اللله عليه وسلم (من نزل على قوم لا يصومون تطوعا الا باذنهم) ويؤمر الصبى بالصوم اذا لم يراهق تأنيسا وليس بفرض ، وكذلك من أفطر لعلة من أول النهار ثم وجد قوة فى بدنه أمر بالإمساك ، وذلك تأديب عز وجل وليس بفرض ، وكذلك المسافر اذا أكل من أول النهار ثم قدم أمر بالإمساك .

أما صوم الاباحة فمن أكل أو شرب ناسيا من غير عمد فقد أبيح له ذلك واجزأه عن صومه ، وأما صوم المريض وصوم المسافر ، فان العامة اختلفت فيه ، فقال بعضهم يصوم ، وقال قوم لا يصوم ، وقال قوم ان شاء الله صام وان شاء أفطر ، وأما نحن فنقول يفطر فى

الحالين جميعا ، فإن صام فى السفر والمرض فعليه القضاء ، قال الله عز وجل (فعدة من أيام أخر) .

هذا وكما كان سيدى الامام زين العابدين ينهى عن الغلو فى التشيع كان ابنه سيدى الامام محمد الباقر ينهى كذلك عنه ، فقد سئل رضى الله عنه عن حلية السيوف فقال : لا بأس به قد حلى أبو بكر الصديق رضى الله عنه سيفه ، فقال له قائل ، وتقول الصديق ، قال فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال نعم الصديق ، فمن لم يقل له الصديق فلا صدق الله له قولا فى الدنيا والآخرة .

ومره أخرى قال سيدى الامام الباقر رضى الله عنه : من لم يعرف فضل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقد جهل السنه .

ولعل القارئ الكريم رأى مما تقدم كيف تحلى سادتنا آل البيت الكرام بالصفاء والوفاء والطهر والعفاف تأسيا بجدهم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عجب فى ذلك فانه تعالى يقول فى شأنهم (انما يريد ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطيرا) .

رحمة الشيوخ
الأولياء بتلاميذهم

(الفاضل المحترم الذى خلقه الله سالما من الشرور ، بل جعله على سنه الابرار فى الليل والنهار ، زائد الانوار من النبى المختار ، فهو سالم بإسمه ، سالم بوصفه ، سالم مع الله ، سالم مع الناس ، سليم الطوية ، خالص النية ، لا يوصف الا بالكمال من وصفوه الرجال ، فهو ابن عمر جمعه ، جمعه الله على خيرة من خلقه الله ، وعرفه بالله آمين) .
جاءت السطور المتقدمة فى صدر رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المغفور له الصديق السيد / سالم عمر جمعه ، وهى ترينا كمال سيدى الشيخ فى مخاطبه تلاميذه ، وتكشف عن الرحمة المودعة فى قلبه الكبير لهم ، وتبين لنا كيف كان ينزلهم منازلهم ، فاذا صورهم الشيخ بكماله فى صورة من الكمال أسرهم حسن ظنه بهم ، فحرصوا بكل وسيلة ان يكونوا على الدوام عند هذا الظن الجميل ، واذا اراهم كيف يعامل الرجال ، احتذوا حذوه فى معاملة غيرهم فاحترموهم وكرموهم بما حباهم الله من فضله ، على ان وصف الشيخ لتلاميذه فى صورة الكمال الذى يراه لهم فى نفسه انما يوجههم به أيضا الى بلوغه بكل جهد مستطاع ، والشيخ معاون لهم فى سلوكهم ، يمحضهم النصائح ويكون لهم قدوة حسنة فى أقواله وأفعاله وأحواله التى ترسم فيها خطوات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار نائبا عنه فى دعوه الخلق الى الحق .
ويقول سيدى شاه الكرمانى رضى الله عنه فى حكمه : (علامة الحكمة معرفه أقدار الناس) وكلامه هذا له شاهد من الكتاب والسنة ، فقد مدح الله عباده الصالحين فى كتابه الكريم ، وجعل وصفهم جاريا على السنة التالين والمصلين ، ومدح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما حباهم الله من فضله

.

فقال تعالى مثلا فى فضل سادتنا المهاجرين والانصار رضى الله عنهم (والذين آمنو وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم) وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه : انت (الصديق) ، وقال لسيدنا عمر رضى الله عنه : (انت الفاروق) وقال فى حق سيدنا عثمان رضى الله عنه : (عثمان أحيا أمتى وأكرمها) وقال فى حق سيدنا على كرم الله وجهه : (لاعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يده يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) وغير ذلك كثير وانما سقنا ما تقدم على سبيل المثال .

وقد اثبت الله تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليهوسلم رأفته ورحمته بالمؤمنين فقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) كما قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر)

والداعى الى الله يجب ان تتوافر له هذه الرآفه وتلك الرحمة ؛ تأليفا للقلوب ، وتهذيبا للنفوس ، خاصه وأن تلاميذه الذين يلتفون حوله ، انما يأتون اليه باختيارهم ليعاونهم فى طاعه الله ، ولا يجمعهم سلطان قاهر ، أو رهبة مخيفة .

واذا كان لين الجانب لازما للشيخ فى الازمان السابقه فهو فى زماننا الزم حيث فترت الهمم فى السعى الى امر الآخرة ، ووقفت همم الناس أو كادت عند أمور الدنيا حتى كأنهم خلقو لها وسيخلدون فيها ، وطريق التصوف طريق جد لا هزل فيه ، لان المتصوف يطلب السعادة الحقة التى لا سعادة بعدها ، فهو يطلب عزيزا نادرا ، يغلو ثمنه ، ويرخص فى طلبه كل جهاد بالنفس والمال ، فهو يطلب رضاء ربه ، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل .

وانما سمى الأولياء أولياء ، لمولاتهم جانب الله ، ومجافاة ما سواه ، وليستمع القارئ الكريم الى بعض ما وصف به سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه هؤلاء الاولياء فقد قال فيهم :

هم قوم ذكروا الله عز وجل بقلوبهم تعظيما لربهم عز وجل لمعرفتهم بجلاله ، فهم حجج الله تعالى على خلقه ، ألبسهم النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية الى مواصلته وأقامهم مقام الأبطال لارادته ، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته وطهر ابدانهم بمراقبته ، وطيبهم بطيب أهل مجاملته ، وكساهم حللا من نسج مودته ، ووضع على رؤوسهم تيجان مسرته ، فهمومهم اليه ثائرة ، واعينهم اليه بالغيب ناظرة ، اجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ثم قال :

ان أتاكم مريض من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فأمنوه أو آمن منى فحذروه ، أو راغب فى مواصلتى فهنئوه ، أو راحل نحوى فزودوه ، أو جبان من متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فعدوه ، أو راج لاحسانى فبشروه ، أو حسن الظن بى فباسطوه ، أو محب لى فواظبوه ، أو معظم لقدرى فعظموه ، أو مستوصفكم نحوى فأرشدوه ، أو مسئ بعد احسان فعاتبوه ومن واصلكم فواصلوه ومن غاب عنكم فافتقدوه . يا أوليائى ، اياكم رغبت ، ومنكم الوفاء طلبت ، ولكم اصطفيت وانتخبت ، ولكم استخدمت واختصصت ، لانى لا أحب استخدام الجباريين : ولامواصلة المتكبرين، ولا معافاة المخلطين ولا مجاوبة المخادعين ولا قرب المعجبين ، ولا مجالسة البطالين ، ولا موالاة الشرهين .

يا أوليائى ، جزائى لكم أفضل الجزاء ، وعطائى لكم أجزل العطاء ، وبذلى لكم أفضل البذل ، وفضلى عليكم أكثر الفضل ومعاملتى لكم أوفى المعاملة ومطالبتى لكم أشد المطالبة أنا مجتنى القلوب ، وأنا علام الغيوب وأنا مراقب الحركات ، وأنا ملاحظ اللحظات ، وأنا المشرف على الخواطر ، انا العالم بمجال الفكر ، فكونوا دعاة الى ، فمن عاداكم عاديته ، ومن والاكم واليته ، ومن آذاكم أهلكته ، ومن أحسن اليكم جازيته ومن هجركم قليته .

ووصف سيدى ذو النون الاولياء مرة أخرى فقال :

عنهم تقصر الصفات ، وبهم تدفع النقمات ، وعليهم تنزل البركات ، فهم أحلى الناس منطقا ومذاقا ، وأوفى الناس عهدا ، وميثاقا ، سراج العباد ، ومنار البلاد ، مصابيح الدجى ، ومعادن الرحمة ، ومنابع

الحكمة . وقوام الأمة ، تجافت جنوبهم عن المضاجع ، فهم اقبل الناس للمعذرة ، وأصفحهم للمغفرة ، وأسمحهم بالعطية .

نظروا الى ثواب الله عز وجل بأنفس تائقة ، وعيون رامقة ، وأعمال موافقة ، فحلوا عن الدنيا مطى رحالهم ، وقطعو عنها حبال آمالهم ، لم يدع لهم خوف ربهم عز وجل من آموالهم تليدا ولا عتيدا فتراهم لم يشتهوا من الأموال كنوزها ، ولا من المطايا عزيزها ، ولا من القصور مشيدها .

ضموا ابدانهم عن المحارم ، وهربو ا بأنفسهم عن المآثم ، فسلكو من السبيل رشاده ومهدو للرشاد مهاده ، هابوا الموت وسكراته وكرباته وفجعاته ، والقبر وضيقه ، وابتدار منكر ونكير وسؤالهما ، والمقام بين يدى الله عز ذكره وتقدست اسماؤه .

وقد روت أم المؤمنين سيدتنا عائشة حديثا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم تتركز فيه الاوصاف المتقدمة وهو :

(ان موسى عليه السلام قال : يارب اخبرنى بأكرم خلقك عليك ، قال : الذى يسرع الى هواى اسراع النسر الى هواه ، والذى يكلف بعبادى الصالحين كما يكلف الصبى بالناس ، والذى يغضب اذا انتهكت محارمى غضب النمر فأن النمر اذا غضب لم يبال أقل الناس أم كثروا) .

والسيد / سالم عمر جمعة ، طيب الله ثراه، صحب سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى مده طويله ، وانتفع من صحبته ، وجد فى طريق الآخرة بصدق واخلاص وهمة قوية ، ومع سمو ثقافته الغربية ، وبسطه عيشته الرضية ، لم تلهه دنيا فانية عن آخرة باقية ، وعاش فى الدنيا فى أحسن صورة يعيشها أهل الدنيا ، ولكنه تحرى طيبات الحياه ، وتجنب الخبيثات ، واذا نظرت اليه عابدا رأيت فيه مثل السابقين بالخيرات باذن الله .

ولم أرد أن أمدح أخا لى فى الله فى تلك الصفحات ، فهو غنى عن مدحى بما أفاء الله عليه من فضل جزيل فى امر الدنيا انما أردت ان أقدم للسادة القراء صورة لمؤمن نعرفه حق المعرفة ، أعطاه الله فشكر ،

ولم يقف بماله عند المناعم الفانية ، بل قدم صالحا لنفسه ، فعطف على الفقير ، وتواضع للصغير ، واستقل فى صدقاته الكثير ، وتحلى بمكارم الاخلاق وأسهر ليله فى ذكر الله وطاعته ، وتردد مرارا على الحجاز حاجا ومتعمرا ، يعمر وقته هناك بما يحب الله ويرضى ، وما دخلت الروضة النبوية المباركة مبكرا الا وجدته قد سبقنى اليها متهجدا فى ليله ، تاليا القرآن فى نهاره ، منافسا أهل السبق فى همتهم ، شأن السادة الاشراف ، الذين اختصهم الله برحمته واصطفاهم لساحته ، وجعلهم مصابيح الهدى فى ظلمات الحياة يهتدى بهم من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا .

ولقد حدثنى صديقى المرحوم السيد / سالم عن اتصاله بشيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله مثواه ، فقال ان صديقه الصالح المبارك المرحوم الشيخ أحمد غلبون عفا الله عنه ، كان يصحب سيدى عبد السلام فى الطريقة الخليلة المباركة لصاحبها الغوث سيدى الحاج محمد ابى خليل مربى الرجال ، بالحال والمقال ، وساكن ضريحه المشرف بالزقازيق ، وكان يمدح له الشيخ عبد السلام بما حباه الله من صفات الاولياء الأصفياء ويشيد برشده وخلقه فى الدعوة والارشاد وأشار عليه بلقائه والاخذ عنه .

فوافق السيد / سالم على الإلتقاء بسيدى عبد السلام ، واجتمع به فعلا لكنه أرجأ الاخذ عنه حتى يتبين بنفسه أمره فى اجتماعات أخرى لاحقه ، لانه مع ثقته فى صديقه الشيخ غلبون رحمه الله كان يريد ان يطمئن بنفسه فى اختيار رائده ومربيه فى طريق الله ، فقبل صديقه وجة نظره وتركه لاختيار نفسه .

قال المرحوم السيد / سالم ولما ترددت على مجالس سيدى عبد السلام ٠ وبان لى فضله وكماله وخلقه ، اقدمت على الأخذ عنه فى اطمئنان وصحبته فما غاب عنى مثاله ، ولا خفيت عنى خلاله ، بل زادت صلتى به على الأيام استحكاما ، وازددت به اعجابا وغراما ، وأضاف المرحوم السيد / سالم أنه سعد بصحبته فى احدى رحلاته الى الحجاز ، فحظى فى الرحله به وبسيدى العارف الملهم سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه حظوة كبيرة لا ينسى ذكراها ، وحدثنى بكرامة جميلة كانت لسيدى الشيخ عبد السلام معه ، وذلك بان الشيخ فاجأه وهم فى الطريق الى المدينة

المنورة وقال له : يا سيد / سالم : واقع فى روعى ان اسمك الاصلى محمد ، فهل هذا صحيح قال الصديق الكريم : فعجبت من ذلك كل العجب لان اسمى الاصلى محمد ولا يعرف هذا أحد حتى من خواص أهله الأقربين .

وكم كان لسيدى الشيخ عبد السلام معنا من الكرامات الشئ الكثير ، ولو شاء الله لاطلع خواصه على بعض غيبه (ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء) فلا تعجب أيها القارئ العزيز للكرامة : ولكن اعجب لدوام الاستقامه والاشتغال بالله فى الليل والنهار ، والسفر والحضر ، والبر والبحر ، والسر والجهر، حتى ترى الولى مغايرا للناس فى احوالهم يبكى وهم يضحكون ، ويسهر وهم نائمون ، ويحذر الآخره وهم آمنون ، ويحب الناس فى الله ، ويواليهم فى الله ، وهم يتحابون فى عرض الدنيا ، ويتباغضون فيه ، فالولى من البشر جنسا ، ويمتاز عنهم نفسا ، فهو يماثلهم فى الشكل ، ويخالفهم فى القول والفعل والحال .

وقد كان سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه طرازا ممتازا فى الاولياء الذين تخرجو فى الولايه على يد شيخنا الاكبر وامانا الأجل سيدى القطب الكبير الشيخ محمد ابى خليل رفع الله فى الشيوخ والمربيين قدره ، وقد كان يعامل تلاميذه باللطف والرحمة والشفقه والكياسه ، والعطف والنصح ، الامين ، فى حنان ولين ، وسر وتمكين ، وربما قص حكايه على سمع الجميع ليتعظ باشارته التلميذ المقصود بذاته ، ويسلك السبيل القويم ، وانما استرشد سيدى الشيخ فى ذلك بسنه مولانا الرسول الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وعن سيدى الشيخ ابى خليل اخذ خلفاؤه ذلك النهج فى التربيه الصوفيه العالية ، وورثوه لتلاميذه حسبة لوجه الله الكريم ولم يسألوهم على ذلك اجرا ، وأجرهم مدخر لهم عند الله تعالى يلقونه يوم الدين .

وما أحسن ما يقول سيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

(من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا خير هذه الامة ، ابرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبية صلى الله عليه وسلم ،

ونقل دينه ، فتشبهوا باخلاقهم وطرائفهم فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة .

يابن آدم صاحب الدنيا ببدنك ، وفارقها بقلبك وهمك ، فانك موقوف على عملك فخد مما فى يديك لما ببن يديك عند الموت ، يأتيك الخير "

ويقول كذلك سيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

(لا يكون الرجل من العلم بمكان حتى لا يحسد من فوقه ، ولا يحقرمن دونه ، ولا يبتغى بالعلم ثمن) .

وكان سيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما شديد العناية بتتبع آثاره صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد روى عن موسى بن عقبة عن نافع قال : لو نظرت الى ابن عمر رضى الله عنهما اذا اتبع أثر النبى صلى الله عليه وسلم لقلت : هذا مجنون . وحدثوا عنه أيضا أنه كان فى طريق مكة يأخذ برأس راحلته يثنيها (أى عن الاسراع) ويقول لعل خفا يقع على خف – يعنى خف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأنظر رعاك الله كيف حرص الصحابة الكرام على اقتفاء آثاره صلى الله عليه وسلم فافلحوا فى محبة الله ورسوله وذلك هو الفوز العظيم وقد اعتنقوا الاسلام فاعتزوا به ، وعاشو له وحرصوا عليه ، وطبقوا أحكامه نصا وروحا حتى لقوا الله بيض الوجوه ، راضيين مرضيين .

وعن نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان يدعو على الصفا ويقول فى دعائه :

(اللهم اعصمنى بدينك وطواعيتك وطواعية رسولك ، اللهم جنبنى حدودك ، اللهم اجعلنى ممن يحبك ويحب ملائكتك ويحب رسلك ويحب عبادك الصالحين ، اللهم حببنى اليك والى ملائكتك والى رسلك والى عبادك الصالحين ، اللهم يسرنى لليسرى ، وجنبنى العسرى ، واغفر لى فى الآخرة والأولى ، واجعلنى من أئمة المتيقن ، اللهم انك قلت : (ادعونى استجب لكم) وانك لا تخلف الميعاد ، اللهم اذ هديتنى للاسلام فلا تنزعنى منه ولا تنزعه منى حتى تقبضنى وانا عليه) .

وانى ادعو لى ولكل مسلم بدعاء سيدى عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، واضيف اليه : اللهم واجز عنا شيوخنا الامجاد خير ما تجزى به الأئمة عن اتباعهم ، فقد شوقونا اليك ورغبونا فيك ، وكانوا اسوة حسنة لنا فى اقوالهم وافعالهم واحوالهم ، ورأينا فيهم صورا مثلى لاسلافنا الصالحيين ، فقربوا لنا البعيد ، ويسرو لنا العسير ، فطابت بهم اوقاتهم على بساط محبتك ، وسعدت باسرارهم أرواحنا فى مناجاتك ، فانسنا بك واستوحشنا مما سواك ، فهمنا بك ووثقنا فيك ، واعتمدنا عليك ، والفضل فى ذلك كله منك واليك ، لا مانع لما اعطيت ، ولا معطى لما منعت ، فإن اطعناك فبتيسيرك ، وان شكرناك فبتوفيقك ، زمامنا فى يديك ، قدرت أمورنا قبل ان تكون ، وأحسنت الينا حين لم يكن هنا عمل ، وقبل أن يبدأ الاجل ، فعاملنا باحسانك عند انتهائه ، فمنك فضل البداية وعلينا الثناء ما وسعنا جهدنا المحدود ، سبحانك لانحصى ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك وقد قلت وقولك الحق (والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

الاشتغال بالله تعالى

(وقد كان ما كان ، واستدار الزمان ، وظهر ماءان ، ولم يتغير الزمان ، فان فطنت الى الامر رجوت ربك ، له الشأن ، وكل يوم هو فى شأن ، فمالك والناس ، عليك برب الناس ، يبعد عنك الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس ، فلا يعتريك فى سيرك بأس ولا يأس ، ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل الناس بغير علم ، فلا تعبأ بهم ، وكن مقبلا على الله حيثما كنت)

(السر كل السر فى معاملة الله الذى يوجه القلوب الى الخير ، واذا سرت فى هذا المبدأ فلا تغيره ، فان التغير يضيع بل يهدم ما بنيته ، فاذا عدت اليه تحتاج الى وقت طويل لا عادة البناء بعد التشويش على الروح لا ختلاف المشارب) .

جاءت تلك العظات النافعة فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه المبارك المرحوم السيد / سالم جمعة ، وهى ترشدنا الى بذل المجهود فى طلب الله المعبود ، والتعليق بالخالق ، وترك الاشتغال بالخلائق ، لأن السر كل السر فى معاملة الله الذى يوجه القلوب الى الخير ، اذا أنست به سبحانه واستوحشت مما سواه ، وذلك هو أساس التربية الصوفية الحقة .

ولذلك المبدأ شواهد من الكتاب والسنة ، فقد مدح الله تعالى أهل الصفة من الصحابة الكرام فقال تعالى فى الوصاية بهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) .

ويقول الامام الصوفى الكبير سيدى محمد بن على الترمذى فى ضرورة التعلق بالله تعالى : اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره اليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

ويفصل ذلك رضى الله عنه فيقول : (بذكر الله يرطب القلب ويلين ، وبذكر الشهوات والذات يقسو القلب وييبس ، فاذا شغل القلب عن ذكر الله بذكر الشهوات كان بمنزلة شجرة ، انما رطوبتها ولينها من الماء ، فاذا منعت الماء يبست عروقها وذبلت أغصانها ، واذا منعت السقى وأصابها حر القيظ يبست الأغصان ، فاذا مددت غصنا منها انكسر ، فلا يصلح الا للقطع فيصير وقود للنار ، فكذلك القلب اذا يبس وخلا من ذكر الله فأصابته حرارة النفس ونار الشهوة ، وامتنعت الاركان من الطاعة فاذا مددتها انكسرت فلاتصلح الا أن تكون حطبا للنار ، وانما يرطب القلب بالرحمة ، وما من نور فى القلب الا ومعه رحمة من الله بقدر ذلك فهذا هو الأصل .

فالعبد ما دام فى الذكر فالرحمة دائمة عليه كالمطر ، فاذا قحط فالصدر فى ذلك الوقت كالسنة الجدباء اليابسة .

ويقول كذلك رضى الله عنه فى فضل الصلاة : (دعا الله الموحدين الى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم ، وهيأ لهم فيها أنواع العبادة لينال العبد من كل قول وفعل شيئا من عطاياه والأفعال كالأطعمة ، والأقوال كالأشربة فهى غرس الموحدين ، هيأها رب العالمين لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات ، حتى لا يبقى عليهم دنس ولا غبار) .

ويقول سيدى أبو يزيد البسطامى : (الحب لله على أربعة فنون ، فن منه وهو منته ، وفن منك وهو ودك ، وفن له وهو ذكرك له ، وفن بينكما وهو العشق) .

ولا يظن ظان أن السادة الصوفية حين ينهون عن الاشتغال بالناس يقصدون بذلك اعتزال الناس كلهم ، وعدم الاجتماع بهم وانما هم يقصدون به اجتناب أهل الغفلة الذين يصدون عن ذكر الله وعن الطاعات ،

كما يقصدون به التحذير من اغتياب الخلق ، والوقوع فى اعراضهم ، فذلك مما نهى الله عنه وحذر منه ، أما الاجتماع بأهل الصلاح ، فمحمود عندهم لأن أهل الصلاح يذكرون بالله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فيزداد الذاكر بهم خيرا كثيرا ، لأنهم أولياء الله فمن أحبهم فقد أحب الله ، وقد سأل رجل سيدى ذا النون المصرى : من أجلس ؟ فقال : (جالس من الناس من تقهرك هيبته وتخوفك فى السر والعلانية رؤيته ، ويخبرك عن نفسك بالذى هو أعلم به منك) .

ويقول سيدى ابراهيم الخواص رضى الله عنه : (دواء القلب فى خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين).

ويقول رضى الله عنه : (على قدر اعزاز المؤمن لأمر الله ، يلبسه الله من عزه ، ويقيم له العز فى قلوب المؤمنين ، وذلك قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

ويقول سيدى بلال بن سعد رضى الله عنه : أخ لك كلما لقيك ذكرك بحظك من الله خير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك دينارا ، ويقول رضى الله عنه فى روعة من الوعظ : أربع خصال جاريات عليكم من الرحمن مع ظلمكم انفسكم وخطاياكم ،أما رزقه فدار عليكم ، وأما رحمته فغير محجوبة عنكم ، وأما ستره فسابغ عليكم ، وأما عقابه فلم يعجل لكم ، ثم أنتم على ذلك لا هون تجترئون على الهكم ، أنتم تتكلمون ويوشك الله تعالى أن يتكلم وتسكتون ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسود منه الوجوه (واتقوا يوم ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) عباد الرحمن ، لو غفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل ، ولو علمتم بما تعلمون لكنتم عباد الله حقا .

ويرى السادة الصوفية أن هوى النفس هو الذى يحجب العبد عن ربه ، ويقول سيدى أبو محمد الجريرى فى ذلك : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حكم الشهوات ، محصورا فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد فلا يستلذ كلام الله ، ولا يستحليه وان كثر ترداده على لسانه لأنه تعالى يقول (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) أى حتى لا يفهمونه ولا يجدون له لذة ، لأنهم تكبروا بأحوال

النفس والخلق والدنيا ، فصرف الله عن قلوبهم فهم مخاطباته ، وأغلق عليهم سبيل فهم كتابه ، وسلبهم الانتفاع بالمواعظ ، وحبسهم فى عقولهم وآرائهم ، فلا يعرفون طريق الحق ولا يسلكون سبيلا .

أقول وقد جعل الله تعالى التأثر بكلام الله دليلا على خشيته تعالى فقال سبحانه (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد) .

ويعجب السادة الصوفية من عبد لا يجاهد نفسه فى مرضاة ربه حتى يكتفى به عما سواه ، ويقول سيدى محمد بن الفضل البلخى فى ذلك : العجب ممن يقطع الأودية والقفار والمفاوز حتى يصل الى بيته وحرمه لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل الى قلبه فان فيه آثار مولاه ؟

وقد سئل شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه أن يأتى بأبيات من الهامه الفورى فى وصف النفس على وزن البيت التالى وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
دون الذى تعلو به فى ذاتها

فكان مما قال ونقلناه عنه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
كم عالم قد زل من نزغاتها
تنأى عن الاصلاح طول حياتها
وتواصل الاقبال فى شهواتها
وقفت على الدنيار حسن بلائها
فأمالها عن هديها وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضة
وتضج أن دعيت الى حسناتها
والنفس أعدى صاحب تبلى به
قد أدخلتنا النار من رغباتها

ان أنت تنصحها تضل طريقها
وإذا تركت غرقت فى حسراتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى
كم تكثر الدعوى على قرباتها
ضحكت على جهالها فتوهموا
أن العلا والفوز فى نزواتها
فانصح لنفسك فى الأمور لعلها
قد ترزق الأنوار فى سبحاتها
ترضى تسفلها لكل نقيصة
دون الذى تعلو به فى ذاتها

ويقول السادة الصوفية : نفسك كالدابة ان ركبتها حملتك وان ركبتك قتلتك ، كما يقولون : من ملك نفسه عز ومن ملكته نفسه ذل ، ويقولون : لولا ميادين النفوس ما تفاضل المؤمنون ، ويقولون : الموفق من لا يخاف غير الله ، ولا يرجو غيرالله ، فيؤثر رضاه على هوى نفسه ، ويقولون : من علت همته على الأكوان وصل إلى مكونها ، ويقولون : من صبر على مخالفة نفسه أوصله الله الى مقام أنسه .

ويقوم التصوف فى أساسه على مخالفة هوى النفس ، وقد قال رجل للامام المرتعش : ان فلانا يمشى على الماء فقال : عندى ان من مكنه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى على الماء وفى الهواء .

ومع اجتهاد السادة الصوفية فى فعل المأمورات وترك المنهيات بجهاد لا يعرف الملل نراهم يعتمدون على فضل الله تعالى ولا يركنون الى أعمالهم ومجاهداتهم ، وفى هذا المقام يقول الامام المرتعش رضى الله عنه : من ظن أن أفعاله تنجيه من النار أو تبلغه الرضوان فقد جعل لنفسه ولفعله خطرا ، ومن اعتمد على فضل الله بلغه الله الى أقصى منازل الرضوان ، قال الله تعالى (قل بفضل وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ويعلل رضى الله عنه ذلك فيقول : السكون الى الأسباب يقطع القلوب عن الاعتماد على المسبب ، وقد سأله رجل : أى الأعمال أفضل فقال : رؤية فضل الله وأنشأ يقول :

ان المقادير اذا ساعدت

ألحقت العاجز بالحازم

وحين قال له رجل : أوصنى قال : اذهب الى من هو خير لك منى ، ودعنى الى من هو خير لى منك .

وقد وضح لنا الامام المرتعش فى أقواله المتقدمة معنى ما قاله سيدى الشيخ عبد السلام : فمالك والناس وعليك برب الناس ، لأن الخالق سبحانه أقرب اليك من خلقه ، أما الوسواس الخناس الذى أشار اليه الشيخ فى نصيحته فوسواس يحول بينك وبن ربك فيثبط همتك فى طاعته تعالى أو يجعلك ساخطا على مقدوره أو يائسا من رحمته ومغفرته ، وعلاج ذلك الوسواس انما يكون بكثرة ذكر الله تعالى ومجالسة الصالحين من أهل اليقين ، لأن مجالستهم تكسب المؤمن الثقة بالله وحسن التوكل عليه والركون اليه فلا يعترى الانسان فى سيره يأس ولا بأس كما قال سيدى الشيخ عبد السلام ، طيب الله ثراه .

لذلك نرى شيخى وسيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه راكنا الى ربه ، طامعا فى عفوه فيقول فى الهامه المشرق مخاطبا مولاه جل وعلا :

اذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى

اليه وما تثنى الذنوب عن الحب

فيارب ان زادت عيوبى فاننى

وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى

أضاء الهدى قلبى ونقى سريرتى

فلست كبعض الناس أنسب للترب

تركت الورى دونى وجئتك مفردا

فلم يك غير الله فى السمع والقلب

وطهرت فى نجواك سر جوانحى

فخلصتها من عالم البعد والحجب

رضاء الفتى بالله يشرح صدره

فلن يتأذى بالحوادث والخطب

وما لذتى الا التجائى لوجهكم

فوجهكمو دون العوالم لى قطبى

ويقول سيدى سمنون رضى الله عنه فى حبه لله وتعليقه به سبحانه :

وكان فؤادى خاليا قبل حبكم

وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح

فلما دعا قلبى هواك أجابه

فليس أراه عن فنائك يبرح

رميت ببين منك ان كنت كاذبا

وان كنت فى الدنيا بغيرك أفرح

فان شئت واصلنى وان شئت لا تصل

فلست أرى قلبى لغيرك يصلح

وقد كتب الامام الجنيد رضى الله عنه الى بعض أحبابه يقول : من أشار الى الله وسكن الى غيره ابتلاه الله تعالى وحجب ذكره عن قلبه ، وأجراه على لسانه ، فان انتبه وانقطع ممن سكن اليه كشف الله ما به من المحن والبلوى ، وان دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه وألبس لباس الطمع فتزداد مطالبته منهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم ، فتصير حياته عجزا ، وموته كمدا ، ومعاده أسفا ، ونحن نعوذ بالله من السكون الى غير الله .

أقول وقد جعل الله سبحانه التوكل على الله من علامات الايمان به تعالى فقال عز وجل (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) ويعبر السادة الصوفية عن شدة ثقتهم فى الله تعالى وتدبير أرزاقهم فيقولون : لو أن العبد سأل الله ألا يرزقه لم يستجب له ولقال له : يا جاهل أنا خالقك ولابد من أن أرزقك أبدا .

وقد سئل الامام سهل بن عبد الله عن القوت فقال : هو الحى الذى لا يموت ، فقالوا انما سألناك عن القوام ، فقال : القوام هو العلم ، قيل : سألناك عن الغذاء ، فقال ، الغذاء هو الذكر قيل سألنك عن طعمة الجسد فقال : مالك وللجسد : دع من تولاه أولا يتولاه آخرا .. اذا دخلت عليه علة فردها الصانعه أما رأيت الصنعة اذا عابت ردوها الى صانعها حتى يصلحها ؟

وكان سيدى معروف الكرخى رضى الله عنه يقول : انما أنا ضيف فى دار مولاى : ان أطعمنى أكلت متى اطعمنى وان أجاعنى صبرت حتى

يطعمنى ، ويقول سيدى بشر بن الحارث رضى الله عنه : ان العبد ليقرأ (اياك نعبد واياك نستعين) فيقول الله تعالى : كذبت ما اياى تعبد لوكنت تعبد اياى لم تؤثر هواك على رضاى ، ولو كنت بى تستعين لم تسكن الى حولك ولا قوتك ولا الى مالك ونفسك .

وينصح سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه تلميذه باستمرار الطاعة ودوام معاملة الله الذى يوجه القلوب الى الخير ويحذره من تغيير هذا المبدأ ويبين له أن التغيير يهدم ما بناه ، واعادة البناء تحتاج الى وقت طويل لاختلاف المشارب ، وسيدى الشيخ يريد الا نتردد على كثير من المرشدين خشية أن تختلف مناهج الارشاد فتتردد الروح بين هذا المشرب وذاك وتشتغل بالمفاضلة بين الشيوخ فيعوقها ذلك عن السير قدما فى طريق الحق دون التواء عن الصراط المستقيم .

و يقول الامام السهروردى فى ذلك المقام : قد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح اكثر مما ينفسد بأهل الفساد ،ووجة ذلك ان اهل الفساد يعلم فسادهم ويأخذ حذرة منهم ، واهل الصلاح يغرة صلاحهم فيميل اليهم بجنسية الصلاحية ، ثم يحصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية تحول بين المريد و بين حقيقة الصحبة لله تعالى ، ويكسب من طريقهم الفتور فى الطلب و التخلف عن بلوغ الارب فلينتبة المريد الصادق .

وانى اذكر فى هذة المناسبة ان سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنة زار مرة مريدا له فى مرضة فوقع فى قلبة انة يذكر اسما لم يلقنة له فسألة الشيخ عن الاسم الذى يذكرة فصرح له به فقال : من لقنك هذا الاسم قال فلان ، ، فقال له عد الى الاسماء التى لقنتك اياها ولا تأخذ عن غير مرشدك لأنة ادرى الناس بحالك و استعدادك فلما اطاع الشيخ برىء من مرضة ، و تعلم من تلك التجربة ألا يأخذ الا بمشرب شيخة و ارشادة .

وقد لاحظت من خلال مشاهدتى الكثيرة ان المترددين بين الشيوخ العديدين و الطرق المختلفة لا يتقدمون فى التربية الصوفية وذلك امر طبيعى لان مؤدى التردد ان ينظر لكل واحد من شيوخة نظرة النقص فلا يلتزمه وحده ولا يراة كافيا للأخذ عنة ، ومن هنا يقل بل ينعدم انتفاعة بة ، وحسبك دليلا واضحا ان ابا جهل لم ينتفع من صحبة مولانا رسول الله

صلى الله علية وسلم حين نظر اليه على انه يتيم ابى طالب ولم ير فيه اكرم الرسل على الله تعالى ، صلى الله علية و سلم ، بينما اسعدت العناية الربانية سيدنا سلمان الفارسى بصحبتة صلى الله علية وسلم حتى الحقة بآل بيته مع انة فارسى وابو جهل قرشى ، مما يفيد ان صلة القلوب اكبر أثرا فى التربية الروحية من قرابة اللحم و الدم .

ولقد اضلت الظواهر ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء و الطين ولم ير فيه المخلوق الذى اراد الله تكريمة فأمر الملائكة ان تسجد له ، فوقع ابليس فى المعصية عن اصرار وعناد وقال (انا خير منة خلقتنى من نار و خلقتة من طين) فحقت علية لعنة الله الى يوم الدين ، ونعوذ بالله منه .

ولولا ان للشيخ مدخلا فى تربية المريد فى جنب الله ما جوزوا ان يتخذه المريد رفيقا فى طريق الله ، لان من مبادئ الصوفية قولهم : ان استطعت ألا يسبقك احد الى مولاك فافعل ، ولا تؤثر على مولاك شيئا ، و الشيخ يد الله و عونة للمريد الصادق ، لذلك يقول عز و جل (و جعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا بآياتنا يوقنون) كما يقول سبحانة (وتعاونوا على البر و التقوى) و الشيخ انما يعطى مريدة ثمرة تجاربة الطويلة الشاقة حسبة لوجة الله لا يسألة عليها اجرا و لذلك قالوا ان المريد يبدأ حيث انتهى شيخة ، و حسبه هذه الغنيمة .

و لهذا يجب ان يعتنى المريد باختيار الشيخ الذى يأخذ عنه ، لأنه يسلم للشيخ روحه وهى اعز ما يملك ، وإذا كان المرء يدقق فاختيار اطباء جسده و يسأل عنهم قبل ان يأتيهم للتداوى فأولى به ان يدقق فى اختيار طبيب الروح و يسأل الله العون فى الاستدلال عليه ، ويسترشد فى اختياره باهل الرشد و الصلاح و التجربة الذين يرجى منهم حسن اختيار شيوخهم ، ومن اقوى الأدلة على الشيخ المربى : ظهور الصلاح و البركة فى اتباعه ، كما يجب ان يتوافر فيه علم صحيح و ذوق صريح و همة عالية و حالة مرضية و بصيرة نافذة .

و يقول سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه : و شيخك هو الذى أمات نفسك قبل ان تموت و جال بك فى عالم الملكوت ، و شيخك هوالذى اخذ منك و كشف عنك ، و شيخك هو الذى حمل عنك المشقات ، و أنزلك منازل القربات ، وشيخك هو الذى دلك على حالك لا من اخذ من مالك .

و قد قص الله علينا القصة الرائعة التى كانت بين سيدنا موسى علية السلام و بين سيدنا الخضر عليه السلام فى سورة الكهف فأرانا كيف حرص كليم الله و صاحب التوراة على ان يصحب عبدا من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما و قال له فى ادب رفيع (هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك أمرا . قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيئ حتى أحد ث لك منة ذكرا) و قد بينت القصة بعد ذلك أمورا خفيت حكمتها الشرعية على سيدنا موسى علية السلام فاعترض عليها ثم بين له سيدنا الخضر عليه السلام الوجه الشرعى فى كل أمر منها ، فأيقن عيانا ان الخضر عليه السلام على علم من علم الله لا يعلمه موسى عليه السلام وسبحان من يختص برحمته من يشاء بما شاء و كما شاء .

وكفانا عظة ما كان من سيدنا موسى عليه السلام فى بحثه عن العلماء الربانيين الصادقين ، فقد سافر فى طلبهم و الانتفاع بعلمهم سفرا طويلا لقى منه نصبا و ذلك من عزم الأمور ،فجزى الله عنا مشايخنا خيرا كثيرا لقاء توجيههم و ارشادهم (ومن يعتصم بالله فقد هدى صراط مستقيم) .

التفويض لله تعالى

(لك الله ولأهل بيتك ، وحفظنا وأياكم جميعا من ماديات هذا الزمن وفى ظنى أن ينتظر الانسان حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا وعندما يتبين الامر ، فيسير الانسان على قدر الله حيثما يوحيه فى صدور الناس .

أفعاله محكمة وقل من يفهمها
يفعل ما يشاؤه لحكمة يعلمها

جاءت النصيحة المتقدمة فى رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه المرحوم الصديق السيد / سالم جمعه ، وهو يرشده فيها الى التأنى والبصر وانتظار الفرج ، واستلهام الله سبحانه ، والعمل بما يقذفه الله فى قلبه فى أوانه ، مع الوثوق فى حكمة الحكيم العليم فى كل ما يجرى به قضاؤه ، وان خفيت الحكمة على أكثر الناس ، أو دقت على أفهامهم .

وتلك النصيحة الغالية تعلمنا الركون الى الله تعالى فى الشدة والرخاء فالقضاء قضاؤه ، والحكم حكمه ، ولا يقع فى ملكه الا ما شاء ، لانه وحده (فعال لما يريد) ، ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

متى اعطاك اشهدك بره : ومتى منعك اشهدك قهره فهو فى كل ذلك متعرف اليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك .

كذلك يقول رضى الله عنه فى شكر نعمة الله :

من لم يشكر النعم تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها ويضيف رضى الله عنه فى شرحه فيقول :

وقد ضمن الله المزيد للشاكرين وما استثنى فقال عز من قائل (لئن شكرتم لأزيدنكم) فاذا كان ضمن لهم الزيادة على ما اعطاهم فكيف

لا يديم عليهم ما كان منحهم أولا ، الا ان من أحب بقاء شىء قيده بعقاله خيفة زواله ، فقيدوا نعم الله فيكم بوجود الشكر .

ويقول السادة الصوفية ان شكر النعمة انما يكون باستعمالها فيما خلقه الله له ، فان عصى العبد ربه بنعمة أنعمها عليه فقد بدل نعمة الله كفرا ، وشتان بين شاكر للنعمة وكافر بها ، ويقول سيدى ابن عطاء الله فى حكمه : لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ، فان ذلك مما يحط من وجود قدرك .

وكما ينصحنا السادة الصوفية بالشكر فى الرخاء فانهم كذلك ينصحوننا بالصبر عند البلاء كما أمرنا كتاب الله ، وكما أرشدتنا سنة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرينا سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه كيف يصبر السادة على البلاء الصبر الجميل وهو الذى لا شكوى فيه فيقول :

(انما يعينهم على حمل الاقدار ورود الانوار ، وان شئت قلت وانما يعينهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره ، وإن شئت قلت وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام ، وان شئت قلت وانما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه ، وان شئت قلت وانما يصبرهم على ما جرى علمهم بأنه يرى ، وان شئت قلت وانما يصبرهم على القضا علمهم بأن الصبر يورث الرضا ، وان شئت قلت انما يصبرهم على الاقدار كشف الحجب والاستار ، وان شئت قلت وانما يقويهم على أثقال التكليف ورود أسرار التصريف ، وان شئت قلت انما يصبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وابراره) .

(فهذه عشرة أسباب توجب صبر العبد ، وثبوته لاحكام سيده وقوته عند ورودها ، وهو سبحانه وتعالى المعطى لكل ذلك بفضله ، والمال بذلك على ذوى العناية من أهله) .

ولعل ما قال سيدى ابن عطاء الله فيه الشرح الكافى لما أجمله سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى ، والد شيخى وسيدى

عبد السلام الحلوانى ، فى البيتين الواردين فى صدر المقال ، فانهما له رضى الله عنه وقد علق عليهما فى ديوان شعره فقال أوسع الله له فى رضوانه :
ما فرحت بشىء من نظمى قط فرحى بهذين البيتين ، وأرجو أن ينفعانى غدا ان شاء الله تعالى ، وانى أكررهما فى النازلة تنزل بى فينكشف عنى غمها .
ويقول القطب الكبير سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه فى التفويض لله تعالى والرضا بما يجرى به قضاؤه :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى
ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى
أحاط بى علمه من قبل تصويرى

ويقول سيدى حاتم الاصم رضى الله عنه : عجبت ممن يعمل ويقول انى أعملها ابتغاء مرضاة الله ، ثم تراه أبدا ساخطا على الله ، رادا لحكمه أتريد أن ترضيه ولست براض عنه ، كيف يرضى عنك وانت لم ترض عنه .
ويحذرنا رضى الله عنه من دسائس الشيطان التى تضيق الصدور وتبعث الهموم فيقول : ما من صباح الا والشيطان يقول لى : ما تأكل ؟ ما تلبس ؟ أين تسكن ؟ فاقول : آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن القبر . وهو بذلك يرشدنا الى أن الدنيا أهون من أن تكون موضع الاهتمام ، فان رزق الانسان دبره الله بقدرته واحسانه قبل أن يخرج الانسان الى هذا الوجود ، ولذلك يقول السادة الصوفية فى وثوقهم فى رزق الله (كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا " بفتح الباء المشددة " غير مدبر " بكسر الباء المشددة " مرزوقا من حيث لا تحتسب) .
أما السعى على الرزق فواجب عند السادة الصوفية لان التكسب من سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لاصحابه الاعلام الكرام وهم الصفوة فى هذه الأمة ، زراعة وتجارة لكنهم لم تشغلهم دنياهم عن أخراهم بل سعوا للآخرة سعيها ، فتمت رجولتهم فى الدنيا

والدين ولذلك نزل فيهم قوله تعالى الخالد الكريم (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) .

ويقول سيدى ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه : عليك بعمل الابطال : الكسب من الحلال والنفقة على العيال .

ويفرق السادة الصوفية بين المؤمن والمنافق فى التصرف فى الاموال فيقولون : المنافق يأخذ من الدنيا بالحرص ، ويمنع بالشك ، وينفق بالرياء ، والمؤمن يأخذ بالخوف ، ويمسك بالسنة ، وينفق لله خالصا فى الطاعة .

وهم كذلك يقولون : الواثق من رزقه من لا يفرح بالغنى ، ولا يهتم بالفقر : ولا يبالى أصبح فى عسر أو يسر ، كما يقولون : من اصبح وهو مستقيم فى أربعة اشياء ، فهو يتقلب فى رضا لله : الثقة بالله ، ثم التوكل ، ثم الاخلاص ، ثم المعرفة ، والاشياء كلها تتم بالمعرفة .

والسادة الصوفية مع سعيهم فى كسب العيش تعففا فان وسع الله عليهم الارزاق بذلوا الاموال طيبة بها نفوسهم فى مرضاته سبحانه ، ولا يقفون عند الزكاة المفروضة كما يفعل عوام المؤمنين ، بل يتجاوزون الزكاة كثيرا ، فربما أعطوا فى الزكاة المئات وأنفقوا فى صدقات النفل الالاف ، لعلمهم ان تلك النفقة تبقى لهم عند الله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

وحين يسعون فى كسب عيشهم يتحرون فى اكتسابه طرق الحلال ، ليقينهم أن الرزق مقدور ومقسوم ، وأن ما كان من رزق العبد يأتيه على ضعفه ، وما ليس له فلن يدركه بقوته ، وقد روى أبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة الحديث الشريف (ان روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاجملوا فى الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء شىء من الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فان الله تعالى لا ينال ما عنده الا بطاعته) .

و الزهد عند السادة الصوفية ليس هو فقر الجيب بل هو خروج حب الدنيا من القلب ، فقد يكون الفقير مشغولا بحب الدنيا مع فقره وقد يكون الغنى طارحا الدنيا من قلبه وهى فى يده ، كما فعل الخلفاء الراشدوان ، ومن حكم السادة الصوفية : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه ، وهم كذلك يقولون : اذا حدثتك نفسك بترك الدنيا عند ادبارها فهو خدعة ، واذا حدثتك بتركها عند اقبالها فذاك .

ويحكى السادة الصوفية فى تهوين شأن الدنيا عندهم أن سيدى احمد بن خضرويه استقرض من رجل مائة ألف درهم ، فقال له الرجل أليس أنتم الزهاد فى الدنيا ؟ ما تصنع بهذه الدراهم قال : أشترى بها لقمة فاضعها فى فم مؤمن ولا أجترىء أن أسأل ثوابا من الله تعالى قال : ولم قال : لان الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وما مائة ألف درهم فى الدنيا من جناح بعوضة ، لو أخذتها فطلبت بها شيئا ما الذى تعطى بها ؟ والدنيا كلها لها هذا القدر ؟ ولذلك ترى السادة الصوفية يولون الآخرة كل اهتمامهم فينظرون الى آجل الدنيا حيث ينظر الناس الى عاجلها (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) ولذلك ينصحون المؤمن فيقولون له : لا تغتم الا من شىء يضرك غدا ، ولا تفرح الا بشىء يسرك غدا .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام : فسير الانسان على قدر الله حيثما يوحيه فى صدور الناس ، فانه يقصد بالوحى هنا الالهام الذى يقذفه الله فى قلوب المخلصين الصادقين من عباده حين يفوضون أمورهم اليه ويسألونه ان يرضيهم بما يختاره لهم وفق ما قضى وقدر والله تعالى يعلم انبياءه الكرام وحيا ويعلم أولياءه الهاما .

والقرآن الكريم أرانا صورا من صور ذلك التفويض ليكون لنا منها العبرة والاعتبار ، فقص علينا مثلا ما كان من أم موسى حين توكلت على ربها فى حفظ رضيعها من عدوه فرعون ، فألهمها سبحانه أن تجعله فى التابوت وتقذف به فى اليم وتطمئن عليه وبشرها الهاما أنه سيرده اليها ، كما بشرها أنه سيجعله من المرسلين ، فنفذت ما ألهمها الله به ، وألقته فى اليم مطمئنة الى فضل الله تعالى وصدق وعده ،

وربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين ، فرده تعالى اليها كى تقر عينها ولتعلم ان وعد الله حق وألق الله عليه محبة منه وجعله من المرسلين أولى العزم فتمت نعمته عليه وعلى أمه ، ولما هام عليه السلام فى محبة ربه سأله أن يتجلى عليه لينظر اليه ، فمنعه الله رؤياه ، لا بخلا ولكن رحمة به ، وكان من صعقته حين اندك الجبل ما كان ، كما حكاه الله تعالى فى سورة الاعراف (فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) .

وهو درس قيم يعلمنا الله به القناعة بما قسم الله تعالى وأعطى وفى الحديث الشريف : (القناعة كنز لا يفنى) ، وقال كثير من أهل التفسير فى معنى قوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) الحياة الطيبة فى الدنيا هى القناعة .

ويعرف السادة الصوفية القناعة بانها الاكتفاء بالموجود وزوال الطمع فيما ليس بحاصل ، وهم يقولون : من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة ، بمعنى أخذ ما قسمه الله تعالى من الرزق بنفس راضية قانعة غير متبرمة أو ساخطة ، كما يقولون : القانع غنى وان كان جائعا .

ولذلك ترى السادة الصوفية يفسرون قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فيقولون ان الرجس هو البخل والطمع ، والتطهير هو السخاء والايثار وذلك غير ما يقول به المفسرون من أن الآية استعارت الرجس للمعاصى واستعارت الطهارة للطاعات ، والتوفيق بين التفسيرين ممكن فان البخل والطمع من المعاصى ، والسخاء والايثار من الطاعات .

ويحكى السادة الصوفية ان رجلا جاء الى الامام الجنيد رضى عنه ووضع بين يديه خمسمائة دينار وقال للامام فرقها على هؤلاء (يشير الى تلاميذه الفقراء) فقال له الامام : ألك غيرها ، قال نعم لى دنانير كثيرة ، فقال : أتريد غير ما تملك ، قال : نعم ، فقال له الجنيد : خذها فانك أحوج اليها منا فردها اليه الامام ولم يقبلها منه .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام : وفى ظنى ان ينتظر الانسان حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، فانه رضى الله عنه يعلمنا به التأنى والروية وعدم الاندفاع فى تصرفتنا ، انتظارا لما يشرح الله له الصدر ، فيتصرف حيثما يوجهه الالهام القلبى فان قلوب الاتقياء الاصفياء المتوكلين على الله : والمفوضين أمورهم اليه ، تصدق فى الفتوى وتبين الرشد من الغنى ، ولا غرابة فى هذا التوجيه ، فقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحابى : (استفت قلبك) كما قال له : (البر ما اطمأنت اليه النفس) .

وحين خطب سيدنا أبو بكر الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته الطاهرة الزهراء قال له صلى الله عليه وسلم انى انتظر بها القضاء ، وخطبها من بعده سيدنا عمر فقال انها صغيرة ، ثم جاء صلى الله عليه وسلم الوحى بان يزوجها من امامنا على فتم ذلك وأخرج الله منهما ومن ذريتهما الكثير الطيب المبارك بدعوته صلى الله عليه وسلم .

والاتقياء يرضون بحكم القضاء ، وعلى أى صورة ، فان جرى بالرخاء شكروا ، وان كانت الأخرى صبروا ، وما أروع ما يقول السادة الصوفية فى حكمهم : الشاكر مع المزيد لانه فى شهود النعمة (لئن شكرتم لازيدنكم) والصابر مع الله تعالى لانه بشهود المبتلى (ان الله مع الصابرين) .

ويقول بعض حكماء الصوفية :

اذا أعطى فقد أرضى ولكن
اذا سلب الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا
وأحمد عند منقلب ايابا
أنعمته التى أهدت ثناء
أم الاخرى التى أهدت ثوابا

وسادتنا آل البيت شاكرون صابرون كما رأيناهم فى الناحيتين فى تاريخهم الحافل بالمفاخر ، ومع ذلك فانهم من كمالهم يتهمون أنفسهم بأنهم لم يبلغوا ما أملوا من الشكر لانعم الله والصبر على بلائه ، حتى

لقد التزم الامام الحسين السبط رضى الله عنه الحجر الاسود وقال وهو يناجى ربه : الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا وابتليتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أنت أدمت الشدة بترك الصبر ، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم .

أقول ومثل هذه المناجاة لا تكون من غير سادتى آل البيت الامجاد : فان فصاحتهم تغرف من البحر وتفلق الصخر ، ولا غرابه فى ذلك فمن بينهم خرج العلم وعنهم يأخذ الناس الورع ، وكيف لا وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله .

وهم أئمة الصابرين على البلاء فكم حملوا من صنوف البلاء ما تأباه الجبال الشم ، وقد ابتلوا فى هذه الدنيا على قدر دينهم ويقينهم فما ضجروا وما قنطوا من رحمة الله ، ويقول امامنا الاكبر على بن أبى طالب رضى الله عنه : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، كما يقول كرم الله وجهه : الصبر مطية لا تكبو .

ويقول السادة الصوفية : فاز الصابرون بعز الدارين ، لانهم نالوا من الله معيته وقالوا فى معنى قوله تعالى (اصبروا وصابروا ورابطوا) الصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة ، وقالوا اصبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالى ، وصابروا بقلوبكم على البلوى فى الله ورابطوا بأسراركم إلى الشوق الى الله ، وقالوا : اصبروا فى الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله ، وقالوا : الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر فى الله بلاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء .

ويقول السادة الصوفية ان اظهار البلاء على غير وجه الشكوى لا ينافى الصبر ، قال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) مع ما أخبر عنه تعالى أنه قال (أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) .

وأخيرا اختم بما بدأ به سيدى الشيخ عبارته فاقول حفظنا الله من ماديات هذا الزمان ، وجعلنا من أهل التقوى الذين رأوا الغنى الحق فى اليقين به سبحانه ، فوثقوا فيه ، واطمأنوا به وفوضوا أمورهم

اليه ، واستحسنوا أفعاله وان خالفت هوى النفوس ، فهانت عليهم المصائب ، وقدروا للمنعم فضله فى نعمه الظاهرة والباطنة ، فشكروها ولم يكفروها ، فجمعوا بين الصبر الجميل والشكر الجزيل ، ومن جمع بين الصبر والشكر فقد جمع بين أجر الصابرين وسعادة الشاكرين ، وفوض الله فيما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ، وصار بهذا كله على قدم مولانا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذى كان يقول عند النوم :

(اللهم انى أسلمت نفسى اليك والجأت ظهرى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت) .

اللهم اجز عنا نبينا خير ما تجزى به نبيا عن أمته ورسولا عن قومه وآته الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم مقام محمودا الذى وعدته انك لا تخلف الميعاد .

الركون إلى الله تعالى

(روحى سبحت فى معرفة الحق ، فنظرت ماذا فى السموات والأرض ، فذكرت فضله ، وشكرته على هدايته ، فوقفت على الحدود ، وعلمت أنه هو القاضى وهو المدبر ، فركنت اليه وقلت : قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

جاءت تلك الكلمات النافعة فى رسالة بعث بها سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه إلى تلميذه الصالح المبارك المرحوم السيد / سالم جمعه وهى تدلنا على فضل التفكر فى خلق السموات والارض الذى يكشف لنا عن آيات الله الدالة على وجوده وقدرته ووحدانيته ، فيقف المؤمن منه موقف المخلوق من خالقه ، والمربوب من ربه ، والمرزوق من رازقه ، والفقير من الغنى عنه ، والمملوك من المالك ، والعابد من المعبود ، والحادث من القديم ، والميت من الحى الذى لا يموت .

ويقول سيدى أحمد الانطاكى رضى الله عنه : أنفع العقل ما عرفك نعم الله تعالى عليك ، وأعانك على شكرها ، وقام بخلاف الهوى ، وقد جعل لك الله سبحانه وتعالى التفكر فى خلق السموات والارض من خصائص العقلاء فقال تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قيام وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) فكان ذكر الله تعالى مدخلهم الى الفكر ، والفكر مدخلهم الى قوة اليقين بالله ، وكانت قوة اليقين مدخلهم الى الوقوف على حدوده سبحانه أملا فى عفوه وغفرانه وخوفا من بطشه وسلطانه ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا .

وقد وصل الانسان فى زماننا بتقدمه العلمى الى القمر ووطئت أقدام البشر فعلا سطح القمر لكن هل ازداد الانسان بتجربته هذه ايمانا بالله وثقة فيه واعتمادا عليه وتوحيدا لـه : لا أظن ذلك وانما ازداد اعتداد وغرورا بعلم الانسان وقدرته وسيطرته على الكون وبسبق دولته وتفوقها على غيرها من الدول ، ولا نعجب نحن المسلمين من ذلك الغرور لانه سبحانه وتعالى نبهنا اليه فى كتابه المبين فقال تعالى ، (انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذ أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون) .

وصدق السادة الصوفية حين يقولون ان مفاوز الدنيا تقطع بالاقدام ولكن مفاوز الاخرة تقطع بالقلوب ، فقد وصلوا الى القمر باقدامهم ولكن قلوبهم لم تتجه الى الآخرة اتجاه المفكرين من اولى الالباب فى خلق السموات والارض ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولئن باهى أهل الدنيا بالوصول الى القمر فان اهل الاخرة يباهون بالوصول الى خالق سبحانه ، والوصول الى المكون اعظم أثرا وأبقى من الوصول للأكوان ، وأين وصول يفنى بفناء الانسان من وصول يبقى ببقاء الله : اللهم أدم علينا نعمة توحيدك والايمان بك فانك تغنى عن غيرك ، وغيرك لا يغنى عنك شيئا .

واذا آمن الانسان بربه ايمانا يباشر قلبه علم يقينا انه لا حركة ولا سكون الا بقضائه وقدره فسكن للاقدار ارضاء لمقدرها ، ورضى بالقضاء اطمئنانا الى عدالة القاضى ، فشكر فى الرخاء ، وصبر فى البلاء ، وقال ما ردده سيدى الشيخ عبد السلام من كلام الله تعالى الذى يوجهنا الى الرضا والتسليم فى قوله تعالى (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وذلك شأن الصادقين من عباد الرحمن .

ويقول الساة الصوفية فى أهمية الصدق مع الله : لا يستغنى حال من الأحوال عن الصدق مستغنى عن الأحوال كلها ، ولو صدق العبد فيما بينه وبين الله حقيقة الصدق لاطلع على خزائن من خزائن الغيب ولكان آمنا فى السموات والارض .

ومن روائع السادة الصوفية انهم يقولون ان الله تعالى دعا الصابرين من المؤمنين على المعاوضة فقال تعالى (انما يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب) بينما دعا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصبر مع المرقبة فقال تعالى : (واصبر وما صبرك الا بالله) لانه صلى الله عليه وسلم أجل عند ربه من ان يطالبه بمعاملة تقضى عليها معاوضة كما قال له (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) أى انما هو حكم الله الذى جرى عليك لا حكم غيره وانت محاط على الدوام بعنايته سبحانه ، وكذلك أدبه فى الحرب فقال تعالى (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) فلما أدبه بذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم بك أصول وبك أجول ، وبك أقاتل ، وبك أحاول .

ولهذا يوجه السادة الصوفية تلاميذهم الى الاعتماد على الله فى جميع أحوالهم ، والى شكره سبحانه والرضا بقضائه ، حتى تتحقق عبودية المريد لربه ومما كتبه سيدى أبو سعيد بن الاعرابى الى أحد المريدين قوله :

كلأك الله كلاءة الوليد المرحوم ، وحفظك حفظ الولى المعصوم ، ووهب لك معرفة ما أنعم به عليك ، واستخرج منك ما جبلك عليه ، وحجبك عن نفسك القاطعة دونه ، وكفاك عوائقها وبوائقها ورؤية عملك ، واثر سعيك ، وتزكية نفسك ، واعتقك من رقها ، وكفاك عوارض تحيرها ، وفضول تكلفها ، واستخلصك لنفسه منها ، ليحق فيك العبودية ، فيزكو عملك وان خف ، وينمو سعيك وان قل ، وتطيب حياتك وان مت ، حتى يوصلك بالحياة التى لا موت فيها ، والبقاء الذى لا فناء بعده ، وتولى أمرك بالحسنى فى عواقبها ، كما كفاك التحير فى أوائلها ، انه ولى التمام لما ابتدأه .

ويقول السادة الصوفية ان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال متحدثا بنعمة ربه عليه : (انا سيد ولد آدم ولا فخر) ويفسرون قوله صلى الله عليه وسلم : (ولا فخر) فيقولون انما قصد صلى الله عليه وسلم ان يقول : (ان هذا عطاء الله وانا لا افتخر بالعطاء لان فخرى بالمعطى جل جلاله لا بالعطاء) .

ويقول أمامنا على بن أبى طالب رضى الله عنه : الخير كله مجموع فى أربعة : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل نطق لا يكون فى ذكر الله تعالى فهو لغو ، وكل صمت لا يكون فى فكر فهو سهو ، وكل نظر لايكون فى عبرة فهو غفلة ، وكل حركة لا يكون فى تعبد فهى فترة ، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة ، وحركته تعبدا ، ويسلم الناس من لسانه ويده .

ويقول امامنا عثمان بن عفان رضى الله عنه : وجدت الخير مجموعا فى أربعة : التحبب الى الله تعالى بالنوافل والثانى الصبر على أحكام الله تعالى ، والثالث الرضا بتقدير الله عز وجل والرابع الحياء من نظر الله عز وجل .

أما معرفة الحق سبحانه التى سبحت فيها روح شيخنا رضى الله عنه فقد عرفها السادة الصوفية فقالوا : حقيقة المعرفة المحبة له بالقلب والذكر له بالسان وقطع الهمة عن كل شىء سواء ، ولذلك تراهم يحذروننا من الغفلة وآثارها فيقول : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة ما ظهرت بك الشهوة .

وقد سئل سيدى أحمد بن خضرويه رضى الله عنه : أى الاعمال أفضل ؟ فقال رعاية السر عن الالتفات الى شىء سوى الله تعالى ، ويقول سيدى يحى بن معاذ رضى الله عنه : ثلاث خصال من صفة الاولياء : الثقة بالله فى كل شىء ، والغنى به عن كل شىء ، والرجوع اليه فى كل شىء وقد سئل رضى الله عنه : اخبرنا عن الله ما هو ؟ قال : اله واحد ، قيل : كيف هو ؟ قال : ملك قادر ، قيل : أين هو ؟ قال : بالمرصاد ، قيل : ليس عن هذا نسألك : قال فذاك الذى تسألوا عنه صفة المخلوق ، أما صفة الخالق فما أخبرتكم به .

ويقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل نور الله ضريحه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

اذا كنت تهوى الله نلت مكانة

وان كنت تهوى الناس نلت هوانا

ومن يذكر الرحمن بالقلب صادقا
علا فوق اعناق الملوك مكانا
ونحن قلوب طهر الله أصلها
ورب السما بالمكرمات كسانا
ولم نتكلم انما فاض حبنا
شهودا فأرسلنا العلوم بيانا
مددنا الايادى للمهيمن ذلة
فجاد علينا واستجاب ندانا
خليلى ان الحب يقتل أهله
وما عز من فى الحب لا يتفانى
الا أيها اللاحى تجرع كؤوسنا
لتصبح منا ان سقيت سقانا
تجلت لنا الانوار من عالم البقا
فهامت بنا أرواحنا ونهانا
فنينا بها حبا فطابت حياتنا
رأينا بها عند الفناء بقانا

ومعرفة الله عند السادة الصوفية على ثلاثة أوجه : معرفة اقرار ، ومعرفة حقيقة ، ومعرفة مشاهدة وفى معرفة المشاهدة يندرج الفهم والعلم والعبارة والكلام وذلك ما يفسر لك قول شيخنا العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

ولم نتكلم انما فاض حبنا
شهودا فأرسلنا العلوم بيانا

ولم يكن كلامه مثل كلام غيره ، وانما امتاز كلامه بالذوق الذى يتحلى به أهل الشهود الذين اختصهم الله برحمته واجتباهم لساحة قدسه وقال فيهم (يحبهم ويحبونه) كما قال فيهم (والذين آمنوا أشد حبا لله) .

ومحبة الله عند السادة الصوفية على ثلاث أحوال :

الأول . محبة العامة ، وتتولد من احسان الله تعالى اليهم وعطفه عليهم لأن النفوس جبلت على حب من احسن اليها ، وعلامة هذه المحبة صفاء الود مع دوام الذكر لان من احب شيئا أكثر من ذكره .

الثانى – حب الصادقين ويتولد من نظر القلب الى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته ، وقد سئل الامام ابو سعيد الخراز عن هذه المحبة فقال : طوبى لمن شرب كأسا من محبته ، وذاق نعيما من مناجاة الجليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه ، فملأ قلبه حبا ، وطار بالله طربا ، وهام اليه اشتياقا ، فياله من وامق متصل بربه ، كلف دنف ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه .

وفى هذه المحبة يقول سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

اذا قيل لى أطلب قلت ربى مطلبى
وان قيل لى أشرب قلت أنواره كأسى
سلونى عن العشاق قد ذقت حبهم
وانى لهم رأس اذا كان من رأس
وان حبال الوجد تربط مهجتى
وقلبى بحب الله يعبق كالورس
حسبت الهوى سهلا فخضت عبابه
فطورا به أطفو وطورا به غطسى
الى ان اتتنى من لدنه عناية
وصلت بها بر السلامة والانس

الثالث– محبة الصديقين والعارفين ، وتتولد من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة ، فكذلك أحبوه بلا علة يقول فى تلك المحبة سيدى الشيخ على عقل قدس الله سره :

طول ليلى فى محبتكم
أتحلى من جلالتكم
قد غرقنا فى مودتكم
وانتظمنا فى حمايتكم
فى جلال صيب هطل
يا حبيبي أنت محتسبى
أنت مقصودى ومطلبى

أنت يا رب السما اربى

أنت يا خلاق منتسبى

أنت لى ياذا الجلال ولى

فاذا عرف المؤمن ربه بمذاقه أحبه محبة العارفين ومن أحبه محبة العارفين توكل عليه فى أموره كلها ، وقد قال تعالى (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فكان توكل المتوكلين أخص من توكل المؤمنين ، وقد رد سبحانه المتوكلين اليه فقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه ، وأمر أحب أحبابه صلى الله عليه وسلم بالتوكل عليه فقال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) كما قال له (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم) .

وقد سئل الامام أبو تراب النخشبى رضى الله عنه عن معنى التوكل فقال هو طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى الكفاية ، فان أعطى شكر ، وان منع صبر راضيا موافقا للقدر ، وقد قال الامام الجنيد رضى الله عنه ان التوكل اعتماد القلب على الله تعالى .

ويقول السادة الصوفية ان التوكل يقتضى الرضا ، وهو مقام شريف نوه بفضله القرآن الكريم وقد قال تعالى (ورضوان من الله أكبر) فبين سبحانه أن رضا الله عن عباده أقدم وأكرم من رضاهم عنه .

وعرف السادة الصوفية الرضا بأنه سكون القلب تحت حكم الله عز وجل ، وعللوا هذ السكون بان القلب ينظر الى قديم اختيار الله تعالى فيعلم ان ربه اختار له الافضل فيرضى به ويترك السخط .

ومن السادة الصوفية من عمل فى اسقاط الجزع حتى يكون قلبه مستويا لله عز وجل فيما يجرى عليه من حكم المكاره والشدائد والمنع والعطاء .

ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عن الله عز وجل برؤية رضا الله عنه لقوله تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) فلا تثبت لنفسه قدم فى الرضا وان استوى عنده الشدة والرخاء والمنع والعطاء .

وفى ذلك يقول قائلهم :

اذا أعطى فقد رضى ولكن
اذا سلب الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكراً
وأحمد عند منقلب ايابا
أنعمته التى أهدت ثناء
أم الأخرى التى أهدت ثوابا

وهو يشير فى الشطر الأخير الى ثواب الصبر على البلايا حين يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ويحكى سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه أنه دخل مرة على مريض يعوده فبينما كان يكلمه أن أنه ، قال ذو النون فقلت له : ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه ، فقال : ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه .

وحين يتكلم السادة الصوفية فى الصبر يقولون ان الصبر على ثلاثة أوجه : متصبر ، وصابر ، وصبار ، فالمتصبر من صبر فى الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز ، والصابر من يصبر فى الله ولله ولا يجزع ، وأما الصبار ذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله فهذا لو وقع عليه البلايا لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخلقة .

وكان الامام الشبلى رضى الله عنه اذا سئل عن الصبر يتمثل بهذه الابيات :

عبرات خططن فى الخد سطرا
قد قرأها من ليس يحسن يقرا

ان صوت المحب من ألم الشو
ق وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الصـ
ـبر فصاح المحب بالصبر صبرا

ويقول السادة الصوفية أن شكوى الضر لله تعالى لا تخرج المحب عن صفة الصبر ، ويستدلون على ذلك بأن سيدنا أيوب عليه السلام شكا ضره لربه حين قال : (انى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين) ولم تخرجه هذه الشكوى من صبره واطمئنان قلبه الى حكم القضاء فمدحه الله تعالى وقال فى شأنه (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) وأنت ترى من ذلك ان المدار كله سكون القلب لمجارى الأقدار ، ولذلك يقول السادة الصوفية فى حكمهم : الرضا بمواقع القدر نعم الوسلية الى درجات المعرفة ، وفى هذا المقام يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

قلبى اصبر لا تكن تشكو
ونفسى لا تئنى
لم ألاحظ غير وجه الله
خل الخلق عنى
ان سألت الناس أحرم
ان سألت الله يغنى
ان سألت الناس أبعد
ان سألت الله يدنى
ان آيات الوجدان روضى
بالمعانى عرفتنى
آية الوجدان روضى
وشهود الله فنى

وكذلك هم يقولون ان الدعاء لا ينافى التسليم والتفويض ، وقد سئل بعض السادة الصوفية عن الدعاء وما وجهه لاهل التسليم والتفويض فقال : يدعو الله ولهذا الدعاء وجهان : احدهما يزين جوارحه الظاهرة ، بالدعاء لان الدعاء نوع من الخدمة ، والثانى أنه يدعو ائتمار بأمر الله الذى أمر بالدعاء .

ومن دعاء الامام الجنيد رضى الله عنه :

الهى وسيدى ومولاى ، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك ؟ ومن أوسع منك رحمة لمن اتقاك وقصدك ، ومن أسرع منك عطفا ورأفة لمن أرادك وأقبل على طاعتك ؟ فكلهم فى نعمائك يتقلبون ، ولك بفضلك عليهم يعبدون ، وفنيت حظوظهم من دونك واجتمعت لك وحدك ، فهم اليك فى الليل والنهار متوجهون ، وعليك فى كل الأحوال مقبلون ولك على الأحوال مؤثرون فأنا أسألك يا الهى وسيدى ومولاى ان تكون لى بفضلك كالئا عاصما راحما ، فانى اليك لاح ، وبك مستغيث ، واليك راغب ، ومنك راهب ، وعليك فى أمور الدنيا والأخرة متوكل ، لا اله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .

وحكى الامام الجريرى رضى الله عنه فقال : سمعت ابراهيم المارستانى رحمة الله تعالى يقول : رأيت الخضر عليه السلام فى المنام فعلمنى عشر كلمات وأحصاها على بيده :

اللهم انى أسألك حسن الاقبال عليك ، والاصغاء اليك ، والفهم عنك ، والبصيرة فى أمرك ، والنفاذ فى طاعتك ، والمواظبة على ارادتك ، والمبادرة فى خدمتك ، وحسن الأدب فى معاملتك ، وبرد التسليم اليك ، والنظر الى وجهك .

وكان سيدى يحيى بن معاذ الرازى رحمة الله يقول فى دعواته : الهى ، اذا قلت لى فى القيامة : عبدى ما غرك بى ، أقول : سيدى برك ربى ، وان ادخلتنى النار بين اعدائك لأخبرتهم بأنى كنت فى الدنيا أحبك لأنك مولاى ومن جميع الاشياء مغناى ، وكذلك كان رضى الله عنه يقول : اللهم ان نجيتنى نجيتنى بعفوك ، وان عذبتنى عذبتنى بعدلك ، رضيت ما بى لأنك ربى وأنا عبدك ، الهى أنت تعلم انى لا أقوى على النار ، وأنا أعلم انى لا أصلح للجنة ، فما الحيلة الا عفوك ، وكان رضى الله عنه يقول : اللهم اتقرب اليك ، وبك ادل عليك ، وحجتى نعمك لا عملى ، ولا أظنك تحاسب غدا بعدلك من غشيته اليوم بفضلك ، وعفوك يستغرق الذنوب ، ورضوانك يستغرق الآمال ، ولولا أنك بالعفو تجود ما كان عبدك بالذنب يعود .

وكان رضى الله عنه يقول : الهى وسيدى ومولاى ومن جميع الأشياء مغناى ، ضيعت نفسى بالذنوب فردها على بالتوبة ، أنت تعلم أن الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم الأكرمين فاعف عنى ، الهى أنت تعلم أن ابليس عدو لك ولى ، وليس شىء أنكى لكمده وأقطع لكيده من غفرانك لى فاغفر لى يا أرحم الراحمين .

وختاما أقول : (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم) .

جهاد النفس والهداية

أرسلك الى نفسك خاصة تجاهدها ، فان قدرت عليها وصرت مع الله خاصة أرسلك بعد ذلك الى أهلك ، فتسرى روحك بنور من عند الله الى قلوبهم بدون جهد ولا تعب ولا علم منك ، فيهديهم الله هداية كهدايتك ، فتفرح بهم ويفتح الله عليك وعليهم ثم بعد ذلك يرسلك الى أهل ودك ومحبتك ، فيهتدون بما يقذفه الله تعالى من سر روحك ثم بعد ذلك لأهل قطرك حسب ما قدر لك ، ثم الى الملأ الأعلى فتنفع وتنتفع وتعرف مقام المصطفى صلى الله عليه وسلم وتتلذذ من شراب بحره الفياض ، وتعرف أن حيرة القلب أمام الرب سبحانه تكون من الميل الى الناس فى غفلة عن رب الناس مع أن الناس ليسوا هم الأساس ، فلا تشرب الا من شراب الرسول صلى الله عليه وسلم .

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المرحوم الصديق السيد / سالم جمعة ، وهى ترينا أثر جهاد النفس فى ذات المسلم آله وذويه وأحبابه وأهل وطنه ، كيفما شاء الله تعالى وقدر .

وقد أرانا سيدى الشيخ أن جهاد النفس يتدرج بصاحبه شيئا فشيئا فى صعوده الى قمة العرفان التى تنتهى اليها همم العارفين بالله ، الذين شغلهم الله عما سواه . فالدرجة الأولى التى يصعدها المؤمن هى تهذيب نفسه لنفسه فان بلغها تعدى أثره الى من حوله من أهله وخاصته ، ثم الى أصدقائه الذين يتصلون به ، ثم الى أهل وطنه فلا يقف سره عند الأقربين بل يتعداهم الى غيرهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ويقول السادة الصوفية أن المؤمن فى تهذيب نفسه ينتقل من العبادة الى العبودية ثم ينتقل من العبودية الى العبودة ، فالعبادة تكون لأهل المجاهدات ، والعبودية تكون لأهل المكابدات والعبودة تكون لأهل

المشاهدات . وعنهم أن المؤمن لا يستطيع تهذيب نفسه الا بمخالفة هواها ، ويحكى سيدى الامام أبو القاسم الجنيد فيقول فى ذلك :

أرقت ليلة ، فقمت الى وردى (من الصلاة) فلم أجد ما كنت أجده من الحلاوة والتلذذ بمناجاتى لربى ، فتحيرت ، فأردت أن أنام فلم أقدر فقعدت فلم أطق القعود ، ففتحت الباب وخرجت فاذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى رفع رأسه وقال : يا أبا القاسم الى الساعة ؟ فقلت ياسيدى : من غير موعد ؟ قال : بلى ،قد سألت محرك القلوب أن يحرك الى قلبك ، فقلت : قد فعلت ذلك ، فما حاجتك ؟ فقال : متى يصير داء النفس دواءها ؟ قلت : اذا خالفت هواها صار دواؤها داءها ، فأقبل على نفسه وقال : اسمعى ، قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيت أن تسمعيه الا من الجنيد ، فقد سمعت ، وانصرف عنى ، ولم أعرفه ، ولم أقف عليه .

أقول والقرآن الكريم يؤيد السادة الصوفية فى فهمهم هذا ، فانه سبحانه وتعالى يقول (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) ، ويقول الامام أبو حفص رضى الله عنه : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجبرها على مكروهها فى سائر أيامه كان مغرورا ، ومن نظر اليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعقل الرضا عن نفسه والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم الخليل (عليهم الصلاة والسلام) يقول (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) .

ويقول سيدى الامام الجنيد رضى الله عنه : النفس الأمارة بالسوء هى الداعية الى المهالك ، المعينة للأعداء ، المتبعة للهوى المهتمة بأصناف الأسواء . ومن حكم السادة الصوفية : نفسك كالدابة ان ركبتها حملتك وان ركبتك قتلتك . ويقولون : النعمة العظمى الخروج من النفس لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل . ويقول سيدى أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه : وقفت نفسى مع المصلين فلم أر لى معهم قدما ، ووقفت نفسى مع الصائمين فلم أر لى معهم قدما ، فقلت يارب : كيف الوصول اليك ؟ فقال : أترك نفسك وتعال ، ويقول سيدى سهل التسترى رضى الله عنه : ما عبد الله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى .

وفى نهى النفس عن هواها وفاء بعهد الله تعالى وخوف منه سبحانه ، وقد قال تعالى لبنى اسرائيل (وأوفوا بعدى أوف بعهدكم واياى فارهبون) ، ويقول سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف اشاراته عند هذه الآية الكريمة :

عهده سبحانه حفظ المعرفة ، وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده حفظ محابه وعهدنا لطف ثوابه ، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب .

أفوا بعهدى بحفظ السر أوف بعهدكم بجميل البر ، أوفوا بعهدى الذى قبلتم يوم الميثاق أوف بعهدكم الذى ضمنت لكم يوم التلاق ، أوفوا بعهدى فى ألا تؤثروا على غيرى أوف بعهدكم ألا أمنع عنكم لطفى وخيرى وأطال رضى الله عنه فى تلك الروائع الى أن قال :

أوفوا بعهدى فى المطالبات بترك الشهوات أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات ، أوفوا بعهدى بأن تقولوا أبدا : ربى ربى ، أوف بعهدكم بأن أقول لكم عبدى عبدى . وإياى فارهبون أى افردونى بالخشية لانفرادى بالقدرة على الايجاد فلا تصح الخشية ممن ليس له قدرة ولا منة .

ومن حكم سيدى أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه قوله : من أحسن فى ليله كوفىء فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره كوفىء فى ليله ، ومن صدق فى ترك شهواته كفى مؤونتها ، والله أكرم من أن يعذب قلبا ترك شهوة لأجله . ويقول السادة الصوفية أن متابعة النفس فى هواها يؤدى بصاحبها الى الهوان عند الله تعالى ، وفى ذلك أنشدوا .

نون الهوان من الهوى مسروقة

وصريع كل هوى صريع هوان

وفى جهاد النفس يستقصى السادة الصوفية عيوبهم الباطنة وهى عندهم ثلاثة أنواع :

(أ) عيوب النفس ، وتأتى من تعلقها بالشهوات الجسدية ، كطيب المأكل والمشرب والملبس والمركب .

(ب) وعيوب القلب ، وتتأتى من تعلقه بالشهوات القلبية ، كحب الجاه والرياسة والكبر والحرص والحسد والحقد ، وتلك من أخلاق الشياطين .

(ج) وعيوب الروح ، وتتأتى من تعلقها بالحظوظ الباطنة ، كطلب الكرمات والمقامات .

وهم لا يحرمون زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، انما يرون ألا ينخدع المؤمن بظواهر الدنيا فيقف عندها ويجعلها نهاية أفقه بل يمد نظره إلى الآخرة التى هى خير وأبقى ، لأن الله تعالى ينظر الى القلوب والأحوال ولا ينظر الى الأجساد والأشكال ، ولذلك ورد فى الحديث الشريف : (رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك) .

ومن حكم السادة الصوفية فى آحوال المعيشة قولهم : الدنيا كلها فضول الا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبيت يكنه ، وعلم يستعمله . ويقول الامام جلال الدين الرومى رضى الله عنه فيما ترجمه عنه صديقى الفاضل الشيخ الصاوى شعلان : (اقرأ ما كتب الرحمن فى صحائف الأكوان ، ولا تجعل الظواهر منتهى بصرك ومبلغ علمك حتى لا تحجب الحقيقة عن عينك وتنحرف بك الأهواء عن سبيل الرشد ، واعلم أن الدنيا لو كانت كلها طوع يدك ما كان لك سوى القوت ، فلا تأكل فى سبعة أمعاء ، ان أموال قارون لم تزده لحظة على العمر المقدور ، وان الاسكندر الاكبر قهر الجيوش الزاحفة ثم زحف عليه الاجل المحتوم وقهره فى الوقت المعلوم .

أيها المؤمن ، أن آثام اليوم هى عقارب الغد ، وإن سكرة الدنيا هى لهيب العطش فى صحراء القيامة .

أيها المؤمن ، اسق ورد الطاعات من دموع توبتك حتى تستروح الفردوس أنسام صلواتك ، وتستقبل الحور هدايا الطيب والعطر من حسناتك ، وتنظم عقود الجواهر من تسبيحاتك .

وحين يتمتع السادة الصوفية بالحلال ، يوجهون النية فيه لله تعالى فاذا أكلوا حلالا ينوون أن تكون لهم بأكله قوة فى عبادة الله سبحانه ،

وهذه النية عندهم ألذ من طعم الطعام ذاته ، واذا لبسوا اللباس قصدوا به ستر العورة وأخذ الزينة للصلاة ولا يقصدون به التباهى والتفاخر كما يقصد عامة الناس ، واذا أتوا نساءهم قصدوا أن يعفوا أنفسهم ونساءهم عن الحرام ، أو بنية النسل الطيب ، ويقول مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أتيت أهلى قط بنية الشهوة ولكن بنية أن يرزقنى الله منها من يوحد الله ولا يشرك به شيئا .

وقد أرادوا أن يغير رضى الله عنه ملبسه بأفخر منه حين ولى الخلافة ، ورجوا من سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن تكلمه فى ذلك فكلمته فقال لها : يرضى الله عنك أم المؤمنين تريدين أن أغير ما كنت عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وقصته رضى الله عنه حين أركبوه البرذون (السيسى) معروفة فقد ركبه قليلا ثم قال أنزلونى قالوا لماذا يا أمير المؤمنين ، قال أخشى أن يداخلنى الغرور .

ولا تعجب أن يسلك السادة الصحابة هذا المسلك ، فقد صحبوا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأسوا به فى أقواله وأفعاله وأحواله وقد بلغ فى زهده ما لم يبلغه الا رسول كريم وكان يستطيع أن يعيش عيشة الملوك لو شاء ، ولكنه آثر ما يبقى على ما يفنى حتى لقد دخل على ابنته السيدة الزهراء رضى الله عنها فوجدها تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر فقال لها : تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة .

وقد روى عقبة بن علقمة قال : دخلت على على رضى الله عنه فاذا بين يديه طعام خشن فقلت : يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟ فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا فان لم آخذ نفسى بما أخذ به نفسه خفت ألا ألحق به .

ويستعين السادة الصوفية فى جهاد أنفسهم بمراقبة الله تعالى واستحضار عظمتة سبحانه ، ويقولون فى هذا المقام : تعهد نفسك فى ثلاثة مواضع : اذا عملت فاذكر نظر الله اليك ، واذا تكلمت فاذكر سمع الله اليك ، واذا سكت فاذكر علم الله فيك .

والجهاد عند السادة الصوفية ثلاثة أنواع : جهاد فى سرك مع الشيطان حتى تكسره ، وجهاد فى العلانية فى أداء الفرائض حتى تأديها كما أمر الله تعالى ، وجهاد مع أعداء الله فى غزو الاسلام . وهم يقولون ان أقوى القوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه .

ويقول سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه : علمت فى القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا عن الآخرة ، فأصبته فى حرفين وهو قوله تعالى (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى) . ويقول رضى الله عنه كذلك : اذا أردت أن تكون فى راحة فكل ما أصبت والبس ما وجدت وارض بما قضى الله عليك . ويقول سيدى ابو يزيد البسطامى رضى الله عنه : ان الله أمر العباد ونهاهم فأطاعوه فخلع عليهم خلعه فاشتغلوا بالخلع عنه ، وانى لا أريد من الله الا الله .

ومن كلمة سيدى أبى يزيد المتقدمة ترى أن القوم لا يشتغلون بالنعم عن المنعم . ويقول السادة الصوفية اذا كان الله قد أمرك بالاحسان الى جارك ومراعاة حقه ، فجار نفسك . وهو قلبك . أولى بألا تضيعه ولا تغفل عنه ولا تمكن حلول الخواطر الرديئة به . واذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك . وهو روحك . أولى أن تحامى على حقها ولا تمكن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها ، وجار روحك . وهو سرك . أولى أن ترعى حقه ، فلا تمكنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات .

وهم يقولون ان النفس والقلب والروح والسر شىء واحد فى أصله وبحسب ما يكون فيه مجاهد نفسه يوصف بوصفه ، فاذا جاهد نفسه الامارة صار الى قلبه ، واذا جاهد قلبه صار الى روحه ، واذا جاهد روحه صار الى سره ، وهذا السر يكون بينه وبين ربه فلا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ، ويشبهون ذلك بالبذرة التى تكون فى الأرض فانها اذا نمت كان جذعا ثم فروعا ثم زهورا ثم ثمارا وأصلها واحد واختلفت مسمياتها بحسب أوضاعها التى تكون عليها . واذا نضجت الشجرة استظل الناس بظلها وأكلوا من ثمرها ، وكذلك المؤمن اذا نضج فى تربية نفسه التف الناس حوله وانتفعوا بتجربته وتربيته اذا كان الله اراده اماما للناس .

والسادة الصوفية يعولون كثيرا فى تربية النفس على صحبة الشيخ المربى ، ويقولون إن السالك الى ربه بنفسه يكون كالشجرة التى تنبت بنفسها فانها تورق ولكنها لا تثمر ، واذن لا بد للمريد من شيخ يربيه فى جنب الله ويعينه على جهاد نفسه والتخلص من كدورتها ورعوناتها . ويقول سيدى أبو طالب المكى رضى الله عنه :

واعلم أن الأنس لا يوجد فى كل عالم ، ولا فى كل عاقل ، ولا فى كل عابد زاهد ، ويحتاج الأنس الى وجود معان تكون فى الولى ، فاذا اجتمعت فيه كمل فيه الأنس ، وانتفت عنه الوحشة ، ومن لم تكن فيه لم يوجد فيه أنس ، ومن لم تكمل فيه وجد فيه بعض الأنس ، واذا حصل الأنس ففيه الروح من الكروب ، والاستراحة من الغم ، والسكون وطمأنينة القلب فكذلك عز من يوجد فيه الأنس لعزة خصاله وهى سبع : علم وعقل ، وأدب ، وحسن خلق ، وسخاء نفس ، وسلامة قلب ، وتواضع ، فان فقد بعضها لم يجد خلا يأنس لكماله . وأضدادها وحشة كلها ، لأن الجاهل لا أنس فيه ، والأحمق لا أنس به ، والبخيل سىء الخلق لا أنس عنده ، والخبيث والمتكبر لا أنس معه فاعرف هذا .

وأضاف رضى الله عنه يقول :

ومثل جملة الناس كمثل جملة الشجر ، منهم من له ظل ليس فيه ثمر وهذا الذى فيه نفع من الدنيا ولا ثمر له فى العقبى ، ويحتاج اليه فى وقت ، ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل ، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا ، ومنهم من فيه ظل وثمر ، فهذا يصلح للدين والدنيا وهو أعزها ، ، ومنهم من لا ظل له ولا ثمر وهذا الذى لا يحتاج اليه ، فمثله فى الشجر مثل شجر الغضا يمزق الثياب لا طعام فيه ولا شراب ، فهؤلاء من الناس من يضر ولا ينفع ويكثر ولا يدفع ، مثله كما قال الله تعالى (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) وقد قيل فى وصف الناس :

الناس شتى اذا ما أنت ذقتهم
لا يستوون كما لا يستوى الشجر
ذا رب ظل ، وهذا عنده ثمر
وذاك ليس له ظل ولا ثمر

وليس العلم الذى شرطوه فى الداعى الى الله تعالى علم دراسة فحسب بل هو علم دراسة وعلم وراثة أو علم وراثة يغنى عن الدراسة ، فكم من عالم راوية لم يصل الى الدراية والوعاية التى تصحب أهل الحق والحقيقة من الدعاة الى الله عز وجل ، وهذا ما يفسر قول إمامنا مالك رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية وانما هو نور يقذفه الله فى القلوب ، وقوله : لا أحب من الكلام الا ما كان تحته عمل . وفى الحديث الشريف (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) . ويقول امامنا الشافعى رضى الله عنه :

شكوت الى وكيع سوء حفظى
فأرشدنى الى ترك المعاصى
وأخبرنى بأنى العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصى

ولهذا العلم النورانى يشير سيدى وشيخى الشيخ علىلا عقل رضى الله عنه فى الهامه الذى نقلنا عنه :

بحر التجلى كله حكمة
كم تسكر الأرواح من عذبه
دع ما يقول الناس من علمهم
ما دمت تلقى العلم من سيبه

وليس فى صحبة المريد لشيخه اشتغال بالناس عن الله لأن الشيخ انما هو يد الله وعونه للمريد وقد ربط سبحانه الأسباب بالمسببات ، والامامة فى سبيل الهدى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من دعائم الدين والله تعالى يقول فى وصف عباد الرحمن (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) كما يقول تعالى (يوم ندعو كل أناس بامامهم) أما الاشتغال بالناس والمنهى عنه شرعا فهو اغتيابهم واستقصاء عيوبهم والأولى بالمؤمن أن يشتغل بعيوب نفسه ويصلحها بمعاونة أحد العارفين بالله تعالى من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر على نور من ربهم .

وقد غرف سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه من بحر التجلى حتى روى وأروى ، ويقول متحدثا بنعمة ربه عليه فى الهامه الربانى الذى كان فيه وحيد نسجه :

علومى فى الورى نفحات ربى
فما بلغوا مذاقى أو شمولى
ولى من مشرق الايمان علم
سموت به على كل الفحول

ويبين رضى الله عنه أن الالهام الربانى الذى يقذفه الله فى قلوب أوليائه من أهل اليقين انما يجيئهم بعد مجاهدات شاقة لا يصبر عليها الا أولو العزم ممن باعوا أنفسهم لله تعالى واستسهلوا فى سبيله كل صعب ونظروا الى فضله ولم ينظروا الى أعمالهم بل أيقنوا أنه سبحانه ان قبلها منهم فانما يقبلها كرما بعد تجاوز عنهم ، وفى ذلك يقول طيب الله ثراه :

ومن له قلب قوى اليقين
يلبسه الخالق أسمى وسام
كم من مصل لم يذق قلبه
طعم الصلاة أو طويل القيام
وصائم يزيد فى صومه
والروح لا تفهم معنى الصيام
فالذوق فى القلب له طعمه
وانه والله أشهى طعام
قالوا ينام الليل عبد صفا
فقلت عيب عندنا أن ينام
أيدعى الحب ويهوى الكرى
الا ان ذا والله شر انهزام
لو أنهم بالنوم يعطونها
ما صح فى الأوليا للاعتصام
لكنهم بالذكر يعطونها
والذكر أزكى مبرىء للسقام
يا بائع الروح لخلاقها
تقبل البيع بغير التزام

وسلعة بيعت على عيبها

مقبولة بالطبع عند الكرام

والله ربى أكرم الأكرمين

يقبلنا بعيبنا والسلام

واذا أراد القارىء الكريم أن يقف على مواجيد سيدى الشيخ على فى صلته بالله تعالى فليقرأ ما وصفها به رضى الله عنه فى الأبيات الآتية التى كانت الهاما لوقته من غير تفكير :

طاب فى نشره عبير غرامى

فتصافيت والهوى يهدينى

وحياتى حياة عالم قوم

عرف الحق دون أى فتون

ومقامى مقام صب معنى

ثابت الجأش صادق التمكين

دعواتى من الضياء ضياء

صرت كالفرقدين فى التبين

ان سكنت الثرى بجسمى فروحى

فى سماء الهدى ونور اليقين

يرمس الناس فى القبور ورمسى

حب ربى وفضله يكفينى

طال نوحى ولست الا محبا

سمع الطير من أعالى الغصون

وسمعت الطيور وهى تناجى

والتناجى يثير شجو الحنين

فتناجيت بالأغاريد حتى

هامت الطير من سماع حنينى

لم أمتع بغير ربى قلبى

ولهذا ماء الهدى يروينى

وأنا الثابت المحب دواما
لست أخشى عذل من عذلونى
لو يذوقون بعض ما ذقت فى الحب
خففوا عذلهم وقد عذرونى
أخضع الراسيات من كلم العشق
فتعنو الجبل عند أنينى
فمرامى وجه الحبيب وان مت
شهيدا ففى الرحاب ذرونى
أملى فيه أن يكفر عنى
ما تجاوزت من حدود الدين
أنا ان كنت مذنبا وأثيما
انما ذو الجلال لا يردينى
أنا ان كنت مذنبا وأثيما
فرحيم العباد لا يخزينى
أنا ان كنت مذنبا وأثيما
فرضا الله سوف لا يخطينى
أنا ان كنت مذنبا وأثيما
فالهى من الضنى يشفينى
أنا ان كنت مذنبا وأثيما
انما رحمة الاله تقينى
علم الله أن قلبى ضعيف
فروانى بماء عين اليقين

والفضل فى تسجيل الأبيات المتقدمة والتى تنشر لأول مرة كان للصديق الفاضل الدكتور مظهر سعيد وقد تكرم فنسخ لى صورة منها ومن غيرها مما سجله عن الشيخ فى ليلة سهرها معه من نحو ثلاثين سنة فى بلقاس ، وسوف لا يفوتنى أن أمتع القراء بالبقية الممتعة فى مقالاتى اللاحقة ان شاء الله ، وشكر الله للصديق صنيعه .

الا رضى الله عن مشايخنا العارفين بالله الذين أوردونا موارد الايمان ، وسقونا من رحيق الاحسان ، ومشارب العرفان ، وصدق الله العليم الحكيم اذا يقول ناصحا لعبده (واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون) .

مسالمة الناس ومعرفة
الله تعالى

(يا سالم أنت ان شاء الله سالم ، أنعم الله عليك بالسلم والمسالمة وحفظ الله عليك عقلك ، وأوحى فى قلبك ما أراده لتصرف به ، وجعلك من أهل التمييز ، وسقاك الشراب اللذيذ وهو شراب القوم ، ولكل قوم مشرب ، ومشرب القوم أهل الله معرفة الله على قدر تمييز الانسان فى فهم اسماء الله وصفاته لان حقيقة المعرفة لا يتحملها الانسان ، وقد نظر سيدنا موسى عليه السلام للجبل فرآه اندك من تجليات العظمة والجلال (وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) فمن طلب الادراك كان الجهل قرينه ، ومن عجز عن الادراك أدركه الله بلطفه وفقه أنه خادم وجب عليه أن يؤدى الخدمة كما أمره سيده) .

جاءت هذه السطور فى رسالة بعث بها سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه المرحوم الصالح التقى الصديق الوفى السيد / سالم جمعة وهى ترشدنا الى التحلى بمكارم الاخلاق وترينا مشرب السادة الصوفية فى معرفة الله تعالى وفى عبادته سبحانه .

ومكارم الاخلاق تقتضى مسالمة المسلمين خاصة فلا نؤذى احدا منهم بألسنتنا أو بأيدينا ، ولا نخدعهم أو نكذبهم أو نغشهم أو نعتدى من قريب أو بعيد على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم ، فالمسلم أخو المسلم يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها .

وقد وصف الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فى شأنهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فاجتمع لهم شدة على الأعداء ورحمة بالأخلاء ، ومدح سبحانه سادتنا الأنصار فى حبهم لاخوانهم المهاجرين وايثارهم على أنفسهم فقال تعالى (والذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن

يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وعلم الله سبحانه الخلف ألا ينسوا أسلافهم من دعواتهم ، فقال تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولا خواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم) .

وفى التاريخ الكبير للبخارى أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (طوبى لمن ذل نفسه وطاب كسبه وصلحت سريرته وكرمت علانيته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله) .

والاسلام يربى المسلمين على المسالمة ومكارم الاخلاق فيما بينهم ، وللمسلم على أخيه المسلم عشرة حقوق ، أن يسلم عليه اذا لقيه ، ويجيبه اذا دعاه ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويشهد جنازته اذا مات ، ويبر قسمه اذا أقسم عليه ، وينصح له اذا استنصحه ويحفظه بظاهر الغيب اذا غاب عنه ، ويحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه . ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (رحماء بينهم) أى أنهم متوادون فيما بينهم ، يدعو صالحهم لطالحهم ، فاذا نظر الصالح الى الطالح من المسلمين دعا الله له وقال ، اللهم اهده وتب عليه واغفر له ، واذا نظر الطالح الى الصالح دعا الله له وقال ، اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به .

وكان سيدى الامام التسترى رضى الله عنه يقول من كف اذاه عن الخلق مشى على الماء .

ومن أروع ما قرأت للسادة الصوفية فى الكبائر أنها تكون فى القلوب وفى اللسان ، وفى البطن ، وفى الفرج ، وفى اليدين ، وفى الرجلين ، وفى جميع الجسد . ويفصلون ذلك فيقولون :

أما كبائر القلوب فأربع ، الشرك بالله تعالى ، والاصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأما كبائر اللسان فهى شهادة الزور ، وقذف المحصن (وهو الحر البالغ المسلم) واليمين الغموس (وهى التى تبطل بها حقا وتحق بها

باطلا ، وقيل هى التى يقطع بها مال المسلم ظلما ولو سواكا ، وسميت غموسا لأنها تغمسه فى غضب الله تعالى ، وقيل لانها تغمس صاحبها فى النار) والسحرة . هم النفاثات فى العقد الذين أمرنا الله بالاستعاذة منهم .

وكبائر البطن هى ، شرب الخمر والمسكر من الاشربة ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم .

وكبيرتا الفرج هما ، الزنا وعمل قوم لوط فى الادبار .

وكبيرتا اليدين هما ، القتل والسرقة .

وكبيرة الرجلين هى الفرار من زحف العدو ، بأن يفر الواحد من اثنين غير متحرف الى الامام أومتحيز الى فئة ولا معتقد الكرة .

وكبيرة الجسد كله هى عقوق الوالدين ، وتفسر العقوق جملة ان يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما ، وان يسألاه فى حاجة فلا يعطيهما ، وأن يأمناه فيخونهما ، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما ، وأن يشتماه فيضربهما .

ومن الاستنباطات الرائعة لسيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قوله حين سئل عن الكبائر ، اقرأ من أول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها الى قوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وانك اذا راجعت هذه الآيات البينات وجدته انما استنبط ذلك بنور من ربه ، وسبحان من علم أصفياءه مالم يكونوا يعلمون .

ويروى سيدى الامام أبو طالب المكى حديثا مسندا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه (ان العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له دخل الجنة ، ويأتى قد ظلم هذا ، وشتم هذا ، وضرب هذا ، فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته ، حتى لا تبقى له حسنة ، فيقول الملائكة يا ربنا قد فنيت حسناته ، وقد بقى طالبون كثير ، فيقول الله تعالى ، ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكو له صكا الى النار) .

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ان الفاحشة الباطنة هى الحسد . ويقولون فى حكمهم الحاسد جاحد ، لانه لا يرضى بقضاء الواحد . كما يقولون ، الحاسد اذا رأى نعمة بهت ، واذا رأى عثرة شمت .

ويقول سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه ، ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال ، ان لم تنفع فلا تضره ، وان لم تسره فلا تغمه ، وان لم تمدحه فلا تذمه . وقد كان سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه يتمثل بالبيتين التاليين :

كن كيف شئت فان الله ذو كرم

وما عليك اذا أذنبت من باس

الا اثنتين فلا تقربهماأبدا

الشرك بالله والاضرار بالناس

وقد جاء فى الخبر (الدواوين ثلاثة ، ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك . فأما الديوان الذى يغفر فذنوب العباد فيما بينهم وبين الله تعالى ، وأما الديوان الذى لا يغفر فالشرك بالله تعالى ، وأما الديوان الذى لا يترك فمظالم العباد أى إن الله لا يترك مؤاخذة العبد على تلك المظالم التى هى من حقوق العبد .

لكن ينبغى أن نعلم أن ثواب الله على الصالحات منجز للعبد أما العقاب على المعاصى فان الله فيه بالخيار ان شاء عذب العاصى وان شاء غفر له . ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أى يغفر الذنب العظيم لمن يشاء ويعذب من يشاء على الذنب الصغير .

وأسوأ العبيد حالا فى رأى السادة الصوفية عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه ، ويقيم على الاصرار ، ولا ينوى توبة ولا يعقد استقامة ، ولا يرجو وعدا بحسن ظنه ، ولا يخاف وعيدا لتمكن أمنه فهذا هو حقيقة الاصرار ومقام بين العتو والاستكبار ، وفى مثل هذا جاء الخبر (هلك المصرون قدما الى النار) ونفس هذا العبد هى النفس الامارة ، وروحه من الخير فرارة ، ويخاف على مثله سوء الخاتمة ،

ولا يبعد منه سوء القضاء ودرك الشقاء ، وان اللعنة هى الخروج من الذنب الى أعظم منه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

ويقول سيدنا الامام جعفر الصادق رضى الله عنه ، ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث ، رضاه فى طاعته ، فلا تحقروا منها شيئا لعل رضاه فيه ، وخبأ غضبه فى معاصيه ، فلا تحتقروا منها شيئا لعل غضبه فيه ، وخبأ ولا يته فى عباده المؤمنين ، فلا تحتقروا منهم أحدا لعله ولى الله تعالى .

ويقول السادة الصوفية ان من الرجاء تحسين الاخلاق مع الخلق ، وجميل الصبر عليهم ، وحسن الصفح عنهم ، ولطيف المدارة لهم ، تقربا الى الله عز وجل بذلك ، وتخلقا بأخلاقه سبحانه فانه يعفو عن قدرة ، ويغفر عن سلطان . وجعل سبحانه عفو العبد عن أخيه سبيلا لعفو الله عنه فى قوله الكريم (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) .

أما عن الشراب اللذيذ الذى أشار اليه سيدى الشيخ عبد السلام فى عبارته وهو شراب القوم ، أى أهل الله ، وهم السادة الصوفية فانما يقصد به معرفة الله ، فهى مشربهم ، الذى يردونه ، ويقصدون عنه ، وهى فى رأيهم أطيب شىء فى الدنيا ، ولذلك يقول الامام مالك بن دينار رضى الله عنه ، خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شىء فيها ، قيل ، وما هو ؟ قال المعرفة ثم أنشأ يقول .

ان عرفان ذى الجلال لعز
وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضا بهاء
وعليهم من المحبة نور

والمعرفة عند السادة الصوفية هى دعامة الدين ، ويقولون فى تعريفها انها صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه ، فحظى من الله تعالى بجميل اقباله ، وصدق الله فى جميع أحواله ، وانقطعت عنه هواجس نفسه ،

ولم يصغ قلبه الى خطر يدعوه الى غير الله ، فاذا صار من الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه بريا ، ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، ودامت فى السر مع الله مناجاته ، وحق فى كل لحظة اليه رجوعه ، وصار محدثا (أى ملهما) من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف اقداره يسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة . أما المعرفة عند العلماء فهى العلم ، فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله عارف ، وكل عارف عالم .

أما ما يشير اليه سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه من أن معرفة الله تكون على قدر تمييز الانسان فى فهم أسماء الله وصفاته فيفسره ما يقول به السادة الصوفية من أن المعرفة معرفتان ، معرفة حق ، ومعرفة حقيقة . فمعرفة الحق هى معرفة وحدانيته سبحانه على ما أبرز للخلق من الاسامى والصفات أما معرفة الحقيقة فلا سبيل اليها لأن حقيقة معرفته لا يطبقها الخلق ، ولا ذرة منها ، لان الكون بما فيه يتلاشى عند ذرة من أول باد يبدو من بوادى سطوات عظمته تعالى ، لذلك قالوا ، ما عرفه غيره لأن الصمدية ممتنعة عن الاحاطة والادراك بقوله تعالى (ولا يحيطون به علما) . وقد حكى عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال ، سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته .

وقد سئل سيدى أبو الحسين النورى رحمه الله ، كيف لا تدركه العقول ولا يعرف الا بالعقول ؟ فقال ، كيف يدرك ذو أمد من لا أمد له ؟ أم كيف يدرك ذو عاهة من لا عاهة له ولا آفة ؟ أم كيف يكون مكيفا من كيف الكيف ؟ أم كيف يكون محيثا من حيث الحيث ؟

وقد قيل فى آبيات نسبت لامامنا على كرم الله وجهه :

رأيت ربى بعين قلبى فقلت لا شك أنت آنت
أنت الذى حزت كل أين بحيث لا أين ثم أنت
فليس للاين منك أين فيعرف الاين أين آنت
وليس للكيف منك كيف فيعرف الكيف كيف أنت
أحطت علما بكل شىء فكل شىء أراه أنت
وفى فنائى فنىّ فنائى وفى فنائى رأيت أنت

وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون خشيته منه ، ولذلك قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) فمن لا خشية عنده لا يعتبر من علماء الآخرة وان حصل كثيرا من العلم وانما يكون من علماء الدنيا وكان السادة الصوفية اذا أشاروا الى واحد من هؤلاء يقولون ، حدثنا فلان وكان من أوعية العلم ولا يقولون وكان عالما .

ويقول امامنا على كرم الله وجهه فى علماء الآخرة هؤلاء ، هلك خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب اشباههم ، وهجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، فباشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى أولئك أولياء الله من خلقه ، وعماله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ، ثم بكى وقال ، واشوقاه الى رؤيتهم .

وذلك الذى قاله امامنا على يفسر لك ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود عند موت أمير المؤمنين عمر ، فقد قال أحسب أن تسعة أعشار العلم مات بموت عمر ، فقالوا له ، تقول ذلك وفينا جلة الصحابة ، قال ليس أعنى العلم الذى تريدون ، انما أعنى العلم بالله تعالى . فجعل رضى الله عنه العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم ، وجعل العلم بالله تعالى تسعة أعشار العلم .

ويرشدنا سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه الى طلب العلم والعمل به فيقول ، تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الاخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم الله فى الخير قادة وهداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أعمالهم ويقتدى بفعالهم ، وينتهى الى رأيهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم ، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر ونعامه ، والسماء ونجومها .

وفى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) ان الله تعالى جعل مفتاح القول السديد والعلم الرشيد والسمع المكين التقوى ، وهى وصية الله تعالى لمن قبلنا كما هى وصيته لنا اذ يقول تعالى (ولقد وصينا الذين أتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) ويضيفون أن هذه الآية الاخيرة هى القطب الذى يدور عليه القرآن الكريم كله . ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه ، العلماء ثلاثة ، عالم بالله تعالى ، وعالم لله تعالى وعالم بحكم الله تعالى . ويعنى بالأول العارف الموقن ، ويعنى بالتالى العالم بعلم الاخلاص وبالاحوال والمعاملات ، ويعنى بالثالث العالم بتفصيل الحلال والحرام . ويقول رضى الله عنه كذلك ، الناس كلهم موتى الا العلماء ، والعلماء نيام الا الخائفين ، والخائفون منقطعون الا المحبين والمحبون أحياء شهداء وهم المؤثرون لله تعالى على كل حال .

وفى التفرغ لله ومحبته المحبة التى يعتد بها السادة الصوفية ويبذلون فى سبيل كل مجهود مستطاع يقول سيدى عمر بن الفارض وهو سلطان العاشقين فى احدى غرامياته .

نسخت بحبى آية الحب من قبلى
فأهل الهوى جندى وحكمى على الكل
وكل فتى يهوى فانى امامه
وانى برىء من فتى سامع العذل
ومن لم يكن فى عزة الحب تائها
بحب الذى يهوى فبشره بالذل

وفى احدى مناجاته يقول رضى الله عنه

أنتم فروضى ونفلى — أنتم حديثى وشغلى
يا قبلتى فى صلاتى — اذا وقفت أصلى
جمالكم نصب عينى — اليه وجهت كلى
وسركم فى ضميرى — والقلب طور التجلى
آنست فى الحى نارا — ليلا فبشرت أهلى
قلت امكثوا فلعلى — أجد هداى لعلى
دنوت منها كفاحا — ردوا ليالى وصلى

صارت جبالى دكا　　　من هيبة المتجلى
ولاح سر خفى　　　يدريه من كان مثلى
وصرت موسى زمانى　　　مذ صار بعضى كلى
فالموت فيه حياتى　　　وفى حياتى قتلى
أنا الفقير المعنى　　　رقوا لحالى وذلى

وفى الأبيات المتقدمة يشير سلطان العاشقين الى ما وقع لسيدنا موسى عليه السلام عند تجلى الحق للجبل الذى إندك مع صلابته من هيبة المتجلى ، وقد أشار الى ذلك سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه بقوله عن الجبل : اندك من تجليات العظمة والجلال . ويتعرض سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه الى موقف سيدنا موسى فى هذا المقام عند قوله (ولما جاء موسى لميقاتنا . . . الآية) فيقول فى لطائف الاشارات جاء موسى مجىء المشتاقين المهيمين ، جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى ولم يبق من موسى شىء لموسى ، آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكروا ، وهذا موسى خطا خطوات فإلى يوم القيامة يقرأ الصبيان (ولما جاء موسى لميقاتنا . .) .

ويستطرد رضى الله عنه قائلاً :

(ويقال لما جاء موسى لميقات باسط الحق ، سبحانه ، سقط بسماع الخطاب فلم يتمالك حتى قال (أرنى أنظر اليك) فان غلبات الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود ، وكذا قالوا :

وأبرح ما يكون الشوق يوما
اذا دنت الخيام من الخيام

وفى ذلك أشار الى غاية القرب ، أى صفاء الحال ، لأن قرب المكان لا يصح على الله سبحانه .

ويقال صار موسى عليه السلام عند سماع الخطاب بعين السكر فنطق ما نطق ، والسكران لا يؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس فى نص الكتاب معه عتاب بحرف .

وأضاف رضى الله عنه الى ما تقدم روائع من لطائف اشاراته الى أن قال :

(ويقال فى قوله تعالى (انظر الى الجبل) بلاء شديد لموسى لأنه نفى عن رؤية مقصودة ومنى برؤية الجبل ، ولو أذن له أن يغمض جفنه فلا ينظر الى شىء لكان الأمر أسهل عليه ولكنه قال (لن ترانى ولكن انظر الى الجبل) .

(ثم أشد من ذلك أن الله أعطى الجبل التجلى ، فالجبل رآه وموسى لم يره ، ثم أمر موسى بالنظر الى الجبل الذى قدم عليه فى هذا السؤال وهذا والله لصعب شديد ، ولكن موسى لم ينازع ، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فاذا لم أرك لم أنظر الى غيرك بل قال : لا أرفع بصرى عما أمرتنى بأن أنظر اليه وفى معناه أنشدوا) .

أريد وصاله ويريد هجرى

فاترك ما أريد لما يريد

(ويقال لما رد موسى الى حال الصحو وأفاق رجع الى رأس الأمر فقال (تبت اليك) يعنى ان لم تكن الرؤية هى غاية المرتبة فلا أقل من التوبة ، فقبله تعالى لسمو همته الى الرتبة العلية) .

(وفى قوله (تبت اليك) اناخة بقوة العبودية ، وشرط الانصاف الا تبرح محل الخدمة وان حيل بينك وبين جود القربة لان القربة حظ نفسك ، والخدمة حق ربك ، وهى تتم بالا تكون بحظ نفسك .

وفى كلام سيدى الامام القشيرى المتقدم تفسير كاف لقول سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى : ومن عجز عن الادراك أدركه الله بلطفه وفقه انه خادم وجب عليه أن يؤدى الخدمة كما أمره سيده ، وصدق سبحانه وتعالى اذ يقول (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) والهام العارفين من كلمات الله التى لا تنفذ فهم يغرفون من معين واحد لا نهاية لمدده بقلوب خشعت وخضعت فعرفت ، فشربت وسقت غيرها وذلك ما يرمز اليه الامام السهروردى حين قال :

لا تسقنى وحدى فما عودتنى أنى أشح بها على جلاس

أنت الكريم ولا يليق تكرما أن يصبر الندماء دون الكاس

ويقولها صريحة شيخى وسيدى الشيخ على عقل فى فتوحاته الملهمة لفورها والتى نقلناها عنه ، رحمة الله :

شراب الحب يعرف بالمذاق   وما كل السقاة له بســاق
دعاة الحب أكثر ما تلاقى   وقل الصادقون فما تــلاقى
ألا يا ساقى العشاق مهـلا   تعالى املأ كؤوسك من حقاقى
غرامى قد مزجت به رجائى   على خوف فمن خوفى مذاقى
وروحى أدركت معنى التجلى   فمنه أرى اصطباحى واغتباقى
وكيف أحب غير الله يوما   وليس سواه فى الأكوان بـاق
ومن عرف المحبة عن يقين   محال أن يميل الى فـراق

اللهم اجمعنا على الباب فى زمرة الأحباب الذين سقيتهم شراب محبتك الصافية ، ومودتك الخالصة وقلت فيهم (يحبهم ويحبونـه أذلـة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

التمسك بالله تعالى

(فالعقل أن يتمسك العبد بالله ولا يميل عما قضاه ، والكتاب بشير نذير ، والنبى رسول كبير ، بلغ الكتاب وفسره ، ما كذب الفؤاد ما غيره فمن اتبع الرسول فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان مع ربه ثابتا لا يتغير) .

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق التقى المرحوم السيد / سالم جمعه ، وهى ترشدنا بكلماتها النورانية الى التمسك بالله على هدى الكتاب والسنة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والسراء والضراء ، والسر والعلانية وذلك شأن المؤمنين الصادقين ، اهل الوفاء والتمكين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الطريقة فغمرهم نور الحقيقة .

ويقول سيدى الشيخ : فالعقل ان يتمسك العبد بالله ، وهو قول حق يؤيده كتاب الله الكريم فى قوله تعالى مؤنبا بنى اسرائيل (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) فقد نفى العقل عنهم حين نصحوا غيرهم ولم ينصحوا أنفسهم ، ونفس الانسان أقرب اليه من نفس غيره ، وهى أولى بالرعاية وأحق بالعناية ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز .

أما عدم الميل عما قضاه الله ، فيقتضى الرضا والتفويض اليه فيما كان وما يكون ، لانه سبحانه لا يقع فى ملكه الا ما يريد ، وانما يجرى القضاء بأحكام الله ، الست تراه تعالى يقول لأحب أحبابه سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) كما قال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال أيضا له (واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) وغير ذلك كثير فى كتاب الله عز وجل .

وقد اجتمع لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر من أطرافه فصبر على الطاعات وما فيها من التكاليف ، وصبر على المصيبات وما فيها من التصاريف وصبر على الناس وما فيهم من المتاعب وصبر على العوافى وما فيها من الفتن ، أما السيئات فلم يكن لها عليه سبيل فقد شرح الله صدره ، ووضع عنه وزره ، فهو المعصوم بعصمة الله والطاهر المطهر بأمره سبحانه .

وقد جعله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، لذلك حرص السادة الصوفية على أن يكونوا على صورة أصحابه الاعلام الذين لم يدعوا مجهودا فى مرضاة الله ورسوله الا بذلوه فأخذوا بالعزائم والمجاهدات ، دون الرخص والتأويلات . ويقول سيدى جلال الدين الرومى رضى الله عنه فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية صديقى الفاضل الشيخ الصاوى شعلان مد الله فى عمره :

(ولقد كان الأولون فى بعض ما أحل لهم أزهد منا فيما حرم علينا وكانوا لصغائر الذنوب أشد استعظاما منا لكبائر المعاصى ، حتى كادوا يفوقون بفطرهم صومنا ، ويتحدون بنومهم يقظتنا ، وربما تركوا سبعة أبواب من الحلال من أجل باب من الحرام يخشونه ، فعملوا صالحا وكسبوا حلالا ، وأكلوا طيبا ، وانفقوا برا ، وقدموا أجرا ، فعش أيها المؤمن فى ذكراهم كأنك معهم ، ولا تسلط الهوى فى نفسك ، ولا تدع الاحجار المتراكمة من الخطايا تحطم قلبك ، فان الفخار اذا انكسر لا يرقع ولا يعاد طينا) .

(ان الظواهر أضلت ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين وأضلت الظواهر أبا جهل حين نظر بعينيه الى سيدنا محمد القرشى ، صلى الله عليه وسلم ، على انه يتيم أبى طالب ، ولم يره على أنه رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله . وما ذنب البستان اذا قصرت فى جنى ثماره وما ذنب النهار اذا أغمضت العين عن شهود أنواره) .

ويقول السادة الصوفية ان الله تعالى من رحمته بعباده تعرف الى خلقه بما يلائمهم ، فتعرف الى العامة بخلقه فقال سبحانه (أفلا

ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت) وتعرف الى الخاصة بكلامه وصفاته ، فقال تعالى ، (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ، وتعرف الى الانبياء بنفسه كما قال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) .

والقرآن الكريم كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أنزله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم فبلغه كما أنزل اليه ، وفسر ما أجمله من أحكام الله تعالى ، فكانت السنة مبينة للشرع ومتممة له ، والخواص يذوقون من حلاوة القرآن ما لا يذوقه العوام لان الكلام على من على وحكيم من حكيم ويعطى الله فى فهمه ما يشاء لمن شاء من غوامض خطابه ، وخواص اشاراته .

ويقول سيدى عامر بن عبد الله رضى الله عن : قرأت ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل استعنت بهن على ما أنا فيه ، فاستعنت بقوله تعالى (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله) فقلت : ان أراد أن يضرنى لم يقدر أحد أن ينفعنى وان أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى . وقوله تعالى (فاذكرونى أذكركم) فاشتغلت بذكره عن ذكر من سواه . وقوله تعالى (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها) فوالله ما اهتممت برزقى منذ قرأتها فاسترحت .

وقد اشتغل الناس بهم الرزق عن الرزاق ، مع انه سبحانه ضمن الرزق لكل دابة فى الارض ، وكان الاول مع هذا الضمان الصادر من القادر المقتدر أن يشتغل العباد بربهم وهم مطمئنون على وصول أرزاقهم اليهم من الأسباب التى اقامها وكلفهم أن يسعوا فيها درءا للتوكل والكسل ، وربطا بين العمال والعمل ، فان أفضل ما أكل العبد انما يكون من كسب يده ، وقد كسب الانبياء عليهم الصلاة والسلام عيشهم بأيديهم ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى اذ يقول :

من أحسن الأمثال فيما أحسب

الخبز لا يعطى ولكن يكسب

موسى الكليم استؤجر استئجارا

وكان عيسى فى الصبا نجارا

وقد رعى صلى الله عليه وسلم الغنم ، وعمل وكيلا أجيرا فى أموال السيدة خديجة رضى الله عنها فى شبابه الباكر .

ومن عجيب أمر الله تعالى أنه يرزق عبده المال ويثنى عليه فى انفاقه ويذمه فى البخل به ، لإظهار الأحكام ، وبيان الحلال والحرام ، والتبشير بالثواب ، والتخويف من العقاب ، فقد أظهر أمره ، وأخفى قدره ، ليهنأ العاملون بأمره ، وتسقط حجة المستندين فى التقصير الى قضائه وقدرته .

ويقول سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف اشاراته عند قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) .

المسلم لا يتحرك فى باطنه عرق للمنازعة مع التقدير ، فان الاسلام يقتضى تسليم الكل بلا استثناء ، ومن استثقل شيئا من التكليف أو بقى منه نفس لكراهية شىء فيعدغير مستسلم لحكمه .

ويقال نور فى البداية هو نور العقل ، ونور فى الوسائط هو نور العلم ، ونور فى النهاية هو نور العرفان ، فصاحب العقل مع البرهان وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة فى حكم العيان .

ويقال من وجد أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور ، فلا يشكل عليه شىء من ذوات الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه وسلم (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله) .

ويقال أول أثر لانوار الغيب فى العبد ينبهه الى نقائص قدره ومساوىء غيه ، ثم يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه ، ثم غلبات الأنوار على سره حتى لا يشهد السر بعد ما كان يشهد كالناظر فى قرص الشمس تستهلك أنوار بصره فى شعاع الشمس ، كذلك تستهلك أنوار البصيرة فى حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب

الوجود دون الشهود ، ثم بعده خمود العبد بالكلية ، وبقاء الاحدية بنعت السرمدية .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك . وهو فى هذه الحكمة البالغة يوجهنا بمنطق سليم الى العمل للآخرة ، لان الله سبحانه ضمن لنا رزق الدنيا ولم يضمن لنا رزق الآخرة ، ومع ان رزق الدنيا مضمون ومكفول فقد بذلنا فيه كل جهودنا المستطاعة ولم يمنعنا الضمان من بذلها ، وكان الأحرى أن نسعى بالمثل أو أكثر للآخرة سعيها ، فلا نقصر فى طلبها وهى غير مضمونة .

ويقول سيدى ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه : اعربنا فى الكلام ولحنا فى الأعمال ، فياليتنا لحنا فى الكلام وأعربنا فى الأعمال (وهو أيضاً يشير الى عنايتنا بالظواهر واهملنا البواطن ، فاننا نحرص على أن تنطق ألسنتنا الكلام صحيحا ، ولا نعبأ بفساد أعمالنا ، وكان الأولى ان نعكس اذا لم نستطيع تصحيح الناحيتين معا .

ولست أنسى ما حييت تجربة تربوية وقعت لى فى شبابى ونفعتنى طول حياتى ، وذلك انى كنت مرشحا للترقية وتهيأت لى ظروف الفوز بها من كل جانب ، ولكنى لم أظفر بها ، فوقع فواتها منى موقعا سيئا ضاق له صدرى ، وجزعت له نفسى ضيقا شديدا ، فرأيت أن أزور سيدى الشيخ عبد السلام لأنفس الشدة ، وبينما أنا راكب اليه ، فى وسط الطريق ، اذا بهاتف رحمانى يهتف فى صدرى : ده ده أنت ها تعمل زى اللى بيقول فيهم ربنا (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) فانقلب ضيقى الى خوف من الله تعالى واستغفرت ربى وانبت وتبت اليه وسألته العفو عنى ، وصرفت نفسى عن الاشتغال بموضوع الترقية كلية ، وما كدت أصل الى سيدى الشيخ حتى قصصت عليه أمر الهاتف فابتسم رضى الله عنه وقال لى : دى خواطر القرآن عظيمة جدا ، وكأنه يقول لى : الزم ما نصحك به ربك وارض بقضائه وان كان على غير ما تحب ، وكنت بعد ذلك أخاف أن أشتغل بأمر الترقية قليلا أو كثيرا حتى جاءتنى

الترقية ذات يوم على غير انتظار ، وسبحان الله الفعال لما يشاء ، وتعودت بعد ذلك أن أترك ما أريد لما يريده ربى عز وجل ، وتأكد لى مما جرت به المقادير صدق ما ورد فى الحديث الشريف : ما كان لك فهو آتيك على ضعفك وما ليس لك فلن تدركه بقوتك .

هذا وكما تتفاضل أقدار الناس فى الدنيا ، كذلك تتفاضل درجاتهم فى الآخرة (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ويقول السادة الصوفية ان المؤمنين يتفاضلون فيما بينهم ، فالعباد يفضل الله بعضهم على بعض فى زكاء الأعمال ، والعارفون يفضل بعضهم فى صفاء الأحوال ، فقوم تفاضلوا بصدق القدم ، وقوم تفاضلوا بعلو الهمم ، والتفضيل فى الآخرة أكبر ، فالعباد تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم (انكم لترون أهل عليين كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء وان أبا بكر وعمر منهم) .

ويقول سيدى حاتم الاصمم رضى الله عنه : عجبت ممن يعمل بالطاعات ويقول انى أعملها ابتغاء مرضاة الله ، ثم تراه أبدا ساخطا على الله رادا لحكمة ، أتريد أت ترضيه ولست براض عنه ؟ كيف يرضى عنك وأنت لم ترضى عنه . وهو بذلك يحذرنا من السخط على المقدور مهما كان مرا . فنكون مع الله على ما أراد ، ولا نميل عما قضاه كما قال سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه . ويقول سيدى حاتم أيضا : أربعة يندمون على أربعة .

المقصر اذا فاته العمل .

والمنقطع عن أصدقائه اذا نابته نائبة .

والممكن منه عدوه بسوء رأيه .

والجرى على الذنوب .

ويقول السادة الصوفية : أصل الطاعة ثلاثة أشياء : الخوف والرجاء والحب . وأصل المعصية ثلاثة أشياء : الكبر والحرص والحسد .

ويقول سيدى أبو على الدقاق رضى الله عنه فى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : أولها التقويم ثم الاقامة

ثم الاستقامة ، فالتقويم من حيث تأديب النفوس ، والاقامة من حيث تهذيب القلوب ، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار .

ويرشدنا السادة الصوفية الى أن الطاعات يجب أن يصحبها الأخلاص والصدق ، وان تكون خالية من الرياء ، ويعرفون الاخلاص بأنه التوقى من ملاحظة الخلائق ، والصدق بأنه التنقى من مطالعة النفس فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا اعجاب له ويقول الامام الجنيد رضى الله عنه : الاخلاص سر بين الله تعالى وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله . ويقول سيدى سهل التسترى رضى الله عنه : اهل لا اله الا الله كثير والمخلصون منهم قليل . ويقول السادة الصوفية : ما أخلص عبد قط أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

ويفرق السادة الصوفية بين الصادق والصديق فيقولن أن الصادق من صدق فى أقواله ، والصديق من صدق فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، وأقل الصدق عندهم استواء السر والعلانية . ويعول السادة الصوفية فى علاج أمراض النفس على ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا ، ويقولون ان الذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة فى هذا الطريق ولا يصل أحد الى الله تعالى الا بدوام ذكره عز وجل .

ولذلك يقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

ان الطريق هى الذكر الكثير فلذ

بالذكر هذا هو التقوى هو القدم

كما يقول رضى الله عنه :

والعاشقون لهم فى الحب ان صبروا

روض من العز لم يذبل له ثمر

مياهه الذكر والتقوى منابعه

والعلم والدين والآيات والعبر

خل المعارف للعشاق تقطفها

ان كنت منهم فسر واسهر كما سهروا

وذكر الله عند السادة الصوفية على قسمين : ذكر اللسان ، وذكر القلب ، والتأثير لذكر القلب ، فاذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه .

ويقول سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه ف ذكر القلب :

وقفت على نجوى الاله جوانحى

لذلك قلبى منزل كله ذكر

وأخليت قلبى من مناجاة غيره

فأصبح طودا لا يزلزله الغير

أسارع مشتاقا وأسكت هائما

وأنطق أجلالا وما عاقنى سير

ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى

وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

ويقول فى أثر ذكر اللسان على القلب رضى الله عنه :

رب يسر لى واحسن موقفى

ذاك قلبى طالبا منك الشفاه

ولسانى لم يكن الا لكم

لم أحرك بسوى الله الشفاه

ويرشدنا رضى الله عنه الى التمسك بالخالق وعبادته وذكره ، ويحذرنا من الاشتغال بالخلائق فيقول :

اذا مارمت أسباب السعادة

تمسك فى حياتك بالعبادة

وان رمت النجاة الجأ اليه

وان رمت العطاء فدع عباده

علامة حبك الرحمن عندى

قيام الليل والذكر الشهادة

ولولا الذكر ما كسبت قلوب

بقدر الذكر تكتسب الافاده

فنينا فى المحبة عن سواه

وأدركنا بتقواه وداده

دموع الناس من حزن ولكن

دموع العارفين من العباده

وما خاب امرؤ لله يسعى

ويجعله من الدينا مراده

ويندد رضى الله عنه بأهل الغفلة عن الله تعالى فيقول :

من لم يذوقوا ذكر خلاق السما

هم والبهائم فى المقام سواء

بل ربما فطن البهيم لربه

والغافلون عن الهدى بلهاء

والأصل فى الدنيا المحبة والهدى

لولا الهدى لم تخلق الاشياء

ويتعرض السادة الصوفية لفضائل ذكر الله تعالى فيقولون انه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الأوقات الا والعبد مأمور بذكر الله اما فرضا واما ندبا . والصلاة وان كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الأوقات . والذكر بالقلب مستدام فى جميع الحالات ، ويقول فى ذلك سيدى أبو بكر الشبلى رضى الله عنه :

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة

وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلا وجد أموت من الهوى

وهام على القلب بالخفقان

فلما أرانى الوجد أنك حاضرى

شهدتك موجودا بكل مكان

فخاطبت موجودا بغير تكلم

ولا حظت معلوما بغير عيان

ويقول بعض العارفين : لولا أن ذكره تعالى فرض على لما ذكرته اجلالا له ، مثلى يذكره ؟ ولم يغسل فمه بألف توبة . ومن خصائص الذكر ان الله تعالى يذكر فى مقابلته ذاكره فيعطيه ويرقيه لانه تعالى يقول (فاذكرونى اذكركم) ويتعرض سيدى القشيرى فى لطائفه فى اشاراته الى فضل الله على الأمة المحمدية فى ذلك فيقول أنه سبحانه قال لبنى اسرائيل (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) بينما قال للامة المحمدية (فاذكرونى أذكركم) ولا شك أن ذكر المنعم أكبر من ذكر النعم وكأنه رضى الله عنه أراد أن يبين لنا الا نقف فى معرفة الله عند التحدث بنعمه ، بل نذكره تعالى مع التحدث بها ، فنجمع بين الفضيليتن وتغمرنا بركات المنعم المتفضل بالعطاء والثواب وما أكرمه عز وجل حين يمنح عبده التوفيق للطاعة ويثيبه عليها ، ويمدحه بها مع أن الفضل فضله والعبد ملكه .

ويقول السادة الصوفية : اذا تمكن الذكر من القلب ، فان دنا منه الشيطان صرع (كما يصرع الانسان اذا دنا منه الشيطان) فتجتمع الشياطين فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد مسه الانس ويقول سيدى سهل التسترى رضى الله عنه: ما من يوم الا والجليل سبحانه ينادى : يا عبدى ما أنصفتنى ، أذكرك وتنسانى ، وأدعوك الى وتذهب الى غيرى ، وأذهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا يا ابن آدم ما تقول غدا اذا جئتنى ؟

وحين يتعرض السادة الصوفية للحديث القدسى (أنا جليس من ذكرنى) ، يقولون للذاكرين : ما الذى أفدتم من مجالسة الحق سبحانه ، وكأنهم بذلك يقولون من لم يستفد فهو غافل عن ذكره سبحانه ولو كان ذاكرا حقيقة لاستفاد . ولذلك يقول سيدى أبو على الدقاق رضى الله عنه : الذكر منشود الولاية ، فمن وفق للذكر فقد اعطى المنشود ، ومن سلب الذكر فقد عزل .

وكا رأيت ذاكرين من ذوى الهمة فى اتباع القطب الأكبر وشيخنا الاشهر سيدى الحاج محمد أبى خليل ساكن ضريحه المشرق بالزقازيق طيب الله ثراه ، ولا أنسى انى مرة طلبت فى مولده المبارك من صديقى الراحل الشيخ أحمد غلبون رحمة الله رحمة واسعة ان يصحبنى لزيارة بعض الأحباب فى سرادقهم : فقال لى انتظر حتى أكمل الاسم الذى أذكره فقلت له كم بقى عليك لاتمام ذكره فقال عشرة آلاف ، فانظر كيف كانت همته فى طلب الله تعالى حتى صارت الالآف عنده فى الذكر كالاحاد ، ولا تعجب أن يكون هذا حال الذاكرين الله كثيرا فقد توج الله بهم أرباب المقامات الجليلة فى قوله تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافضين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجر عظيما) .

الصبر والشكر

(اما عن صحتى ، فقضاء قضاه القاضى فى جميع الامور . قدر ونفذ القضاء ولطف فى قضائه وقدره حيث علم ضعف من قضى عليه ، فلطف به لطفه الخفى ، وعامل باحسانه من ايقن أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وانه بين يدى ربه ، فالداران له سبحانه وتعالى ، ومنه واليه تعالى الحمد والشكر ، فان تفضل على عبده اقدره على حمده وشكره ، وبه جل وعلا نحمده ونشكره ونسأله اللطف فيما جرت به المقادير) .

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى تلميذه الوفى الصالح المرحوم السيد / سالم جمعه طيب الله ثراه ، وواضح منها ان سيدى الشيخ كتبها وهو مريض ، لكنه لم يشك المرض ، بل صبر على البلاء ونظر اليه على أنه قضاء من رب الارض والسماء ، صحبه لطف الله الخفى ، واحسانه الى عبده الضعيف الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، واحسانه سبحانه انما جاء عن قدرة ، فكان رحمة من الرءوف الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ، ومع صبر الشيخ على البلاء ، حمد الله وشكره بتوفيق منه سبحانه ، فكان سيدى الشيخ فى هذا المقام من القلة الكرام البررة الذين قال تعالى فى شأنهم (وقليل من عبادى الشكور) .

والرضا بما يجرى به قضاء الله من أعظم مقامات اليقين ، ومما يقوله شاعر الصوفية الاكبر ، وصاحب المثنوى ، سيدى جلال الدين الرومى طيب الله ثراه :

(فالذى يهب الروح يجوز له أن يقتل ، فضع رأسك أمامه مثل اسماعيل واسلم الروح على خنجره فرحا ضاحكا حتى تبقى روحك ضاحكة الى الأبد ، ومن أجل تلك الحال كان الامتحان الذى يميز الخبيث من الطيب ، فهو كالنار التى تخلص الذهب من الزبد ، وان الطفل يرتعد امام ابرة الطبيب ولكن الام المشفقة يسعدها مثل هذا الالم) .

اقول والصبر على البلاء من لوازم الرضا والتسليم ، ويعرف السادة الصوفية الصبر فيقولون هو الوقوف مع البلاء بحسن الادب ، كما يقولون ان الصبر هو الثبات مع الله سبحانه وتعالى وتلقى بلائه بالرحب والدعة ، وأنشدوا فى ذلك .

سأصبر كى ترضى وأتلف حسرة

وحسبى ان ترضى ويتلفنى صبرى

كما أنشدوا :

صبرت ولم اطلع هواك على صبرى

واخفيت مابى منك عن موضع الصبر

مخافة ان يشكو ضميرى صبابتى

الى دمعتى سرا فتجرى ولا ادرى

ويقول سيدى أبو على الدقاق ، رحمه الله : فاز الصابرون بعز الدارين لانهم نالوا من الله معيته ، قال تعالى (ان الله مع الصابرين) ، ويقول سيدى أحمد بن خضرويه رضى الله عنه : من صبر على صبره فهو الصابر لا من صبر وشكا .

ويحكى السادة الصوفية ان الامام الشبلى رضى الله عنه حبس وقتا فدخل عليه جماعة فقال لهم : من انتم ، فقالوا :احباؤك جاءو زائرين ، فأخذ يرميهم بالحجارة وأخذوا يهربون ، فقال : يا كذابون ، لو كنتم أحبائى لصبرتم على بلائى .

ويكشف لنا امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن فلسفة صبره فيقول :

مامن بلاء يصيبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم : النعمة الاولى ان البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، النعمة الثانية أنه لم يقع أكبر مما وقع ، النعمة الثالثة أن الله صبرنى عليه فاحتملته ، النعمة الرابعة أن الله ادخر لى ثواب الصبر عليه .

أما وقد بلغ أمير المؤمنين فى صبره هذا المبلغ فلا يعجب القارىء الكريم من قوله رضى الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب .

وقال ابن عيينة رضى الله عنه فى معنى قوله تعالى (وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون) اى لما أخذوا رأس الامر (يعنى الصبر) جعلناهم رؤساء .

ويقول الامام أبو على الدقاق رضى الله عنه : ان الصبر حده الا تعترض على التقدير ، فأما اظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر ، ويستدل على ذلك بقصة سيدنا أيوب عليه السلام حيث قال تعالى فى شأنه :

(انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) مع انه تعالى اخبر عنه انه قال (انى مسنى الضر وانتت أرحم الراحمين) ويضيف رضى الله عنه قائلا : استخرج الله منه هذه المقالة (مسنى الضر) لتكون متنفسا لضعفاء هذه الامة .

وقال بعض السادة الصوفية : ان الله تعالى قال فى شأن سيدنا أيوب عليه السلام (انا وجدناه صابرا) ولم يقل صبورا لانه كان فى بعض أحواله يستلذ البلاء ويستعذبه فلم يكن فى حال الاستلذاذ صابرا فلذلك لم يقل الله (صبورا) .

ويحكى الامام القشيرى رضى الله عنه فى رسالته المباركة انه سمع استاذه أبا على الدقاق رضى الله عنه يقول : حقيقة الصبر الخروج من البلاء على حسب الدخول فيه مثل أيوب عليه السلام فانه قال فى آخر بلائه : (مسنى الضر وأنت أرحم الرحمين) ولم يصرح بقوله (ارحمنى) .

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) الصبر الجميل ان يكون صاحب المصيبة فى القوم ولا يدرى الناس من هو .

وقد مات ابن لامامنا السبط سيدى ابى عبد الله الحسين بن على رضى الله عنهما فلم ير الناس عليه جزعا فسألوه فى ذلك فقال وما أروع ما قال : نحن أهل البيت نسأل الله فيعطينا ، فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا . ويقول رضى الله عنه فى وصف الدنيا واهلها : الناس عبيد

الدنيا ، والدين لعق على السنتهم يحوطون مادرات به معايشهم فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون (اللعق جمع لعقة) . ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الارشارات عند قوله تعالى (وليبلى المؤمنين منهه بلاء حسنا) :

(البلاء الاختبار ، فيختبرهم مرة بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم ، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم أو ذكرهم أو نسيانهم.

(والبلاء الحسن توفيق الشكر فى المنحة ، وتحقيق الصبر فى المحنة ، وكل ما يفعله الحق فهو حسن من الحق لان له أن يفعله ، وهذه حقيقة الحسن وهو ما للفاعل أن يفعله .

(ويقال : البلاء الحسن أن تشهد المبلى فى عين البلاء . ويقال البلاء الحسن مالا دعوى لصاحبه ان كان نعمة ولا شكوى ان كان محنة . ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر ان كان عسرا ولا بطر ان كان يسرا .

(ويقال بلاء كل أحد على حسب حاله ومقامه ، فاصفاهم ولاء أوفاهم بلاء ، قال صلى الله عليه وسلم : (أشد الناس بلاء الانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فلأمثل) .

ويضيف الامام القشيرى رضى الله عنه فى اشاراته عند قوله تعالى (ان الله سمبع عليم) :

(تنفيس لقوم وتهديد لقوم ، أصحاب الرفق يقول لهم : ان الله (سميع) لأنينكم فيروح عليهم بهذا وقتهم ويحمل عنهم بلاء هم وانشدوا فى ذلك :

اذا ما تمنى الناس روحا وراحة

تمنيت أن أشكو اليك فتسمعا

(واما الاكابر فلا يؤذن لهم فى التنفس ، وتكون المطالبة متوجهة اليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير اظهار ولا شكوى ،

فيقول : لو ترشح منك ما كلفت بشربه توجهت عليك الملامة ، فان لم يكن منك بيان فانى سميع لقالتك عليم بحالتك .

(ويقال فى قوله تعالى (عليم) تسلية لا رباب البلاء ، لان من علم ان مقصوده يعلم حاله سهل عليه ما يقاسيه فيه ، قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) .

ويقول السادة الصوفية ان الله تعالى وصف لنبيه عليه الصلاة والسلام العلاج الناجح لضيق الصدر فقال سبحانه (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى ان ضاق صدرك بسماع ما يقول اعداؤك فيك من ذمك فارتع بلسانك فى رياض تسبيح ربك والثناء عليه فيزول ضيق صدرك ، وقف على بساط العبودية بالخدمة تلحق بالرفيق الاعلى وتجلس على بساط القربة ، فان أشرف خصالك قيامك بحق العبودية . ويؤيد هذا المعنى أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر قام الى الصلاة فنفس عن صدره . وما أحوجنا للتأسى به صلى الله عليه وسلم فى ذلك .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه : ومنه واليه تعالى الحمد والشكر ، فانه يشير به الى ما يقوله السادة الصوفية من انه سبحانه مستحق اللحمد لظهور سلطانه ، ومستحق للشكر لوفور احسانه ، وحقيقة الحمد الثناء على المحمود بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة ، وحقيقة الشكر الاعتراف بنعم المنعم على وجه الخصوم .

وللشكر عند السادة الصوفية ثلاثة أقسام :

فشكر بالسان ، اعتراف العبد بالنعمة بنعت الاستكانة .

وشكر بالاركان ، وهو قيام الجوارح بالعبادات والوفاء بالخدمة .

وشكر بالقلب ، وهو اعتكاف القلب على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة .

ويقول الامام الشبلى رضى الله عنه : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، ويقول بعض العارفين شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخاصة على ما يرد على قلوبهم من المعانى .

ويهون السادة الصوفية على أنفسهم بلاء الدنيا مادام دينهم محفوظا عليهم ، ويحكون فى هذا المقام ان رجلا شكا الى الامام سهل التسترى فقال : ان لصا دخل دارى وأخذ متاعى فقال له : اشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك (يعنى الشيطان) وافسد التوحيد ماذا كنت تصنع .

ويقول الامام أبو القاسم الجنيد ان استاذه الامام السرى السقطى سأله يوما فقال له : يا ابا القاسم ، ما الشكر فأجابه : الا يستعان بشىء من نعم الله على معاصيه ، فقال له : من اين لك هذا ؟ فأجابه : من مجالستك .

ويقول السادة الصوفية فى الفرق بين الشاكر والشكور ان الشاكر هو الذى يشكر على الموجود ، والشكور هو الذى يشكر على المفقود ، وفى قول آخر الشكور الذى يشكر بماله ينفقه فى سبيل الله يدخره ، ويشكر بقلبه ربه فلا تأتى عليه ساعة الا وهو يذكره ، ويشكره بنفسه فيستعملها فى طاعة الله .

وقد ورد ان مولاما رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ليله فتوضأ ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة ، فقالت له ام المؤمنين سيدتنا عائشة : ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال صلى الله عليه وسلم : أفلا أكون عبدا شكورا؟

ويحكى السادة الصوفية عن امامنا السبط أبو محمد الحسن بن على رضى الله عنهما انه التزم الركن من بيت الله الحرام وقال يناجى ربه : الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا ، وابتليتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أدمت الشدة بترك الصبر ، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم .

ويفهم السادة الصوفية من الاية الكريمة (وهو الذى انشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون) انه تعالى ذكرنا بعظيم منته علينا بأنا خلق لنا هذه الاعضاء وطالبنا بالشكر عليها ، وشكره

عليها هو استعمالها فى طاعته ، فشكر السمع الا تسمع الا بالله ولله ، وشكر البصر الا تنظر الا بالله ولله ، وشكر القلب الا تشهد غير الله والا تحب به غير الله .

ويقول السادة الصوفية ان فضل الله على العبد كما يكون فى جلب النعم يكون كذلك فى دفع النقم ويستدلون بقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رءوف رحيم) وقد جاءت مكررة لمعنى آية سابقة عليها فى سورة النور وهى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) ، وهم يقولون انه مع عظيم جرمهم فى حديث الافك فانه لم ينتقم منهم وأمرهم بعدم العودة الى مثله ابدا (يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين) وبذلك بين لهم سبحانه ان حسن الدفع عنهم كان بفضله وبرحمته وجميل عطائه ، وكثير من يشهد حسن عطائه ويشكر الله عليه ، وقليل من يشهد من ربه حسن الدفع عنه فيحمده على ذلك ، لان العطاء ظاهر جلى ودفع الضرر باطن خفى وقد عبر عنه سيدى الشيخ بقوله : فلطف به لطفه الخفى .

وينبهنا الله سبحانه الى شكره على دفع السوء عنا بقوله الكريم (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ويقول السادة الصوفية فى التعقيب على هذ الآية : لقد بالغ فى الاحسان اليك من كان يظهر لك الغيب من غير التماس أو سبق شفاعة فيك .

أما ما يقوله سيدى الشيخ : فان تفضل على عبده اقدره على حمده وشكره ، فانه يشير به الى ما يقوله السادة الصوفية من تفاوت طبقات الحامدين لتبيانهم فى أحوالهم ، فطائفة حمدوه على مانالوا من انعامه واكرامه من نفعه ودفعه ، وطائفة حمدوه على ما لاح لقلوبهم من عجائب اسراره ومكنونات بره وخفى غيبه ، فهو سبحانه رب العالمين رب الاشباح بوجود النعم ورب الارواح بشهود الكرم ، واعيت نعمة العادين بقوله الكريم (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ومن ذلك ندرك ما أرشدنا اليه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من عجزنا عن حمده تعالى والثناء عليه بما هو أهله حين قال صلوات الله

وسلامه عليه فى مناجاة ربه جل وعلا : (لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك).
وفى عجز الخلق عن حمده بما هو أهله سبحانه يقول الامام القشيرى رضى الله عنه : علم الحق سبحانه وتعالى شدة ارادة أوليائه بحمده وثنائه ، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه ، فاخبرهم أنه حمد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله (الحمد لله) فانتعشوا بعد الذلة ، وعاشوا بعد الخمود ، واستلقت اسرارهم بكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق .

ويقول الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه : ان الله تعالى قرن الشكر بالايمان ، ورفع بوجودهما العذاب فقال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما) ويضيف رضى الله عنه قائلا : وفى أحد الوجوه من قوله عز وجل (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) قال : طريق الشكر ، فلولا ان الشكر طريق يوصل الى الله تعالى لما عول العدو على قطعة ولما قال ابليس اللعين (ولا تجد أكثرهم شاكرين) .
ويقول رضى الله عنه كذلك : والشاكر على مزيد ، والشكور فى نهاية المزيد ، وهو الذى يكثر شكره على قليل من العطاء . ويتكرر منه الشكر والثناء على الشىء الواحد من النعم . وقد قطع الله تعالى . بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فيه ، واستثنى فى خمسة أشياء : فى الاغناء ، والاجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة ، فقال تعالى (فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء) وقال تعالى (فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) وقال تعالى (يرزق من يشاء) وقال تعالى (يغفر لمن يشاء) وقال عز وجل (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) بينما قال تعالى فى الشكر (لئن شكرتم لأزيدنكم) .
وفى الخبر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل : كيف أصبحت ؟ قال : بخير ، فأعاد النبى صلى الله عليه وسلم السؤل ثانية : كيف أنت ؟ قال بخير ، فأعادوا عليه الثالثة : كيف أنت ؟ فقال بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم : (هذا الذى أردت منك) أى اظهار الحمد والشكر والثناء .

ويقول السادة الصوفية ان قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) مع قوله تعالى (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) فيه تنبيه لذوى الألباب الذين وصل لهم القول ليتذكروا ان يذروا ظاهر الاثم شكرا لظاهر التعم ويذروا باطن الاثم شكرا لباطن النعم .

كما يقول السادة الصوفية ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة ، وسبب الجهل بالنعمة تصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المنعم ، وترك التفكر فى نعمه والتذكر لآلائه سبحانه وتعالى مع أنه أمرنا بتذكرها وجعلها سبيلا للفلاح فى القول الكريم (فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) والآلاء هى النعم .

والله تعالى يقول (ان الانسان لربه لكنود) ومعناه انه يشكو المصائب وينسى النعم ، مع أن النعم التى يتقلب فيها أضعاف المصائب التى تحل به . ويرى السادة الصوفية أن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام وكلها نعم من الله تعالى : فهى اما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين ، واما ان تكون كفارة للذنوب ، وهذا لخصوص أصحاب اليمين ، أو تكون عقوبة ، وهذا لكافة من المسلمين ، وتعجيل العقوبة فى الدنيا رحمة ونعمة ، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين .

ويرى السادة الصوفية ان الايمان نعمة كبرى ، ودوام الايمان نعمة أخرى ، فلو لم يرد الله سبحانه دوام الايمان لرجع القلب الى الكفر ، لانه تعالى يقول (يمحو الله ما يشاء ويثبت) أى يمحو ما لا يشاء ثبوته ، ويثبت ما يحب . وقد من سبحانه على فريق المؤمنين فى قوله تعالى الكريم (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) أى قواهم بمدد يثبته ويقويه ، وهو معنى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة) .

ولذلك كان من دعوات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك) فلو قلب سبحانه قلوبنا عن التوحيد كما تقلب جوارحنا فى الذنوب فبأى شىء كنا نطمئن ، فثبات الايمان فى القلوب من كبائر النعم ، ومعرفة ذلك شكر لنعمة الايمان وجهله غفلة توجب العقوبة ، ونعوذ بالله من الغفلات والعقوبات .

ويقول السادة الصوفية ان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفة العبد بتقصيره عن شكر الله شكر ، والاعتذار الى الله من قلة الشكر شكر ، والتواضع بالنعم شكر ، وشكر الخلق والثناء عليهم شكر لله لانهم أسباب المعطى سبحانه وقد جاء فى الحديث القدسى (عبدى لم تشكرنى مالم تشكر من أجريت النعمة لك على يديه) .

وقد علمنى شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه درسا فى الصبر والشكر مما لا أنساه ، وذلك أنى دخلت عليه فى مرضه الأخير فوجدته فى حالة شديدة للغاية وخيل الى أنه يحتضر فقد كان صوته خافتا جدا ، ولكن حمله أدبه العالى أن يخفف عنى ما أحسه من ألمى فقال بصوته الخافت تكلم ، فقلت : ماذا أتكلم يا سيدى ، قال : أى شىء ، قلت : سأتكلم ان شاء الله عندما مقتضى الكلام ، وكان ألمى من حالة الشيخ قد بلغ منتهاه ، فاذا به مع اعيائه يسرى عنى بكلامه معى فيقول رضى الله عنه : له الملك وله الحمد ، عطف سبحانه الحمد على الملك ، والملك يشمل الخير والشر ، وذلك اشارة منه تعالى الى أنه يجب أن يحمده عباده فى الخير والشر على السواء ، ثم سكت الشيخ ولكن كلماته جالت بى فى عالم الملكلوت ونقلتنى من اليأس الى الرجاء ومن الجزع الى الصبر ، ومن القلق الى الرضا ، ومن الرضا الى الحمد فى السراء والضراء ، وبان لى فضل الله على سيدى الشيخ فى صبره وشكره ، وحمدت الله على ادراكه والأخذ عنه ، وذلك حظ جزيل ، لا أستطيع شكر الله عليه الا بالعجز عن شكره ، ولست أفى الشيخ حقه مهما أثنيت عليه ، وكفاه شرفا أنه جمع بين الصبر والشكر ، وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما فى قوله الكريم (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) .

ماشاء الله كان

(وقد خلق مالك الملك خلقه ، وبأمره دار الفلك كما خلقه ، فسير الخلق بما به دار ، فكان لكل خلق قرار ورسالة يقوم بها ، وكل يظن أنه مصيب بفعلها ، مع أن البعض مخطىء والبعض مصيب ، والبعض ناجح والبعض يخيب ، والله هو الفاعل المختار ، فليس لانسان أن يختار أو يحتار) .

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى لتلميذه الصالح المبارك الصديق المرحوم السيد / سالم جمعه ، وهى تمس قضية دقيقة حيرت افهام الناس وهى قضية القضاء والقدر ، وقد أمرنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نخوض فيها حتى لا تزل بنا القدم بعد ثبوتها .

والخوض الذى نهينا عنه هو التدخل فى سلطان الله سبحانه وتعالى والبحث عن حكمته فيما يجرى به قضاؤه أو السخط على المقدور بينما نحن مطالبون بالرضا بما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ، فلا سخط على المقدور ولا اعتراض منا على أمر من الأمور ، بل تسليم مطلق ، ورد الأمور لمشيئته العالية والنافذة سبحانه ، لأنه تعالى مالك الملك والملكوت ، يؤتى ملكه من يشاء ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وكل أفعاله تعالى حسنة ، ولكن قل من يفهم ذلك ، فأكثر الناس يرى أن ما صادف هواه من تلك الأفعال هو الحسنة ، وما خالف هواه هو السيئة ولكنه تعالى يقول (قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) .

وقد يشتبه ذلك القول الكريم على بعض الافهام مع قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ولو درس المؤمن أن السيئة من الله ايجادا ومن أنفسنا اسنادا لزال الاشتباه واستقام الفهم على الوجه الشرعى الصحيح ، ويؤيد ذلك قوله تعالى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شىء قدير) فى حين يقول سبحانه قبل ذلك

(وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نوته منها وسنجزى الشاكرين) .
اذا علمنا ذلك على الوجه الشرعى تبينا معنى ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام (والله هو الفاعل المختار ، فليس لانسان أن يختار أو يحتار) وهو قول رائع كما ترى ، وتتميز روعته فى ضوء ما بينه فى ذلك المقام امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقد سأله رجل عن القدر فقال الامام للرجل : طريق دقيق لا تمشى فيه ، فقال الرجل ، يا أمير المؤمنين : أخبرنى عن القدر ، قال الامام ، بحر عميق لا تخض فيه ، فقال الرجل يا أمير المؤمنين : أخبرنى عن القدر ، فقال الامام : سر خفى لا نفشيه ، فقال الرجل ، يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، وكأنما كان الرجل فى الحاحه هذا محتارا فى القدر ، فقال أمير المؤمنين وأبدع :
ان الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ، فقال ، كما شاء ، فقال الامام : ان الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ، فقال الرجل : كما شاء ، قال الامام للرجل : ألك مشيئة مع مشيئة الله ، أو فوق مشيئة الله ، أو دون مشيئة الله ؟ اما ان قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وان قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيته .
ولامامنا الشافعى رضى الله عنه فى تلك المشيئة الربانية شعر رقيق يناجى فيه ربه تعالى يقول فيه :

وما شئت كان وان لم أشأ — وما شئت ان لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت — ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت — وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقى ومنهم سعيد — ومنهم قبيح ومنهم حسن

أما شيخنا الملهم سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فيقول فى الرضا والتسليم فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

ماذا يضيرك لو رضيت وما علمت الماهيه
واذا عجزت عن الأمور دع الأمور كما هيه
واذا رضيت قضاء ربك لا تخاف القاضيه
انى من التوحيد فى حشرى أمنت الطاغيه
ومنابت الأشواق من ثمر المحبة زاهيه
فنيت به عن غيره فاستمسكت بالباقيه
رضيت فلما أخلصت بقيت وان تك فانيه
شرفت به وتلذذت بشهوده فى عافيه
ان كان جسمى بالفناء سقوفه متداعيه
فالروح بعد فنائه فى الخلد شمس ساميه

وينهانا رضى الله عنه عن البحث فى القضاء فيقول فى الهامه الفورى الرائع :

سلم لأمر الله لا تقف الهوى من سلم الأمر احتواه أمان
ومنازل التسليم خير وقاية ممن يخوض وماله عرفان
ماذا يفيدك أن تعلل رحمة أو أن يكون على القضاء بيان
تعس الذى يبغ الا علة وقضى ولم يسطع له برهان
ومن البلادة أن ينقب عاجز عن سر من من خلقه الأكوان
خذ من حياتك عدة من شرعة ان الشريعة للهدى ميزان

ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الكبير (والد سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما) فى ديزانه :

أفعاله محكمة وقل من يفهمها
يفعل ما يشاؤه لحكمة يعلمها

ويعلق رضى الله عنه على هذين البيتين بقوله تعالى فيقول : ما فرحت بشىء من نظمى قط مثل فرحى بهذين البيتين ، وأرجو أن ينفعانى غدا ان شاء الله تعالى ، وانى أكررهما فى النازلة تنزل بى فينكشف عنى غمها .

ويبين لنا امامنا الشافعى رضى الله عنه أن أرزاق العباد ليست مرتبطة بمواهبهم العقلية بل ترتبط بقضاء الله الذى تخفى عنا أسراره فيقول :

كم من قوى قوى فى تقلبه مهذب الرأى عنه الرزق ينحرف
ومن ضعيف ضعيف الرأى مختلط كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الاله له سر خفى علينا ليس ينكشف

وليس معنى هذا ان يتواكل الناس ولا يتخذون الاسباب فى التكسب بل يجب اتخاذ الاسباب شرعا مع التفويض لله فى نتائجها فى التكسب ، ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك : فلا بد لك من الاسباب وجودا ولابد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث اثبتها تعالى بحكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحديته .

ولعلم الله تعالى بضعفنا البشرى ضمن لنا سبحانه الرزق لئلا تشغلنا أسباب طلبه عن الرازق فقال تعالى مؤكدا عونه فى أرزاقنا (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) وكما كلفنا السعى على ارزاقنا فى الدنيا كلفنا السعى فى طلب الآخرة لنيل رضاه سبحانه فقال تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) ثم بين لنا جل وعلا ان التفاضل فى درجات الآخرة أكبر منه فى ارزاق الدنيا فقال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وبين لنا صورة من صور اسلافنا الصالحين فى السعى للآخرة فقال سبحانه (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه قال هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب) ومن لوازم السعى للاخرة صفاء العبادة والمعاملة .

وقد اجتمع مشايخ حرم الله تعالى على ابى الحسين على بن هندى القرشى الفارسى رضى الله عنه فسألوه عن صفاء العبادة والمعاملة فقال :

(ان للعقل دلالة ، وللحكمة اشارة ، وللمعرفة شهادة ، فالعقل يدل ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد ان صفاء العبادات لا ينال الا بصفاء معرفة أربعة : فاول ذلك معرفة الله تعالى ، والثانى معرفة النفس ، والثالث معرفة الموت ، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد الله ووعيده .

(فمن عرف الله تعالى قام بحقه ، ومن النفس استعد لمخالفتها ومجاهدتها ، ومن عرف الموت استعد لوروده ، ومن شهد وعيد الله ينزجر عن نهيه وينتدب لأمره .

(فمراعاة حق الله تعالى على ثلاثة أوجه : على الوفاء والادب والمروءة ، فاما الوفاء فانفراد القلب بفردانيته والثبات على مشاهدة وحدانيته بنور أزليته والعيش معه ، واما الادب فمراعاة الاسرار من الخطرات وحفظ الاوقات والانقطاع عن الحسد والعداوات ، واما المروءة فالثبات على الذكر نطقا وفعلا وصيانة اللسان وحفظ النظر وحفظ المطعم والملبس ، وينال ذلك بالادب ، لان أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الادب) .

هذا وقد كتب الامام الحسن البصرى الى امامنا السبط الحسن ابن على رضى الله عنهما يسأله عن القضاء والقدر ، فكتب السبط الكريم يقول فى روعة كما ترى :

(من لم يؤمن بقضاء الله تعالى وقدره ، خيره وشره ، فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، وان الله تعالى لا يطاع استكراها ولا يعصى بغلبة ، لانه تعالى مالك لما ملكهم ، وقدر على ما أقدرهم ، فان عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما علموا ، فان لم يفعلوا فليس هو الذى اجبرهم على ذلك ، ولو اجبر الخلق على الطاعة لاسقط عنهم العقاب ، ولو اهملهم فان ذلك عجز فى القدرة ، ولكن الله له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم ، فان عملوا بالطاعة فله المنة عليهم ، وان عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم) .

فاحرص أيها القارىء الكريم على الانتفاع بهذا الكلام النفيس الذى لا يتكلم به الا أهل بيت النبوة ، وهم معدن العلم والمعرفة ، ومصدر البيان والتبيين ، واليك درة أخرى من درر ذلك السبط الكريم رضى الله عنه وعن آله وذويه فقد قال فى تقوى الله واثرها :

(ان الله لم يخلقكم عبثا ، وليس بتارككم سدى ، كتب آجالكم ، وقسم بينكم معايشكم ، ليعرف كل ذى منزلة منزلته ، وان ما قدر له أصابه ، وما صرف عنه فلن يصيبه ، قد كفاكم مؤونة الدنيا ، وفرغكم

لعبادته ، وحثكم على الشكر ، وافترض عليكم واوصاكم بالتقوى ، وجعل التقوى منتهى رضاه ، والتقوى باب كل توبة ، ورأس كل حكمة ، وشرف كل عمل بالتقوى ، فاز من فاز من المتقين ، قال الله تبارك وتعالى (ان للمتقين مفازا) وقال (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) فاتقوا الله عباد الله ، واعملوا ان من يتق الله يجعل له مخرجا من الفتن ، ويسدده فى أمره ويهيىء له رشده ، ويفلجه بحجته ، ويبيض وجهه ، ويعطيه رغبته مع الذين انعم الله عليهم من النبين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

واليك درة ثالثة من درره رضى الله عنه ، لا تقل صفاء عن سابقتيها يقول فيها :

(يا ابن آدم عف عن محارم الله تعالى عابدا ، وارض بما قسم الله تكون غنيا ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما ، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلا .

انه كان بين ايديكم قوم يجمعون كثيرا ويبنون مشيدا ، ويأملون بعيدا ، أصبح جمعهم بورا ، وعملهم غرورا ، ومساكنهم قبورا .

يا ابن آدم ، انك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك ، فجد بما فى يديك فان المؤمن يتزود ، والكافر يتمتع ، وكان رضى الله عنه يتلو عقب كلامه هذا قوله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) .

ونعى سيدى وشيخى على عقل رضى الله عنه على المؤمنين عنايتهم بأمور دنياهم وتهاونهم فى أمور دينهم فيقول فى الهامة الفورى الذى نقلناه عنه :

الناس فى أيامنا سوقة همهم المال ولبس الجديد
يسعون للدرهم فى قوة لا حر يثنى سعيهم أو جليد
وان دعوا الى الصلاة ادعوا ان اشتداد الحرعاق السجود
أخلدوا للركون والنوم حتى فترت همة وطاب قعود
اتركوا غيكم وكونوا جنودا للذى عز فى حماه الجنود
كل شىء يحد غير هواه لم تحطه من القلوب حدود
ليس الغنى من افاد الغنى ان الغنى من نجا بالخلود

واعلم ايها القارىء العزيز ان الله تعالى خلقنا بقدرته من العدم ، فهو اذن غنى عنا وعن طاعتنا ، لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصى ، انما نحن الذين تعود علينا آثار الطاعة ، أو المعصية ، وقد تبين لنا ذلك فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والثواب منه تعالى بمحض فضله ، والعقاب بمحض عدله ، لا يسأل عما يفعل وكيف يسأل من يتصرف فى ملكه بسلطانه ؟

ويقول سيدى الامام جعفر الصادق حفيد امامنا الحسين السبط رضى الله عنهما فى ابداع ظاهر :

ان الله تعالى أراد منا شيئا وأظهره لنا ، وأراد بنا شيئا وطواه عنا ، فلا يجوز ان نشتغل بما أراده بنا عما اراده منا .

ويقول العارفون ان الله تعالى يبعث الخلائق يوم القيامة فيسألهم عما طلبه منهم ولا يسألهم عما قضاه عليهم .

ويروى لنا سيدى سفيان الثورى رضى الله عنه حديثا عن سيدنا عبد الله بن مسعود يقول فيه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا ترضين احدا بسخط الله تعالى ، ولا تحمدن احدا على فضل الله عز وجل ، ولا تذمن احدا على مالم يؤتك الله تعالى ، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهة كاره ، وإن الله تعالى بعدله وقسطه ، جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط) .

أقول وانما يحمد العبد ربه على نعمتين ، على نعمة الايجاد ، وعلى ونعمة الامداد ، ولابد لكل مخلوق منهما ، ولذلك علمنا سبحانه حمده فى فاتحة الكتاب ، وأمرنا مع ذلك ان نشكر من جرت نعمة الله لنا على يديه (ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) فالحمد مختص بالله وحده والشكر يكون له سبحانه ولعباده الذين تجرى على ايديهم نعمه ، وقد ورد فى الحديث القدسى : (عبدى لم تشكرنى مالم تشكر من أجريت النعمة لك على يديه) .

وينبهنا السادة الصوفية الى مسألة دقيقة فى الرضا بالقضاء فيقولون ان واجب العبد ان يرضى بالقضاء الذى أمره الله ان يرضى به ،

اذ ليس كل ما هو بقضاء الله يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به ، فلا يجوز مثلا أن يرضى بالمعاصى كما لا يجوز له ان يرضى بالمحن التى تصيب المسلمين فيجب أن يترك المعاصى ويدعو بكشف الضر عن المسلمين .

وقد سأل تلميذ استاذه : هل يعرف العبد ان الله تعالى راض عنه ؟ فقال لا ، كيف يعلم ذلك ورضاه غيب ؟ فقال التلميذ : بل يعلم ذلك ، فقال : وكيف ؟ فقال : اذا وجدت قلبى راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عنى فقال الاستاذ : احسنت يا غلام .

ويقول السادة الصوفية : من أراد أن يبلغ محل الرضا فيلتزم ما جعل الله رضاه فيه . كما يقولون : الرضا على قسمين رضا به سبحانه ورضا عنه ، فالرضا به ان يرضاه العبد مدبرا ، والرضا عنه يرضى العبد بما قضاه تعالى . وقد عرفوا الرضا فقالوا : هو سكون القلب الى أحكامه وموافقة القلب بما رضى الله به واختاره لعبده . وقد سئلت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها : متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : اذا سرته المصيبة كما سرته النعمة .

وقد قيل لامامنا السبط الحسين بن على رضى الله عنهما : ان ابا ذر يقول : الفقر أحب الى من الغنى والسقم أحب الى من الصحة ، فقال : رحم الله ابا ذر ، اما انا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له ، لم يتمن غير ما اختاره الله عز وجل له ، ولا تعجب ان يقول ذلك امامنا الحسين السبط ، فقد مات له ابن من ابنائه فلم ير الناس عليه جزعا فسألوه فى ذلك فقال ، وما أبدع ما قال : نحن اهل البيت نسأل الله فيعطينا فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا .

وقد سئل أبو عثمان الصوفى رضى الله عنه عن قول النبى صلى الله عليه وسلم (اسألك الرضا بعد القضاء) فقال لان الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

وما أهنأ أهل الرضا والرضوان من المؤمنين الذين قال تعالى فيهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) .

الفرج بعد الشدة

(وإنى أتوكل عليه سبحانه موقنا بربوبيته وعجيب قدرته وأنه يقول للشىء كن فيكون ، فكم ضاق أمر وكاد العبد أن ييأس من الفرج ولكن سرعان ما يأتى الفرج القريب بأعاجيب قدرة المولى جل وعلا وهنا يتجلى الايمان به ويظهر صدق التوكل عليه) .

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق المرحوم السيد – سالم جمعة وهى كما تراها تفتح للمؤمن باب الرجاء وتغلق عنه باب اليأس وتبين ان الرجاء فى الله تعالى مظهر من مظاهر صدق التوكل عليه سبحانه وقوة اليقين به وأن انتظار الفرج بعد الشدة عبادة من عبادات المؤمنين المخلصين .

ويقول السادة الصوفية : على العبد فرض ان يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه من حيث فضله وكرمه لا من حيث نظر العبد الى صفات نفسه ولؤمه . كما يقولون : ان الرجاء هو أول مقام من مقامات اليقين عند المقربين وهو ظاهر أوصاف الصديقين ، ونور اليقين بالله عندهم يفوق نور الشمس المشرقة ومن كلامهم فى هذا المعنى :

هذه الشمس قابلتنا بنور

ولشمس اليقين أبهر نورا

فرأينا بهذه النور لكن

بهاتيك قد رأينا المنيرا

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : على قدر قربهم من التقوى أدركوا ما أدركوا من اليقين ، وأصل التقوى مباينة النهى (أى الانتهاء عما نهى الله عنه) . ومباينة النهى مباينة النفس (أى مخالفة هواها) فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا الى اليقين .

والله سبحانه وتعالى يبتلى عبده بأنواع من البلايا ليمحصه بالصبر ويحمله بها على اليقين به سبحانه والتوكل عليه فى كشف ضره ، ويقول امامنا على ابن ابى طالب كرم الله وجهه : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ويقول سيدى أبو القاسم الحكيم رضى الله عنه فى قوله تعالى (واصبر وما صبرك الا بالله) اصبر ، أمر بالعبادة ، وما صبرك الا بالله ، عبودية ، فمن ترقى من درجة لك أى من درجة الصبر لله ، الى درجة بك (أى الصبر بالله) فقد انتقل من درجة العبادة الى درجة العبودية .

ومن تمام عبوديته صلى الله عليه وسلم انه كان يقول : بك احيا وبك أموت ، وكان ابن شبرمة رضى الله عنه اذا نزل به بلاء قال : سحابة ثم تنقشع ، وقال ابن عيينة رضى الله عنه فى قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون) لما أخذوا برأس الامر (يقصد الصبر) جعلناهم رؤساء (أى أئمة) .

والصبر حده الا تعترض سرا أو جهرا على تقدير ربك الذى أجراه عليك وسيدنا أيوب عليه السلام حين قال (أنى مسنى الضر) لم يكن متبرما بالقضاء وانما كان متضرعا بالدعاء ولذلك وصفه ربه بالصبر الجميل وقال فى حقه عليه السلام (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) والاواب هو التواب الرجاع الى الله فى همة قوية : وقد جعل الله له ، عليه السلام ، فرجا من شدته حين قال له (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فضرب الارض برجله فأخرج الله الماء بقدرته فاغتسل وشفاه الله وشرب فرواه الله وكان بينه وبين الشفاء والرى ضربة الارض باذن الله وسبحان من ملك (باللام المخففة) وملك (باللام المشددة) وسبحان من ابتلى وعافى وأنعم بالصبر وأثاب فى الدنيا بالفرج القريب وفى الآخرة بالاجر العظيم ، وفى الخبر ما من عبد الا يعطى أجره بحساب وحد الا الصابرين فانهم يجازفون مجازفة بغير ميزان ولا حد .

وكان الامام سهل التسترى رضى الله عنه يقول : الصالحون فى المؤمنين قليل ، وأحسن الناس صبرا عند المصائب أكثرهم يقينا ، وأكثر الناس جزعا وسخاطا فى المصائب أقلهم يقينا ، ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم (أسألك من اليقين ما تهون به مصائب الدنيا)

وفى تفضيل الصبر على الشكر يقول السادة الصوفية ان الله تعالى جعل الشكر له والعباده فى قوله تعالى (أن اشكر لى ولوالديك) ولم يجعل معه فى الصبر من خلقه أحدا فقال تعالى (ولربك فاصبر) وقال (واصبر لحكم ربك) .

ومن لطف الله تعالى بعباده أنه ابتلى أكرم الناس عليه واقربهم زلفى لديه وهم سادتنا الانبياء والمرسلون عليهم صلوات الله وسلامه وكذلك الأولياء الأصفياء وفى ذلك تسلية لعامة المؤمنين الذين هم أضعف قوة فى حمل أعباء البلاء ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه (نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل) وفى ذلك تنفيس على المكربين من عامة المؤمنين .

ويقول الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه فى كتابه (المسائل) أن التفويض من خالص التوكل على الله عز وجل للثقة به والمعرفة بنفاذ قدرته ورحمته ورأفته ، والمريدون فى ذلك رجلان :

رجل اعتقد من قلبه أنه ألجأ أموره كلها الى الله ، متبرئا من الحول والقوة من نفسه ومن الخلق ، الا الى الله تعالى ، ولا ينتظر لطفا ولا صنعا الا من عنده ، قد طابت وسخت نفسه بإلجائه الامور الى مولاه .

والرجل الثانى اعتقد فى قلبه انه لا أمر له ولا حول ولا قوة ، ولكن ربه مالك نفسه وجميع أموره فيقول فى نفسه : الامور كلها لله ، وبالله تكون وتتصرف ، فألجأت الامور كلها لله عز وجل وأنا منتظر ما يقضى ويقدر .

ويضيف الامام المحاسبى قائلا : والمفوض مكتف مستريح ، ألم تسمع مولاى وهو يخبر عن العبد الصالح حين فوض أمره اليه سبحانه (وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد) ثم قال الله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) .

ويعرف السادة الصوفية الرضاء فيقولون : هو أن يكون العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل .

ويقول سيدى ابن عطاء رحمه الله : ان الرضا يكون من نظر القلب الى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، فيعلم

ان الله تعالى اختار لـه الافضل (فيما يراه الله بعلمه) فيرضى به ويترك السخط . ويحكى سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه فيقول دخلت على مريض أعوده فبينما كان يكلمنى أن أنة ، فقلت له : ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه ، فقال : ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه .

ويقول السادة الصوفية كذلك ان علامة الصوفى الصادق ترك الشكوى واخفاء أثر البلوى ، وهو مقام الصديقين ، ويسترعى السادة الصوفية انتباهنا الى قوله تعالى فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ويعقبون على تلك الآية الكريمة فيقولون :

موضع التشديد فى هذه الآية ان الله تعالى أقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم ثم ان وجدوا فى أنفسهم حرجا ، يعنى فى قلوبهم وأسرارهم وباطنهم ضيقا ، أو كراهة فى حكمه لو أنه حكم عليهم بالقتل ، فقد خرجوا من الايمان ، وأقسم الله على خروجهم عن الايمان ، فلو قسنا على ذلك ما أمرنا الله به من الصبر على أحكام الله عز وجل ، والرضا بما قسم لنا من الاخلاق والارزاق والآجال لم نجد معنا ومع كثير من الناس ذرة من الايمان ، ولولا رجاء الخلق فى سعة رحمة الله تعالى لهلكوا بذلك .

ولسيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى (والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما ، حكمة يقول فيها شعرا :

سلم لربك ما قضى   واصبر اذا آشتد الحرج

وأذكر حديث المصطفى   الصبر مفتاح الفرج

والقرآن الكريم يؤيد الحديث الشريف الذى تضمنته الحكمة السابقة فى مواضع كثيرة من آيات الله البينات من مثل قوله تعالى (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب) ومثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها

وكان الله بما تعملون بصيرا * اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) ثم انظر كيف كان سيدنا يعقوب عليه السلام قوى اليقين بالله حين قال لبنيه (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) وكان بعد ذلك ان دخلوا مصر وتعرف عليهم سيدنا يوسف عليه السلام (قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتقى ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) .

وها أنت ذا ترى أن سيدنا يوسف رد الفرج الذى من الله به عليه وعلى آله إلى شيئين هما التقوى والصبر ، فكان الفرج أجر الاحسان فيهما ، وللسادة الصوفية دقة فى فهم قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) فيقولون : اتقوا الله بجميع استطاعتكم فلا يدخر المؤمن مجهودا مستطاعا الا بذله فى مرضاة ربه ، وهم يقولون ان التكاليف الشرعية كلها فى حدود استطاعتنا لانه تعالى لم يكلفنا الا ما نستطيعه لانه حكيم فلا يكلف النفوس فوق طاقتها .

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) الرضا فى الدنيا تحت مجارى الاحكام يورث الرضوان فى الآخرة بما جرت به الاقلام ، وهم يروون عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قوله : ما أبالى على أى الحالين وقعت ، على غنى أو فقر ، ان كان فقيرا فان فيه الصبر ، وان كان غنى فان فيه الشكر ، ويعقبون على كلامه المتقدم فيقولون : ذهب عنه التمييز بين الارفق وضده ، وغلب عليه رؤية ما للحق سبحانه من الصبر والشكر . كما يروى السادة الصوفية عن سيدنا أبى الدرداء رضى الله عنه قوله : أحب الموت اشتياقا الى ربى ، واحب المرض تكفيرا لخطيئتى ، وأحب الفقر تواضعا لربى . ويقول سيدى أبو بكر بن عبد الله رضى الله عنه : فى المحن ثلاثة أشياء ، تطهير وتكفير وتذكير ، فالتطهير من الكبائر والتكفير من الصغائر والتذكير لاهل الصفاء .

ويقول سيدى سهل التسترى رضى الله عنه : أول مقام فى المعرفة أن يعطى العبد يقينا فى سره تسكن به جوارحه ، وتوكلا فى جوارحه

يسلم بـه فـى دنياه ، وحياة فـى قلبـه يفـوز بهـا فـى عقبـاه ، أقـول وهـؤلاء العـارفون الاوفيـاء الاتقيـاء الاصـفياء هـم حـزب الله وهـم المفلحـون كمـا أخبـر سبحانه عنـهم ، ولله در القائـل فـى وصف أحدهم :

مريد صفا منه سر الفؤاد

فهام به السر فى كل واد

ففى أى واد سعى لم يجد

له ملجأ غير مولى العباد

صفا بالوفاء وفى بالصفا

ونور الصفا سراج الفؤاد

أراد ما كان حتى أريد

فطوبى له من مريد مراد

ويقول سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه فى محبة الله لاهل الابتلاء :

ياصاحب البلوى دع الشكوى الى

غيرالاله وامتثل حكم الاله

واشكره فهى نعمة اذ قد أتـى

اذا أحب الله عبدا ابتـلاه

وفى الحديث الشريف : (اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه وان رضى اصطفاه).

ويقول سيدى القطب الكبير عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه فى التسليم لأمر الله تعالى :

لا الامر أمرى ولا التدبير تدبيرى

ولا الامور التى تجرى بتقديرى

لى خالق رازق ما شاء يفعل بى

أحاط بى علمه من قبل تصويرى

أما سيدى على البيومى سلطان الموحدين رضى الله عنه فيقول :

كل له ورد يكـون وسيـلة

لمعاشه ومعـاذه ومعـاده

وجعلت وردى فى الخروج عن السوى

وأكون مع مولاى تحت مراده

وأما سيدى وشيخى الشيخ على عقل فيقول فى ثباتـه عند الاحداث والتزامـه اليقين والتقوى ، مما نقلناه عنه من الهامه الفورى :

علمونى كيف المسير الى الله

وقالوا خذوا الرضا تيجانا

نتنادى الى اليقين هلموا

وبهذا لربنا نتدانى

قد نشأنا على اليقين صغارا

وكبرنا وما جهلنا المكان

ونطقنا وما نطقنا بهجر

بل جعلنا تقواه منا لسانا

وادخرنا اليقين للحشر ذخرا

وملأنا من الثبات جنانا

ولبسنا من الحياء شعارا

وجعلناه فوقنا طيلسانا

قد علمنا أن المحبة كنز

كل من صانها سما بنيانا

وهو فيما يقول يعلمنا رضى الله عنه ان المحبة تقضى الرضا والتسليم فمن شكا من بلاء نـزل به خرج بشكواه عن حال المحبين من السادة الصوفية الذين يقول أحدهم : لو قطعنـى البلاء اربا اربا ما ازددت الا حبا حبا وأنشد بعضهم :

فلو قطعتنى فى الحب اربا

لما حن الفؤاد الى سواك

وقد ذهب شيخ من الصوفية الى تلميذ من تلاميذه ليعوده فى مرض أصابه فقال التلميذ لشيخه : انى طريح الفراش هكذا منذ أربعة أشهر فقال له شيخه معلما ومرشدا : أحصيت أيام البلاء فهل أحصيت أيام الرخاء فدله بارشاده على أن ينظر الى العافية التى متعه الله بها سنوات طوال بدل ان يشكو من علته فى مدة قصيرة اذا قيست بسنوات العافية .

ومن الرضا عند أهل الرضا الا يقول العبد هذا يوم شديد الحر ، ولا هذا يوم شديد البرد ولا يقول : الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم وتعب ، بل يرضى ويسلم ويطمئن الى حسن التدبير ولطف التقدير ، ويقول سيدى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت ومالى سرور الا فى انتظار مواقع القدر .

والرضا يكون فى المصائب والشدائد التى تصيب العبد ، ولا ينبغى ان يرضى العبد بالمعايب ويقول انها من تقدير الله على عبده مع أن الله نهاه عنها وحذره منها ، وقد ذم الله المتخلفين عن جهاد الاعداء فقال تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى مع النساء ثم قال (وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) وذم من تمتع بمتاع الدنيا ونسى العمل للآخرة فقال تعالى (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) .

ويضرب لنا امامنا أبو عبد الله الحسين السبط رضى الله عنه أروع مثل فى الثبات عند الشدائد وفى اللجواء الى الله فى تفريجها فيقول مناجيا ربه وقد أحاط به جيش الطاغية ابن زياد فى واقعة كربلاء المشؤومة :

اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وانت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو انزلته بك وشكوته اليك رغبة منى اليك عمن سواك ففرجته وكشفته ، فأنت ولى كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة الهى أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

وكان أبوه الامام على كرم الله وجهه يدعو عند كل شدة بهذا الدعاء : (يا كيعص) أعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ، وأعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحرم ، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث السماء ، وأعوذ بك من الذنوب التى تديل الاعداء ، انصرنا من ظلمنا) .

والسادة الصوفية مع الرضا والتسليم يلجأون فى الشدائد الى الله تعالى بالدعاء لكشف الضر عنهم ، وقد قالوا فى تعليل الدعاء مع التسليم : الدعاء مظهر للعبودية فالداعى يزين جوارحه بدعاء ربه ، كما أن الدعاء ائتمار بأمر الله تعالى وهو القائل (ادعونى استجب لكم) وفى ذلك المعنى قيل :

أدعوك رب كما أردت تضرعا

فاذا رددت يدى فمنذا يرحم

وقد قال رجل لسيدى ذى النون المصرى رضى الله عنه : زودنى كلمة ، فقال له :
(لا تؤثرن الشك على اليقين ، ولا ترض من نفسك بغير التسكين وان تأتك نائبة الدهر فتحملها بحسن الصبر ، وارم بآمالك نحو الدائم الخبير تجده بآمالك قائما ، واغتنم مواصلة الله تعالى فان لله تعالى عبادا ألفوه فاستأنسوا به ، وعرفوه فأملوه على معرفته ، ووصلوه على عين يقين ، فسمت أبصارهم نحو عظيم ، جليل قدرته ، فسقاهم من حلاوة مواصلته ، والعقهم من لذاذة مخالصته ، فلبكائهم حول العرش دوى ، ولدعائهم حنين تتقعقع أبواب السماء لسرعة تفتحها لا جابة دعائهم .

ومن دعاء الامام الجنيد رضى الله عنه :
أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع اشتدت اليك فاقته ، وانزل بك على قدر الضرورة حاجته ، وعظمت فيما عندك رغبته

وعلم الا يكون شىء الا بمشيئتك ، ولا يشفع شافع اليك الا من بعد اذنك ، فكم من قبيح قد سترته ، وكم من بلاء قد صرفته ، وكم من عثرة قد اقلتها وكم من زلة قدغفرتها بها ، وكم من مكروه قد رفعته وكم من ثناء قد نشرته ، أسألك يا سامع أصوات المستغيثين ، وعالم خفى أضمار الصامتين ، وأنت المطلع فى الخلوات على أفعال المتحركين وناظر الى ما دق وجل من آثار الساعين ، أسألك الا تحجب بسوء فعلى عنك صوتى ، ولا تفضحنى بخفى ما اطلعت عليه من سرى ، ولا تعاجلنى بالعقوبة على ما علمته من خلواتى ، وكن بى فى كل الاحوال رافقا ، وعلى فى كل الاحوال عاطفا ..... .

ويقول سيدى القطب الكبير الامام عبد القادر الجيلانى قدس سره فى الاستغاثة بالله عند الشدائد :

يا من تحل بذكره عقد النوائب والشدائد
يا من اليه المشتكى واليه أمر الخلق عائد
يا حى يا قيوم يا صمد تنزه عن مضاده
أنت العليم بما بليت به وأنت عليه شاهد
فرج بحولك كربتى يا من له حسن العوائد
فخفى لطفك يستعان به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبب والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجا قريبا ياالهى لا تباعد
يا ذا الجلال وعافنى مما من البلوى أكابد
هذى يدى وبشدتى قد جئت يا مولاى قاصد
فلكم الهى قد شهدت لفيض لطفك من عوائد
ثم الصلاة على النبى وآله الغر الاماجد
وعلى الصحابة كلهم ماخر للرحمن ساجد

فأما سيدى العارف بالله الشيخ احمد الحلوانى الكبير فيقول فى استغاثته من قصيدته المستغيثة :

يا عدتى فى كربتى	**وصاحبى فى فى غربتى**
وحافظى فى شدتى	**ويا ولى نعمتى**
انجز قضاء طلبتى	**ولذتى ببغيتى**
وسق الى حاجتى	**ولا تطل تشتتى**
أجب أجب لى دعوتى	**فأنت أنت عمدتى**
وليس تحت حليتى	**سواك يا أمنيتى**
ولا بحلولى طلبتى	**تقضى ولا بقوتى**
يا عالما بقصتى	**آغث آغث بسرعة**
بجاه سمح الملة	**آذكى البرايا المخبث**
وصل كل برهة	**عليه . حتى الساعة**
وعم كل ا لامة	**وازفف له تحيتى**

وكيف لا يغيث الله المستغيث به وهو سبحانه وتعالى القائل (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون) .

المحبة فى الله تعالى

(وقد حملنا لك حبا كله لله ، يتصل بالدم والعظم والجسم لا نبغى به الا وجه الله تعالى ، لانه حب الاخوة فى الله تعالى ، فمن هذا الحب ومن القلب اهديك سلاما لا تشوبه شائبة من هوى النفس ، واشكر لكم مكاتبتكم التى تدل على صفاء القلب بل صفاء الحب فى الله تعالى).

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق الوفى التقى المرحوم السيد / سالم جمعة ، وهى سطور نور تضىء لنا سبيل المحبة فى الله تعالى فى صفاء لا تشوبه شائبة من غرض دنى يجعل المحبة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا كمحبة أهل الدنيا المعلولة .

والمحبة فى الله تعالى تقتضيها الاخوة التى أقامها الله بين المؤمنين مع اختلاف أوطانهم واجناسهم فى قوله الكريم (انما المؤمنون اخوة) وفى قوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقد من سبحانه علينا نحن المؤمنين بالتأليف بين قلوبنا على بساط المحبة فى الله تعالى وبين لنا أن ذلك التأليف نعمة منه عز وجل فقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) فالجماعة رحمة والفرقة عذاب ويد الله مع الجماعة .

والمحبة فى الله تعالى عامة وخاصة ، فالعامة تكون لعامة المسلمين والخاصة تكون لخاصتهم من الوالدين والاقربين والاساتذة والشيوخ المربين والانبياء والمرسلين ، وتلك المحبة الخاصة تتفاوت بتفاوت النفع الاخروى ، فكلما كان نفع المؤمن فى طريق آخرته أكبر كان حبه لمن انتفع منه أقوى ، فحب المؤمن لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى من حبه لوالديه بل ومن حبه لنفسه ، وقد قيل لبعضهم

لم تحب شيخك أكثر من حبك لابيك ؟ فقال : أبى سبب حياتى الفانية وشيخى سبب حياتى الباقية .

وقالوا فى ذلك شعرا :

أقدم استاذى على حق والدى
وان نالنى من والدى العز والشرف
فهذا مربى الروح والروح جوهر
وذاك مربى الجسم والجسم كالصدف

ومن حق الله على عبده المؤمن أن يحب حبيبه ويعادى عدوه لانه ليس من محبة الله أن تحب من يبغضه الله أو تبغض من يحبه لان ذلك من أقوى شواهد المخالفة . وقد ناجى بعض المؤمنين ربه فاستند فى مناجاته الى محبة أحباب الله فقال مناجيا :

ادعوك يارب مضطرا على ثقة
فما وعدت به المضطر يدعوكا
حان الرحيل وما أعددت من عمل
الا محبة اقوام أحبوكا

وكأنه فى مناجاته يشير الى ما جاء فى الحديث الشريف ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال له : ما أعددت لها ؟ قال : ما اعددت لها كثير صوم ولا صلاة الا محبة الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ، قال أنس رضى الله عنه : فما فرحنا بشىء بعد الإسلام فرحنا بقوله صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب لانه رضى الله عنه كان والسادة الصحابة واثقين من محبتهم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد حكوا ان الامام الشاذلى رضى الله عنه استمع وهو فى هودجه الى اثنين من تلاميذه الذين صحبوه الى بلادنا العزيزة فقال احدهما لصاحبه ان فلانا اساءك فلاطفته مع اساءته لك فأجابه انى تذكرت قول القائل.

رأى المجنون فى البيداء ذئبا
فجر له من الاحسان ذيلا

فلا موه على ماكان منـه

وقالوا قد انلت الذئب نيلا

فقال دعوا الملامة ان عينى

رأتـه مرة فى حى ليلـى

قالوا فما كاد سيدى ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنـه يسمع البيت الاخير حتـى اهتز طربا وأخذ يكرره وهو يتمايل يمنـة ويسرة ، وكأنـه أراد ان يعلمنـا التسـامح مـع عبـاد الله المؤمنين ارضاء لرب العالمين فلا نقابل السيئة بالسيئة بل نعفو ونصفح ان لم نستطع ان نقابل السيئة بالحسنة .

ويقـول الامـام الغزالـى رضـى الله عنـه فـى (الاحيـاء) ان حـب الله تعـالى اذا قـوى غلـب علـى القلب واستولى عليـه حتـى انتهـى الـى حد الاستـهتار فيتعدى الـى كل موجود سواه ، فـان كل موجود سواه أثـر من آثـار قدرتـه ، لـذلك كـان صلـى الله عليـه وسلم اذا حمـل اليـه باكورة من الفواكه مسح بها عينه وأكرمها وقال انـها قريب عهد بربها .

ويستطرد امامنـا الغزالـى رضـى الله عنـه قائلا فـى المحبـة الخالصـة لوجـه الله تعالـى : ومـا من مؤمن محب للآخرة ومحب لله الا اذا أخبر عن حـال رجلين احدهما عالم عابد والاخر جاهل فاسق فوجد فى نفسه ميلا الى العالم العابد ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف ايمانـه وقوتـه وبحسب ضعف حبه لله وقوتـه ، وهذا الميل حاصل وان كان غائبين عنه بحيث يعلم انـه لا يصيبه منهما خير ولا شر فـى الدنيا ولا فـى الاخرة ، فذلك الميل هو حب فـى الله ولله من غيـر حظ . فانـه انمـا يحبـه لأن الله يحبـه ولانـه مرضـى عنـد الله تعالـى ولأنـه يحـب الله تعالـى ولانـه مشغول بعبادة الله تعالـى ، الا أنـه اذا ضعف لم يظهر اثره ولا يظهر بـه ثـواب ولا أجر ، فـاذا قوى حمـل علـى المـوالاة والنصرة والـدفاع بـالنفس والمـال واللسـان ، ويتفـاوت النـاس فيـه بحسب تفاوتـهم فـى الحب الله عز وجل .

ويضيف رضـى الله عنه قائلا : ولو كان الحب مقصورا على حظ ينـال من المحبـوب فـى الحـال أو المآل لما تصورنا حب الموتى من العلماء والعباد ومـن الصحابة والتـابعين بـل مـن الانبيـاء المنقرضين صلوات الله عليهم

وسلامه عليهم أجمعين، وحب جميعهم مكنون فى قلب كل مسلم متدين ، ويبين ذلك بغضبه طعن اعدائهم فى واحد منهم وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم ، وكل ذلك حب لله لانهم خواص عباد الله .

ويقول الوزير لسان الدين بن الخطيب فى كتابه القيم (التعريف بالحب الشريف) ما نصه :

(فمن علامة محبة الله محبة كل من أحبه الله ومن اختصه الله وقربه أو نص كتابه على محبته اياه ، من ملك ونبى ، ورسول وولى ، ومؤمن وتائب ، ومتطهر ومحسن ومجاهد ، ومثلهم ممن أشاد بمزيته وفضل منزلته .

(وتتفاضل الوسيلة بحسب منزلة المحبوب الثانى من الحبيب الأول ، فلا وسيلة اذن اعظم ولا أنجح من حب أحب أحباب الله وهو سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، ولذلك يقول سيدى محمد بن أبى المجد :

الا يا محب المصطفى زد صبابة

وضمن لسان الذكر منك بطيبه

ولا تعبأن بالمبطلين فانما

علامة حب الله حب حبيبه

ويقول صاحب روضة التعريف رحمة الله تعالى :

(ان محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على انحاء ، قيل معناها اتباعه (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) وقيل اعتقاد نصره والدفاع عن سنته واجتناب مخالفته والانقياد لامره ، وقيل دوام ذكره ، وقيل ايثاره وقيل الشوق اليه ، وقيل وجوب مناصحته (اذا نصحوا لله ورسوله) وقيل توقيره وتعظيمه (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) وقيل احترام أهل بيته (قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى) وقيل رعاية أزواجه (وأزواجه أمهاتهم) وقيل الصلاة عليه (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقيل

زيارة قبره ، ويلحق بمحبته صلى الله عليه وسلم محبة أصحابه وخلفائه ومحبيه وقد ورد فى ذلك كله من الاحاديث الصحيحة ما هو مشهور .

وانى أقول ان المحب يجب أن تجتمع فيه كل المعانى المتقدمة التى عددها صاحب روضة التعريف فى معنى المحبة ، لانها جميعا تأتلف ولا تختلف ويشد بعضها بعضا ، وهى فروع لاصل المحبة فى الله تعالى والترابط بينها قائم على الدوام .

ويقول صاحب روضة التعريف أيضا .

واما عداوة العدو وبغضه البغيض فلازم منه ما لزم من ضده مع اختلاف قصده ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوم غضب الله عليهم) وقال تعالى (افتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) ويقول الشاعر :

صديقى من يصافى من اصافى
ويرمى بالعدواة من رمانى

ويقول الاخر :

انما المخلص عندى
فى ولائى ووداى
من يوالى من أوالى
ويعادى من اعادى

وعلامة محبة الله ورسوله انما هى الطاعة ، فيأتمر المؤمن المحب بأوامر الله وينتهى بنواهيه سبحانه ، وقد سئل الامام الجنيد رضى الله عنه عن علامة المحبة فقال : لا تستثقل اتباع أوامره واجتناب نواهيه . ولا تدل معصية الله على عدم محبته وانما تدل على عدم كمال المحبة ، ومن ذلك ندرك معنى دعاء سيدى الامام ابى الحسن الشاذلى فى حزبه الكبير حين يقول : واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ، فالاحسان لا ينفع مع البغض منك ، والاساءة لا تضر مع الحب منك ، وقد ابهمت الامر علينا لنرجو

ونخاف فآمن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا ، فليس كرمك مخصوص بمن أطاعك وأقبل عليك ، بل هو مبذول بالسبق منك لمن شئت من خلقك وان عصالك واعرض عنك .

أقول : وقد اشترك عبدان فى المعصية ، آدم عليه السلام ، وابليس عليه اللعنة ، فاصطفى الله آدم فى قضائه وغفر له ، وجعل لعنته الدائمة على ابليس والعياذ بالله ، وكذلك من علامات محبة الله تعالى مداومة ذكر المحبوب سبحانه ، ويقول سيدى يحى بن معاذ الرازى : ماولع المريد بذكر شىء الا استفاد منه محبة ذلك الشىء ، وأنشدوا فى ذلك شعرا .

خطرات ذكرى تستثير مودتى

واحس منها فى الفؤاد دبيبا

لا عضو لى الا وفيه صبابة

فكأن أعضائى خلقن قلوبا

والذكرون الله كثيرا ينجذب بعضهم لبعض بحكم التجانس القائم بينهم والتقاء أرواحهم على بساط محبته سبحانه وتعالى ، ويحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها ، ويتمنون الخير لجميع المؤمنين ، ولا يحتقرون احدا منهم بذنب أو غفلة . ولكل مسلم على اخيه عشرة حقوق وهى : ان يسلم عليه اذا لقيه ، ويجيبه اذا دعاه ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويشهد جنازته اذا مات ، ويبر قسمه اذا أقسم عليه ، وينصح له اذا استنصحه ، ويحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنه ، ويحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه .

وقد قالوا فى معنى وصفه تعالى للسادة الصحابة رضوان الله عليهم (رحماء بينهم) يعنى متوادين بينهم ، يدعو صالحهم لطالحهم ، واذا نظر الصالح الى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه واغفر له ، واذا نظر الطالح الى الصالح قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به .

وقد سئل امامنا على بن أبى طالب عن بعض الصحابة فقال عن أيهم تسألون ؟ قالوا عن سلمان ، قال ادرك علم الاولين والآخرين ،

قالوا فعمار ؟ قال : ملىء ايمانا الى مشاشه ، قالوا : حذيفة ، قال صاحب السر اعطى الكشف عن المنافقين . وها أنت ذا تراه كرم الله وجهه قد ذكر كلا منهم بما حباه الله به ولم يحسده على ما آته الله من فضله والله تعالى يقول (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) كما يقول (ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب) ويقول على لسان لقمان عليه السلام (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك أن ذلك من عزم الامور) .

والسادة الصوفية ليس لهم شغل سوى القيام بحقه تعالى ، وذلك تراهم يقطعون العلائق والعوائق والشواغل التى تشغلهم عنه سبحانه لان طريقتهم تقوم على فراغ القلوب لخالقها جل وعلا ، حتى لقد كان الامام الشبلى رضى الله عنه يقول لتلميذه الحصرى فى ابتداء امره ان خطر ببالك من الجمعة الى الجمعة الثانية التى تأتينى فيها غير الله تعالى فحرام عليك ان تحضرنى . كما ان السادة الصوفية يقولون : مالم يستو عند المريد قبول الخلق وردهم لا يجىء منه شىء ، بل أضر الأشياء له الاشتغال بالناس لانه علامة الافلاس .

هذا واللغة التى خاطب بها سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه تلميذه الصالح السيد . سالم جمعة هى لغة الحب الخالص لله وفى الله بين الشيخ وتلميذه ولا شك ان سيدى الشيخ كتب كلماته من وجدانه الصادق وحبه الخاص وهو ما أهنىء به صديقى الحميم واخى فى الله تعالى السيد /سالم جمعة زاده الله من فضله ، وقد قال السادة الصوفية : ان قبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته ومن رده قلب شيخه يرى علامة ذلك لا محالة ، ولو بعد حين .

ولا يفهم القارىء العزيز من ذلك انه يجب على المريد ان يعتقد العصمة فى شيخه فان العصمة واجبة للرسل الكرام والأنبياء العظام ، وانما الشيخ محفوظ بعناية ربانية تؤهله لقيادة المريدين فى التربية الطريقية ، وعلى المريد أن يحسن الظن بشيخه ويدع ما لا يفهمه من أحواله لله مادام الشيخ يربيه على آداب الكتاب والسنة والجماعة

بلسانه وقلبه وهى محبة شاقة وان بدت للمريد انها سهلة حين يجنى ثمارها يانعة وهى دانية القطوف ، وما درى ان شيخه حمل عنه المشقات حين أنزله منازل القربات (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين) . وليس ذلك مقصورا على ذرية الصلب انما هو شامل لذرية الروح (يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيميه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) أما ذرية ابليس فيقول تعالى محذرا منها ومنه (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) .

وكيف يستسهل المريد مهمة شيخه الذى يسلك به طريق الاخرة وهو طريق دقيق المسالك ولا شك ان الدليل فى صحراء القيامة أشق عبئا من الدليل فى صحراء الدنيا لان صحراء الدنيا طريقها ظاهر محسوس (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) اما صحراء الآخرة فطريقها خفى لا ينكشف الا لاهل البصائر النافذة الذين هيأهم الله لدلالة السالكين وارشادهم الى بر السلامة والامن من الفزع الاكبر . والمريد الذى تصح عقيدته فى شيخه ولا يعترض عليه بقلبه ينال ما قسم الله له من مكاشفا الغيب التى خص بها شيخه فلا يحتاج للتطفل على موائد غيره لان بيت أبيه الروحى أولى بغذائه من بيوت الاخرين .

وصلة المريد بشيخه صلة روحية وهى بذلك لا تتوقف على حياة الشيخ الجسدية ، ولذلك يتربى المريدون على يد خلفاء الشيخ فى طريقه وان لم يعاصروا الشيخ فى حياته فكم مضت قرون على انتقال سادتى الائمة أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى واحمد البدوى وابراهيم الدسوقى وأبى الحسن الشاذلى وماتزال مدارسهم تخرج العارفين والهداة المرشدين وذلك ببركة متابعتهم لجدهم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

وقد انتقل الى رضوان الله شيخنا وصاحب طريقتنا سيدى الإمام الاشهر والقطب الاكبر الشريف الحسينى الحاج محمد أبو خليل وسكن

ضريحه المبارك بالزقازيق فى ٢٩ يونية ١٩٣٠ وحدثنى شاهد من اخواننا الافاضل أن مجلس الذكر أقيم فى سرادق العزاء وحضره عدد عديد من أتباعه فأخذ عالمنا وعارفنا الملهم سيدى الشيخ على عقل ينشد بالهامه الفورى على مسمع الذاكرين فكان مما انشد :

والله والله العظيم ثلاثة الشيخ حاضر
هو سامع ما قد سمعت وناظر ما انت ناظر

فهام الذاكرون وكادوا ان يطيروا من هيامهم لو استطاعوا الى ذلك سبيلا وذلك من قوة اتصالهم بروحه القوية وشدة محبتهم الربانية لشيخهم الذى سلك بهم طريق الفلاح الى ساحة القدس .

وتفسير ذلك ان الموت ليس بعدم محض بل هو انتقال من حال الى حال ومن عالم الى عالم ، وانت فى نومك غيرك فى يقظتك ، لان عالم النوم غير عالم اليقظة ، فالروح فى النوم تنقل بالرؤيا من الفرش الى العرش كما يقولون ، بينما البدن لا يبارح الفراش ولا الغرفة التى ينام فيها ، وكذلك عالم الموت تبطل فيه وظائف الأعضاء التى تستخدمها الروح حال الحياة البدنية حيث كانت تنظر بالعين وتسمع بالاذنين وتمشى على الرجلين وتتناول باليدين الخ فهمدت تلك الأعضاء حيث بارحت الروح بالموت الجسد وفارقته الى عالم البرزخ وهو الفاصل بين الدنيا والآخرة .

وحياة الروح فى عالم البرزخ لا شبهة فيها ، فهى ثابتة بالكتاب والسنة ولئن كان الشرع الشريف منعنا من الكلام فى سر الروح بقوله تعالى (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) فان الشرع اذن لنا بالتكلم فى حال الروح بعد الموت . ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى (الاحياء) ما خلاصته :

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام ادراكها آيات وأخبار كثيرة :

أما الآيات فما ورد فى الشهداء اذ قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتنا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) والآية نص فى أرواح الشهداء السعداء .

ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يافلان يافلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده انهم لأسمع لهذا الكلام منكم الا انهم لا يقدرون على الجواب) رواه مسلم فهذا نص فى بقاء روح الشقى وبقاء ادراكها .

(ولا يخلو الميت من سعادة أوشقاوة قال صلى الله عليه وسلم (القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة) وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط .

(وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره) رواه احمد واضاف الامام الغزالى قائلا .

(ان روح المؤمن لا تموت وعلم المؤمن عند موته لا يمحى وصفاؤه لا يتكدر واليه أشار الامام الحسن البصرى بقوله : التراب لا يأكل محل الايمان وبالايمان تتفاوت درجات السعداء كما تتفاوت درجات الاغنياء بحسب كثرة المال وقلته ، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون الى لقاء الله تعالى الا بأنوارهم قال تعالى (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) .

ثم يقول الامام الغزالى :

(والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك تتألم بأنواع الحزن والغم والكمد وتتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالاعضاء ، فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة البدن ، وما يبعد أن تؤخر الى يوم البعث والله بما حكم به على كل عبد من عباده) .

وفى هذه المناسبة أكشف الستار عن تجربة وقعت لى فى شبابى الباكر حيث تمنيت أن أطمئن الى صحة انتسابى بالنبوة فى طريق الله الى سيدى الشيخ أبى خليل رضى الله عنه حيث لم يسعدنى الحظ بلقائه

فى حياته الشريفة انما اسعدنى الحظ بادراك خليفته المربى الكامل سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، فكان ان حظيت فى نفس الليلة برؤية سيدى الشيخ أبى خليل فى رؤيا طويلة لا أنسى مدى الايام سعادتى بها فلقد احتضننى طويلا ومن مهابته القيت بوجهى فى صدره فوضع يده اليمنى على عاتقى الايسر ويده اليسرى على عاتقى الايمن وبعد ربع ساعة على هذا العطف الابوى الحانى كلمنى بالسريان قائلا : (لو كنت تأخذ عشرة نقط من فيلول اينون كانت تعينك على طلب العلم ، أنا زمان كنت اجيبها على ألم نشرح) ثم قدمت له أحد أصحابى الذين كنت قدمتهم فى الطريق لسيدى الشيخ عبد السلام فعاهده فقال لى سيدى الشيخ أبو خليل رضى الله عنه : أيوه أنا شفته مع الاستاذ رشاد ، ثم هم رضى الله عنه بلبس نعليه وقال : أقوم ياخويا أصلى الصبح أحسن الشمس قربت تطلع ، فانتبهت من نومى فوجدت أنه لم يبق على الشروق الا نصف ساعة فأسرعت بالوضوء وصليت الصبح حاضرا قبل أن تطلع الشمس ببركة سيدى الشيخ طيب الله ثراه .

وقد قصصت تلك الرؤيا على سيدى الشيخ عبد السلام فسرته وفسر لى الاستاذ رشاد بأنه المرشد ، وقد استبشرت بها كثيرا لى ولصاحبى المخلص الاستاذ فهمى عبد الجواد المفتش السابق بوزارة التربية ، ورأيت بركة الرؤيا فيما علمنى الله بعدها ما كنت أجهله من علوم الشريعة حتى صارت لى فيها مؤلفات عديدة أسأل الله ان ينفعنى وقراءها بها يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . والرؤيا واضحة فى صلة الشيخ بالمريدين فى طريقه وان لم يجتمعوا به فى حياته الدنيوية ، وقد استحييت ان أسأل سيدى الشيخ عبد السلام عن معنى (فيلول اينون) وكفانا ان نكون محل رعاية روحية من مشايخنا وهم فى برازخهم . وفى سيدى ابى خليل وخليفته سيدى عبد السلام وسيدى على عقل يقول أخى فى الله المرحوم محمد زكى عبد السلام الحلوانى :

الله أكبر قد وضحت طريقة
وثبت اقداما وسدت منارا
خفقت بنور الحق حولك دائما
وشهدت جندك للتقى أنصارا

حتى كأنك لم تغب من بينهم
ما رددوا الانشاد والاذكارا
عبد السلام على يمينك يجتلى
كأبى قحافة يملأ الانظارا
وعلى يزخر بالروى كأنه
ديم السماء تفجرت انهارا

وجاء فى الرسالة القشيرية ان ابا بكر الرشيدى رأى محمدا الطوسى فى المنام يقول له : قل لا بى سعيد الصفار المؤدب :

تشاغلتم عنا بصحبة غيرنا
وأظهرتم الهجران ما هكذا كنا
لعل الذى يقضى الامور بعلمه
سيجمعنا بعد الممات كما كنا

قال فانتبهت وقلت ذلك لابى سعيد الصفار فقال : كنت أزور قبره كل يوم جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة .

وحكى عن بعضهم انه قال : رأيت فى المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله جماعة من الفقراء (أى الى الله) فبينما هو كذلك اذا نزل من السماء ملكان وبيد أحدهما طست وبيد الآخر ابريق ، فوضع الطست بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر الملكين حتى غسلوا أيديهم ، ثم وضع الطست بين يدى فقال أحدهما للآخر : لا تصب على يده فانه ليس منهم ، فقلت : يارسول الله أليس قد روى عنك انك قلت (المرء مع من آحب) فقال : بلى ، فقلت وأنا أحبك وأحب هؤلاء الفقراء : فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فانه منهم .

اللهم اجعلنا من أصفيائك الذين قلت فيهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

الافتقار الى الله تعالى

(الملائكة والانبياء والمرسلون والشهداء والصالحون وكل الخلق لا يطلبون سواك ونحن الضعفاء ، وانت ربنا ، لا نلجأ لغيرك ، فلا تردنا عن بابك الذى وسع الخلق وقد شهدوا لك بالروبوبية وقد قضيت وقلت (أفحسبتم انما خلقناكم عباسا وأنكم الينا لا ترجعون) بفضلك مؤمنون بالرجعى اليك ، فعاملنا بالاحسان اذ الفضل منك واليك) .

جاءت هذه السطور فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى الى تلميذه الصالح المبارك الصديق العزيز المرحوم السيد . سالم جمعة ، وهى كما يرى القارىء تنطق بافتقار الخلائق كلهم الى الله عز وجل مهما علت أقدارهم ، ويستوى فى ذلك الإفتقار اهل السموات وأهل الارض ، فكلهم خلق الله ، ويجرى عليهم من عطائه غذاء الاجساد والارواح ، وكما انفرد سبحانه بخلقهم انفرد برزقهم ، وشمل رزقه من آمن به منهم ومن كفر ، ومن جحد فضله ومن شكر .

ويلجأ سيدى الشيخ الى ربه لجوء المؤمن بربه ، المقر بفقره اليه وضعفه بين يديه فى حسن ظنه بكرمه الذى يسع السائلين الواقفين ببابه ، يرجون رحمته وينتظرون احسانه ، وهو سبحانه أجود الاجودين ويعطى بسؤال وبغير سؤال ولكن السؤال مظهر من مظاهر افتقار العبد لربه ، كما هو اقرار بجود الله وكرمه ، وبقربه من عبده ، يسمع له ويستجيب.

وما أرق ما يقول سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه فى دعائه : لئن مددت يدى إليك داعيا لطالما كفيتنى ساهيا ، أأقطع منك رجاى بما عملت يداى ؟ حسبى من سؤالى علمك بحالى . وهو الذى يقول : أطلب حاجتك بلسان الفقر ، ويعرفنا رضى الله عنه كيف نتحقق بالفقر الى الله تعالى فيقول : من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو . ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لان النفوس كلها فقيرة عند هيبته .

ويقول سيدى السرى السقطى رضى الله عنه : اجعل فقرك تستغن به عمن سواه . ويقول سيدى الحارث المحاسبى رضى الله عنه : صفة العبودية الا ترى لنفسك ملكا وتعلم انك لا تملك لنفسك ضرا ولا نفعا كما يقول : اذا أنت لم تسمع نداء الله فكيف تجيب داعى الله ، ومن استغنى بشىء دون الله جهل قدر الله . ويقول سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه : من لم يعرف الله بالقدرة فانه لا يعرفه ، قيل وكيف يعرف بالقدرة ؟ فقال يعرف ان الله قادراذا كان معه شىء ان يأخذه منه ويعطيه غيره ، واذا لم يكن معه شىء ان يعطيه .

ومن اقوالهم هذه تعلم ان الفقر عندهم ليس معناه فقر الجيوب كما يتبادر الى الذهن ، بل معناه الحاجة الى الله على الدوام فى أمرين فى حفظ ما أتاك من فضله ، وفى اعطائك ما تحتاج اليه من أمر الدين أو الدنيا (لئن شكرتم لأزيدنم) فأكد الحفظ بل وزيادة النعمة ، وشكر النعمة عند السادة الصوفية العارفين هو الا تستعملها فى معصية تكون قد بدلت نعمة الله كفرا ، فكفرت النعمة ولم تشكرها . واما اعطاؤك ما تحتاج اليه من أمر الدين والدنيا فانه تعالى فتح لك باب كرمه الواسع بقوله سبحانه (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) ولما كان الله تعالى قادرا على سلب النعمة فوجب ان يطيعه العبد فيها ليحفظها عليه ويزيده من فضله . ويستوى فى ذلك النعم الظاهرة والنعم الباطنة (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) وينصحنا السادة الصوفية العارفون ان نترك الذنوب الظاهرة شكرا لنعم الله الظاهرة وان نترك الذنوب الباطنة شكرا لنعم الله الباطنة وبذلك تتطهر ظواهرنا وبواطننا فلا نسرق ولا نزنى ولا نغتاب ولا نقتل النفس التى حرم الله الا بالحق الى غير ذلك من الجرائم الظاهرة ولا نحقد ولا نحسد ولا نشمت بمصائب الناس الى غير ذلك من العيوب الباطنة . والنعم الظاهرة هى النعم المحسوسة كالسمع والبصر والرزق الخ ، والنعم الباطنة هى الخفية كالايمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم واليوم الآخر وما يتصل بالعقيدة من خفايا اليقين من الرضا والصبر والشكر والمحبة الخ .

ولا يقف اثر الطاعة على حفظ النعم وزيادتها فى الدنيا ، بل يتعدد اثر الطاعة والمعصية الى حياتنا الاخروية التى آمنوا بها ، وذلك يقول سيدى شقيق البالخى : من دار حول الشهوات فانه يدور بدرجاته فى الجنة ليأكلها ، وينقصها فى الدنيا ، كما يقول : جعل الله أهل طاعته أحياء فى مماتهم وأهل المعاصى أمواتا فى حياتهم .

ويحذرنا سيدى ابو يزيد البسطامى رضى الله عنه من ان تشغلنا النعم عن المنعم سبحانه فيقول : ان الله تعالى أمر العباد ونهاهم فأطاعوه فخلع عليهم خلعه فاشتغلوا بالخلع عنه ، وانى لا أريد من الله الا الله . فانظر كيف جرد عبادته من الشوائب والعلل حتى صارت خالصة لله تعالى فعمل بما أمره به فى قوله الكريم (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) .

وتلك درجة الخواص ، بل خواص الخواص ، ولا تأتى للعابد مرة واحدة بل لابد فى الوصول اليها من مجاهدات حتى يأذن الله للمجاهد ببلوغ النهايات مصداقا لقوله الكريم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ويقول سيدى أبو يزيد متحدثا عن نفسه فى ذلك : غلطت فى ابتدائى فى أربعة أشياء ، توهمت انى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكرى ومعرفته تقدمت معرفتى ومحبته أقدم من محبتى وطلبه لى أولا حتى طلبته . ويقول سيدى وشيخى على عقل فى مجاهداته من الهامه الفورى الذى نقلنا عنه :

حسبت الهوى سهلا فخضت عبابه

فطورا به أطفو وطورا به غطسى

الى أن أتتنى من لدنه عناية

وصلت بها بر السلامة والانس

ويقول سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه : ثلاث خصال من صفة الاولياء : الثقة بالله فى كل شىء ، والغنى به عن كل شىء ، والرجوع اليه فى كل شىء . ولذلك يقول سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه فى مناجاته :

(يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ، ويا بادىء العارفين بما به عرفوه ويا موفق العابدين لصالح ما عملوه ، من ذا الذى يشفع عندك الا باذنك ومن ذا الذى يذكرك الا بفضلك .

ويرى سيدى الجنيد رضى الله عنه ان حسن الاعتماد على فضل الله لا ينافى بذل المجهود فى سبيله سبحانه لان الأعمال الصالحة انما رسمها الله لعباده ليجاهدوا أنفسهم بها فى الوصول الى مرضاته ومن أقواله فى هذا المقام :

ان العارفين بالله أخذوا الاعمال عن الله واليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لا أنقص من أعمال البر ذرة الا أن يحال بى دونها وانه لأوكد فى معرفتى وأقوى فى حالى .

ثم انه رضى الله عنه يدعو فى المجاهدات الى الاقتداء بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه صلوات الله وسلامه عليه مع اصطفاء الله له بلغ فى مجاهداته وعبادته الغاية القصوى التى يستطيعها البشر ولا غرو فقد أمره مولاه بالعبادة الدائمة والاصطبار عليها فى مثل قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) ، ويقول سيدى الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها مسدودة على الخلق الا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه .

وفى المجاهدة والعبادة يجب أن يستعين العبد بمولاه اذ لا حول ولا قوة الا بالله تعالى ، ومما علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لسيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . وقد قال تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) ولهذا يجب أن يكون المؤمن مفتقرا الى ربه ومستندا اليه فى كل أحواله حتى لو جاءته الاسباب بما يحب ويرضى لانها من فضل الله عليه ولا تغنيه الاسباب مهما كانت عن مسببها سبحانه ، ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى : فلا بد لك من الاسباب وجودا ولابد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها تعالى بحكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحديته .

ولهذا نراه رضى الله عنه فى مناجاته لربه تعالى يقول فى ابداع لا يخفى : الهى أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى ويشرح سيدى ابن عجيبة الحسنى رضى الله عنه هذه المناجاة فيقول :

أنا الفقير فى غناى الوهمى الإدعائى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى الحقيقى الاصلى ؟ فغناى بموافقة الاسباب الظاهرة ليس وجوده منى ولا بقاؤه بيدى ، فأنا فقير فى حالة وجوده فكيف لا أكون فقيرا فى حالة فقده أو يقول : أنا الفقير فى حالة حياتى التى يظهر فيها صورة غناى بعشيرتى وأحبابى فكيف لا أكون فقيرا بعد مماتى حين يتخلف عنى أحبابى وجيرتى أو يقول : أنا الفقير اليك فى حال غناى بك فلا غنى لى عن زيادة مددك ، وهذا كما قال القائل :

أنا الفقير اليكم والغنى بكم

وليس لى بعدكم حرص على أحد

فكيف لا أكون فقيرا حال فقرى اليك اذا كنت فقيرا فى حال نظرى الى غناى بك ، وكيف لا أكون فقيرا فى حال نظرى الى فقرى اليك ولله در القائل .

انى اليك مع الانفاس محتاج

لو كان فى مفرقى الاكليل والتاج

وقال الامام أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه : من أشار الى الله ثم رجع بحوائجه الى غيره أفقره الله إلى الخلق ثم نزع له الرحمة من قلوبهم ، ومن شهد محل افتقاره الى الله ورجع بحوائجه اليه أغناه الله من حيث لا يحتسب ، وإعطاه من حيث لا يرتقب .

ثم يستطرد سيدى ابن عجيبة قائلا :

فليثق العبد بربه ، وليشتغل بما أمره به وليكن كما قال بهلول المجنون : نعبده كما أمرنا وهو يرزقنا كما وعدنا ، ولا يتعلق بمخلوق أصلا قلبا ولا قالبا .

ويناجى سيدى ابن عطاء الله السكندرى ربه مرة أخرى فيقول : (الهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جاهلا جهولا فى جهلى)

ويشرح ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول :
انا الجاهل فى علمى العارض الذى علمتنى فكيف لا أكون جاهلا فى جهلى الاصلى الذى أركزتنى ؟ أو يقول : أنا الجاهل فى حال نسبتى الى العالم الذى علمتنى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى الذى هو أصلى ومحلى ؟
وما نسبة علم العبودية فى جانب علم الربوبية الا كنقرة العصفور من البحر ، كما قال الخضر عليه السلام لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) .
ثم ان من تحقق بفقره الاصلى لا يسكن الى غناه العارض ، ومن تحقق بجهله الاصلى لا يسكن الى علمه الفرعى ، فان الامور كلها بيد الغنى الكريم والقلوب كلها بيد المدبر الحكيم ، كما أبان ذلك فى المناجاة الثالثة بقوله :
الهى ان اختلاف تدبيرك ، وسرعة حلول مقاديرك ، منعا عبادك العارفين بك من السكون الى عطاء ، واليأس منك فى بلاء .
ويشرح ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول :
اختلاف التدبير هو اقامة كل عبد فى حكمته وعلى حسب ارادته ومشيئته من فقر أو غنى ، من علم أو جهل ، ومن عز أو ذل ، من قبض أو بسط من سقم أو صحة أو مرض ، من ايمان أو كفر الى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة وتنوع مظاهر الحكمة . وسرعة حلول المقادير هو تبديل تلك الاحوال فى أسرع حال ، من فقر الى غنى ومن غنى الى فقر ، ومن علم الى جهل ، ومن جهل الى علم ، ومن عز الى ذل ، ومن ذل الى عز ، ومن قبض الى بسط ، ومن بسط الى قبض ، ومن سقم الى صحة ، ومن صحة الى سقم ، ومن ايمان الى كفر والعياذ بالله ومن كفر الى ايمان ، فقلوب الخلائق بيد الواحد القهار ، يقلبها كيف يشاء ويختار، ويفعل بها ما يشاء (لا يُسأل عما يفعل وهم يَسألون) .
ويقول السادة الصوفية : علامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيها ما غاب عن غيره ، وجلاء القلب لا يكون الا بالايمان واليقين ، فعلى قدر قوة الايمان يكون نور القلب ، وعلى قدر نور القلب تكون مشاهدة

الحق ، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة باسمائه وصفاته ، وبقدرهما يكون التعظيم لذاته ، وبقدر التعظيم لذاته يكون كمال العبد ، وبقدر كماله يكون استغراقه فى أوصاف العبودية ، وبقدر استغراقه فى أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية .

أقول وكلامهم المتقدم يفسر لنا الحكمة القائلة : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فمن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى ، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم ، ومن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء ، ومن عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء ، وهكذا وهكذا .

ولست اعنى بالمعرفة العلم بذلك واعتقاده ، وانما قصدت المعرفة العملية المذاقية ، ويفرق سيدى جلال الدين الرومى بين العلم والعمل فيقول : هل قطفتم وردا من الواو والراء والدال ؟ اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى . فهو رضى الله عنه يعلمنا الا نقف عند العلم بالهجاء الخاص بكلمة ورد بل يجب أن نسعى اليه لمعرفته ، وذلك تعليم بالرمز اعتاده العارفون من الصوفية ، وعندما سئلوا لماذا تكثرون فى كلامكم من الاشارات دون ان تصرحوا بالعبارات أجابوا : اننا نكلم أهلنا ولا نكلم غيرهم ، والأخرس لا يفهمه الا أهله حين يتكلم معهم بالاشارة .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : فرق بين ان يعلم الانسان حد الصحة والشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحا وشبعان . ومن ذلك ندرك أن الافتقار الى الله تعالى حال يذوقه أهل الوجدان وليس علما يروى باللسان ويسمع بالآذان ، وقد قال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد) وليس المراد فقراء المال بل المراد جميع الناس وفيهم أغنياء المال وأصحاب الجاه والسلطان ، ولقد وقفت ذبابة على وجه الخليفة ابى جعفر المنصور فدفعها بيده فعادت ودفعها مرة أخرى فعادت وكان يجالسه الامام جعفر الصادق سليل الامام الحسين رضى الله عنهما ، فتساءل أبو جعفر عن حكمة خلق الذباب فأجابه الامام جعفر : خلق الله الذباب لاذلال الملوك واشعارهم أنهم عبيد .

ولقد دخل الشاعر أبو العتاهية على الخليفة هارون الرشيد وكان فى مجلس غناء فقال الخليفة : اسمعنا شعرك يا أبا العتاهية فقال :

عش ما بدالك كم تراك تعيش
اتظن سهم الحادثات يطيش
عش كيف شئت لتأتينك وقفة
يوما وليس على جناحك ريش

فبكى الرشيد ، فلام جلساؤه ابا العتاهية فقال الرشيد : دعوه فقد وجدنا فى غفلة فأراد أن يوقظنا منها .

ويقول سيدى الامام ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية .

ويشرح ذلك سيدى ابن عجيبة رضى الله عنه فيقول : ان الربوبية تقتضى مربوبا موصوفا بضد ما اتصف به ربه من الكمالات الالهية والنعوت والقدسية ، فما ظهرت أوصاف الربوبية التى هى الغنى والعزة والقدرة وغير ذلك من الكمالات الا فى أضدادها من الفقر والذالة والضعف وغير ذلك ، فالفقر الحقيقى شامل لسائر الموجودات والغنى المطلق واجب لمن تجلى فى الارض والسموات .

ولهذا طلب سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه ان يعامله ربه باحسانه اذ الفضل منه سبحانه واليه .

ويقول أبوه العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى فى استغفاره رحمه الله :

قبائح كنت فيها   أسرى وطورا أسير
سررت منها زمانا   وغمها مذخور
نسيتها ووعاها   كتابى المسطور
ماذا أقول لربى   اذا بدا التحرير
يارب أنت عفو   وأنت رب قدير
وشأن من جل يغضى   اذا أساء الحقير
ويستعيب عقابا   كيلا يقال نظير

يارب انى حقيـر جدا وأنت الكبير
وأين ترب خسيس من ربه يا مجير
وما أريد احتجاجا عليك بل استجير
أجر عبيدك يامن سواه ليس يجير
ولى اليك شفيـع بدر الظلام المنير
غوث الأنام المرجى اذا لسماء تمور
به توسلت فأجبر كسرى فانى كسير
واسكب عليه التحايا ما فاض منه النور

ولينظر القارىء الكريم فى اللجوء الرائـع الذى لجأ بـه مولانـا رسول الله صلى الله عليـه وسلم الى ربه حين لم يستجب لدعوته أهل الطائف واغروا بـه سفهاء هم وعبيدهم فضربوه بالحجارة حتى أدموا قدميه فدعا ربه فى افتقار اليه واستنجاد به وقال :

(اللهم اليك أشكو ضعف قواتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس : يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وانت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكتـه أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت لـه الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علـى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك) .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه (من اعطى الدعاء لم يحرم الاجابة) كما يقول : من أذن لـه فى الدعاء منكم فقد فتحت لـه أبواب الرحمـة ، ومـا سئل الله شيئا أحب اليـه من العفو والعافية .

وفى ضوء الحديثين المتقدمين يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضـى الله عنـه فـى حكمـه النثرية : متى اطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد ان يعطيك . ويقول رضى الله عنه شعرا :

ففى افتقارى وتسآلى ومد يدى
أقوى دليل على ان تقضى الأربا
لو لم تردنى لما ارجو وآملـه
من فيض جودك ما علمتنى الطلبا

ويقول رضى الله عنه : العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره ، ويفسر ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول ، وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره فلإن قلب العارف رحل الى الله من الكون بأسره ، فلم تبق له حاجة إلى غيره ، فقراره إنما هو شهود الذات الأقدس ، وسابق العناية لا يتركه يركن الى غير مولاه ، وما تولى الله أولياءه بمحبته حتى حفظهم من شهود غيره ، فكيف بالركون ، فكيف بالسكون ؟ هيهات هيهات ، هذا لا يكون .

ويقول فى هذا المقام سيدى وشيخى الشيخ على عقل نور الله ضريحه فى الهامه الفورى :

الوذ بالله لا أبغى به بدلا
ومن يلوذ بباب الله يسعده
أخلى فؤادى له من كل شائبة
ان عشت أو مت أعضائى توحده
وكيف أرضى بغير الله متجها
والكل والجزء والأحشاء تعبده
اذا مددت يدى لله أسأله
مددت الى بمعنى فضله يده

وكنت أمزح معه وأقول ما رأيت فى باب الاحتراس أبلغ من قولكم يا سيدى : مدت الى بمعنى فضله يده ، وليت أهل البلاغة سمعوك فنقلوا كلامك هذا مثلا للاحتراس الدقيق المتصل بعقيدة التوحيد والذى نفيت به التشبيه والتمثيل فى براعة ، فكان رضى الله عنه يبتسم ويدعولى .

اللهم اجعلنا فى افتقار دائم اليك حتى نغنى بافتقارنا اليك عن غيرك ، فان الافتقار اليك هو الحق (ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

نور البواطن

(ويتحول الاشراق من الظاهر الى الباطن ، فبعد أن كنت ترى الولى مشرقا تراه قد انطفأ الى الحالة العادية حتى لتناجى نفسك أين النور الذى كنت أراه ولا تدرى أنه مع الله ، زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله ومن ماثله فى الدرجات والمقامات) .

ذلك مما كتب سيدى وشيخى العارف بالله تعالى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه الصالح المبارك الصديق الوفى المرحوم السيد/ سالم جمعه ، وهى سطور من نور ترينا ألا نقف فى الحكم على الناس عند الظواهر وتعلمنا أن قلوب بعض الأولياء تحجب أنوارها ولا تشع على الجوارح وتبقى خفية لا يعلمها الا الله ، وقد يكشفها بما شاء لبعض خواصه فيقول بعضهم لبعض :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق

واشرح هواك فكلنا عشاق

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه الهاما فى وصف هؤلاء المحبين الكرام الذين كتموا حبهم بين الجوانح فلم يعترف اليهم الا أمثالهم :

أحن على ذل وأهوى على هدى

وأسرى على علم بقلبى أواصله

وهل يدرك الآيات الا رجالها

وهل يعرف الوجدان الا مزاوله

وذو الوجد لا يغضى عن الحب لحظة

به عاش حتى لو أصيبت مقاتله

شهدنا وشاهدنا وطابت نفوسنا

فهامت به أرواحنا اذ نسائله

أسامر ليلى خاليا بشهوده

وقلبى بنور الحق فاضت مناهله

أما عن زهد الخلق وترك أحوالهم استغناء بالله عنهم فيقول فيهم فيما نقلناه من الهامه الفورى رضى الله عنه :

تخل ولا تحفل بجن ولا إنس
وعش فى هدى الرحمن تسعد بالأنس
وأقبل على مولاك بالقلب مخلصا
وأسلم وسلم واتجه طالب القدس
وخذ لك بالايمان أصدق وجهة
وطهر بها نفسا عن الغى والرجس
تجرد تجد مولاك أكبر ناصر
وفوض له ما كان فى الغد والأمس
اذا قيل لى اطلب قلت ربى مطلبى
وان قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى

ويقول أيضا فى الهامه الفورى رضى الله عنه :

نحن فى عالم اليقين رجال
قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم
انما نحن فوق ذاك شربنا
فتح الباب ثم قال لجوه
فولجنا وبعدها قد وصلنا

أما سيدى القطب الكبير ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه فيصف حال الأولياء الأخفياء بقوله :

يقولون لى ما العلم ما السر ما الذى
هو الجوهر الغالى عن البحر خبرنا
فقلت لهم هذى مطالع نورنا
ومغربها فينا ومشرقها منا
تركنا البحار الزاخرات وراءنا
فمن أين يدرى الناس أنى توجهنا

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الاحياء :

ان لله تعالى شرابا يسقيه فى الليل قلوب أحبائه ، فاذا شربوا طارت قلوبهم فى الملكوت الأعلى حبا لله تعالى وشوقا اليه .

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى الرسالة :

(أول رتبة فى القرب طاعة الله والاتصاف فى دوام الأوقات بعبادته ، وأما العبد فهو التدلس بمخالفته والتجافى عن طاعته ، فأول البعد بعد عن التوفيق ، ثم بعد عن التحقيق ، بل البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق ، قال صلى الله عليه وسلم مخبرا عن الحق سبحانه : ما تقرب الى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى يحبنى وأحبه ، فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، فبى يبصر وبى يسمع .

فقرب العبد أولا قرب بايمانه وتصديقه ، ثم قرب باحسانه وتحقيقه . وقرب الحق سبحانه ما يخصه اليوم به من العرفان ، وفى الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك من وجوه اللطف والامتنان .

ولا يكون قرب العبد من الحق الا ببعده عن الخلق ، وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر والكون .

وقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة علم للكافة ، وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين ، ثم بخصائص التأنيس للأولياء .

ومن تحقق بقرب الحق سبحانه وتعالى فأقله دوام مراقبته اياه ، لأن عليه رقيب التقوى ثم رقيب الحفظ والوفاء ثم رقيب الحياء ، وأنشدوا :

واخوان صدق قد سئمت حديثهم
وأمسكت عنهم ناظرى ولسانى
وما الزهد أسلى عنهم غير أننى
وجدتك مشهودا بكل مكـان

ومن كلام الامام القشيرى تدرك أن ما يدعيه أعداء التصوف على السادة الصوفية من القول بالحلول والاتحاد ، انما هى دعوى باطلة

أقامها هؤلاء الأعداء واستدلوا فيها الى شطحات لبعض الصوفية لم يقصدوا بها ظاهر الألفاظ وانما يجب تأويلها تأويلا يليق مع حسن اعتقادهم فى الله تعالى وتفانيهم فى حبه . ويقول سيدى أبو الحسن النورى رضى الله عنه فى دفع تلك التهمة عن السادة الصوفية فيما ورد عنه فى رسالة الامام القشيرى رضى الله عنه ما نصه :

أما القرب بالذات ، فتعالى الله الملك الحق عنه ، فانه متقدس عن الحدود والأقطار ، والنهاية والمقدرات ، وما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت صمديته عن قبول الوصل والفصل .

فقرب هو نعته محال ، وهو تدانى الذوات .

وقرب هو واجب فى نعته ، وهو قرب العلم والرؤية .

وقرب هو جائز فى وصفه ، يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل باللطف .

أقول ، وقرب الفضل باللطف هذا هو ما عبر عنه الامام القشيرى اجمالا بقوله : وخصائص التأنيس للأولياء ، كما تقدم : وهو مقام فى التصوف قال عنه الامام الغزالى رضى الله عنه (يضيق نطاق النطق عنه) فهو يذاق بالوجدان ويعجز عن وصفه اللسان ، كما قالوا :

لا تسل وصف حبهم فهو سر

بسوى الذوق ماله افشاء

أو كما قال الامام الغزالى نفسه فى ذلك المقام :

فكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

أو كما قال سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه وأرضاه : أول منزل يطؤه المحب للترقى منه الى العلا النفس ، فاذا اشتغل بسياستها ورياضتها الى أن انتهى الى معرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار المنزل الثانى وهو القلب ، فاذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ،ولم يبق عليه منه شئ أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح ، فاذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئا فشيئا

الى تمام نهاياته ، وهذه طريق العامة . وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوك تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها .

وسبحان ربى الذى فضل العباد بعضهم على بعض (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ويقول الامام القشيرى : فالعباد (بتشديد الباء) فضل بعضهم على بعض ولكن فى زكاء أعمالهم ، والعارفون فضل بعضهم على بعض ولكن فى صفاء أحوالهم ، وزكاء الأعمال بالاخلاص ، وصفاء الأحوال بالاستخلاص ، فقوم تفاضلوا بصدق القدم ، وقوم تفاضلوا بعلو الهمم ، والتفاضل فى الآخرة أكبر فالعباد تفاضلهم بالدرجات وأهل الحضرة تفاضلهم بلطائفهم عن الأنس بنسيم القربة بما لا يبين بصفة ولا عبارة ، ولا رمز يدركه ولا اشارة ، منهم من يشهده ويراه مرة فى الاسبوع ، ومنهم من لا يغيب عن الحضرة لحظة ، فهم يجمعون فى الرؤية ويتفاوتون فى نصيب كل أحد .

ومن أروع الأمثلة التى ضربها الله لخواصه من الأولياء قصة أهل الكهف ، وقد شرحها الله تعالى فى سورة الكهف شرحا وافيا ، ويتعرض الامام القشيرى باشراته المنيرة الكاشفة لمواقفهم فيقول فى روعة ظاهرة :

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) قوله تعالى (من آياتنا) يفيد أن قلب العادة من لدن الله غير مستنكر ويقال الاشارة فيه ألا تتعجب من قصتهم ، فحالك . أى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أعجب فى ذهابك الينا فى شطر من الليل حتى قاب قوسين أو أدنى (قرب مكانة وتكريم) وهم قد بقوا فى الكهف سنين .

وعند قوله تعالى (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) يقول رضى الله عنه : أخذناهم عن احساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائق ما كاشفناهم به من شهود الأحدية ، واطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

وعند قوله تعالى (انهم آمنوا بربهم وزدناهم هدى) لقاهم أولا التبيين ثم رقاهم عن ذلك باليقين .

وعند قوله تعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله) .

يقول رضى الله عنه : كانوا فى متسع من الكهف ولكن كان شعاع الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالقياس الى أنوارهم ، ان نور الشمس ضياء يستضىء به الخلق ونور معارفهم أنوار يعرف بها الحق ، فهذا نور يظهر فى الصورة ، وهذا نور يلوح فى السريرة ، وبنور الشمس يدرك الخلق وبنورهم كانوا يعرفون الحق .

وفى قوله عز اسمه (ذلك من آيات الله) فيه دلالة على أن فى الأمر شيئا بخلاف العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء .

وعند قوله تعالى (من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) يقول رضى الله عنه ، فالله يهدى قوما بالأدلة والبراهين ، وقوما بكشف اليقين ، فمعارف الأولين قضية الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان .

(ومن يضلل الله) أى من وسمه الله بسمة الحرمان ، فلا عرفان ، ولا علم ، ولا ايمان .

وعند قوله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) يقول رضى الله عنه : يقال كلب خطا مع أحبابه خطوات فالى يوم القيامة يقوم الصبيان (وكلبهم باسط ..) وهو قول الحق ، فهل ترى أن مسلما يصحب أولياءه من وقت شبابه الى وقت مشيبه يريده يوم القيامة خائبا ؟ لأنه لا يفعل ذلك .

وعند قوله تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) يقول رضى الله عنه : أيام الوصال عندهم قليلة وان كانت طويلة ، ولو كان الحال بالصد لكان الأمر بالعكس ،

وقد لبثوا طويلا ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ولم يكن لهم علم بتفصيل أحوالهم .
أقول وأنشد بعضهم فى هذه المناسبة :

والله لو حلف العشاق أنهمو
موتى من الحب ما ماتوا وما حنثوا
ترى المحبين صرعى فى ديارهمو
كفتيتة الكهف لا يدرون كم لبثوا

وعند قوله تعالى (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) قال الامام القشيرى رضى الله عنه : لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم الا خواص عباده ، ومن كان قريبا فى الحال منهم ، لأن الله تعالى يستر أولياءه عن الأجانب ، فلا يعلمهم الا أهل الحقيقة ، فالأجانب لا يعرفون الأقارب ، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب ، كذلك قال شيوخ هذه الطائفة : الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم .

وهذا الذى قال يفسر لك ما قاله سيدى الشيخ عبد السلام فى آخر عبارته التى جاءت فى صدر المقال : زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله ومن ماثله فى ترقى الدرجات والمقامات . وزهد الخلق وتركهم يكون بصرف القلب عن الاشتغال بهم أو الركون إليهم ، لأن الإشتغال بعيوبهم يصرفه عن الاشتغال بعيوب نفسه ، كما يصرفه عن ذكر ربه ، والركون اليهم يضعف توكله على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه . وشعار كل ولى (حسبى الله) وان استعان الولى بأحد من الناس فإنه يركن إلى ربه فى تسخير الناس باعتبارهم أدوات يحركها الله كيف يشاء .

وقد يكون اعتزال الخلق بالجسد والقلب معا ، كما اعتزل أهل الكهف قومهم الكافرين ، وقد حكى الله عنهم فى اعتزالهم قلباً وقالباً فقال تعالى : (واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) . ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى ذلك : العزلة من غير الله توجب الوصل بالله ، بل لا تحصل الوصلة بالله الا بعد العزلة عن غير الله ، ويقال لما اعتزلوا ما عبد من دون الله آواهم الحق الى كنف رعايته ، ومهد لهم مثوى فى

كهف عنايته ، ويقال من تبرأ من اختياره فى احتياله ، وصدق رجوعه الى الله فى احواله ، ولم يستعين – بغير الله – من أشكاله وأمثاله آواه الى كنف افضاله ، وكفاه جميع اشغاله ، وهيأ له محلا يتفيأ فيه فى برد ظلاله ، بكمال اقباله .

وكذلك اعتزل سيدنا ابراهيم الخليل أهله عندما أصروا عن الكفر وحكى الله عنه (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) ومعنى ما تدعون أى ما تعبدون ، وادعوا ربى أى أعبده ، وكانت نتيجة ذلك الأعنزال ما حكاه الله تعالى : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق و يعقوب وكلا جعلنا نبيا) ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه : لما أيس من أصله آنسه الله بما أكرمه من نسله ، فأنبتهم نباتاً حسناً ورزقهم النبوة ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام (بالصلاة عليه وعليهم فى التشهد) فقال تعالى : (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) .

أقول واعتزل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شبابه قومه حين سفهت نفوسهم بعبادة الاصنام ، وخلا فى غار حراء بربه ، ينشد وصاله فى أنس لا يعرف الوحشة ، وهمة لا تعرف الكلل ، وجهاد لا يشوبه الملل ، وعزم لا يعتريه الوهم وشوق متقد ، وحب يملأ الجوانح ، وذلك بتوفيق إلهى ، واستعداد ربانى ، يشهد بهما قوله تعالى : (فإنك بأعيننا) وفى الميقات الذى أراده الله جاءه جبريل عليه السلام بأولى آيات الشفاء والرحمة والنور والحكمة (اقرأ بأسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * أقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم) ولا عجب فهو صلى الله عليه وسلم صفوت الخالق ورسوله للخلائق ، اصتنعه لنفسه وأجرى على يديه رحمته للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وان تعجب فأعجب لهذا الرسول الأكرم ، يتقلب فى الدنيا ويطرحها من قلبه ، ويمشى فى الناس بنوره ، ويركن فى كل أحواله الى ربه ويقول له حين رده أهل الطائف رداً غير كريما:
(اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تلكنى

الى بعيد يتهجمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بالله) .

وأولياء الله وهم المتقون يناجيهم الله فى أسرارهم بعلوم شتى من كلماته التى لا تنفد ، ولئن كان سبحانه يكلم أنبياءه ورسله وحيا ، فانه يخاطب الأولياء الهاما ، ولذلك يقول أحدهم حدث لى كذا فقيل لى ، أى ألهمنى ربى بسر خفى فى باطنه مستتر عن الناس ، وقد يكتمه الولى فيما بينه وبين ربه ، وقد يفصح عنه تعليماً لغيره بإذن ربه كما يقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه .

طال ليلى وحبيبي قال لى
لذ بجاهى إنه أكرم جاه
وتعلق بى تجد من رحمتى
ما تمناه وما لست تراه
قلت يا مولاى إنى موذنب
ما احتيالى وفؤادى فى أساه
والخطايا حملتنى حملها
وجبال الوزر فوقى ما تراه
قال لا تخف منا اذا ما جئتنا
من أتانا قد شفى الله بلاه
واذا المؤمن قد يممنا
أدركته رحمتى حتى أراه

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه اذا ما يخص الله به أولياءه من لطائف العلوم لا حصر له ، فان أعلم البشر ، وسيد العرب والعجم ومن شهد له الحق بخصائص العلم حين قال : (وعلمك ما لم تكن تعلم) يقال له (وقل ربى زدنى علما) ليرجع الى ربه فى الاستزادة من العلم . وما يقذف الله فى قلوب أولياءه من العلوم والمعارف انما يزيدهم به اطمئنانا الى صحة سلوكهم الى الله تعالى واتصالهم به سبحانه على هدى الشرع

الشريف فلا تنازعهم نفوسهم الى الخروج عنه او التوانى فى طلب الله او الغفلة عنه.
وفى هذا المقام يحكى السادة الصوفية ان تلميذا لسيدى سهل التسترى رضى الله عنه ، يقال له اسحق بن أحمد ، وكان من أبناء الدنيا فى نشأته فخرج من جميع ما كان له ثم تاب وصحب سهلا رحمه الله ، فقال يوما لأستاذه سهل رضى الله عنه : يا أبا محمد ، ان نفسى هذه لاتترك الضجيج والصراخ من خوف فوت القوت والقوام ، فقال له أستاذه : خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاما تأكله ، فقال له : ومن امامى فى ذلك حتى أفعاله ؟ فقال الامام سهل : امامك ابراهيم عليه السلام حيث قال :
(رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلا ولكن ليطمئن قلبى) .
فالنفس لا تطمئن الا برؤية العين لأن من جبلتها الشك ، فقال سيدنا ابراهيم عليه السلام : أرنى كيف تطمئن نفسى ، فإنى مؤمن بذلك ، والنفس لا تطمئن الا برؤية العين . وكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديباً لنفوسهم وتهذيبا لها وزيادة لهم ، أما معجزات الانبياء فان الله يعطيها لهم ، للاحتجاج بها فى الدعوى الى الله والدلاة عليه والاقرار بوحدانيته سبحانه .
والدليل على وقع العلوم اللدنية للأولياء أن بعض الأميين منهم آتاهم الله من العلوم ما علموا به جهابذة علماء الشرع فى أزمانهم ، كما وقع بين سيدى على الخواص (وهو أمى) وبين سيدى عبد الوهاب الشعرانى (وهو عالم وقته) ومن يطلع على كتاب درر الخواص على فتاوى الخواص يرى ما يدهش الالباب ، ولا حرج على فضل الله تعالى ، وكذلك كان شيخنا الأكير سيدى الحج محمد أبو خليل أميا وتصاغر العلماء فى ساحته حين لمسوا بأنفسهم ما حباه الله به من فضل كبير ولقد أدركت بحمد الله رجالاً ممن رباهم فما وجدت نظراء لهم فى هذا الزمان لا فى علمهم ولا فى عملهم ولا فى الفتوحات الربانية التى تعلمنا منها الشىء الكثير والتى نقلنا وننقل منه للسادة القراء ما يزدادون به يقينا .

ويصف المرحوم عبد البارى الشرقاوى وكان من علماء الأزهر الأفاضل سيدى الشيخ أبا خليل وقد عاشره طويلا وإنتفع من علمه اللدنى :

انما الشيخ كالسماء مقاما
يحسب المرء أفقها منتهاها
فيراها محدودة بحـدود
لو أتاها لما رآها وتاهـا
ورأى فوقه السماء كما كانت
وبانت له حدود سواهـا
من ير الشيخ فى علو المقام
وجلال وهيبة يلقاهـا
لم ير العارف الولى ولكن
كرة العالم العظيم رآهـا

فـانظر رعـاك الله كيـف نفـذ الشـيخ الأمـى بروحـه ونـوره وعلمـه الـى رجـل فاضـل مـن العلمـاء المتخصصين فى علوم الشرع حتى شبه الشيخ بالسماء مقاما ، وحقا لقد سما الشيخ حتـى كان السماء وصفا حتى كان الضياء .

وانى أقرب للأفهام ما يقع فى القلوب من الهام الله بواقعة وقعت لى فى شرخ الشباب وكنت أتصدر حلقة علم فى مسجد قريتنا بأمر من شيخى رحمه الله وكان الدرس يومئذ فى خصائص مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت ان من خصائصه الشريفة أن الغمامة كانت تظلـه فتقيه من حرارة الشمس اكراما من الله تعالى ، وكان يجلس فى الحلقة ضيف لى من أهل العلم فاعترضنى علانية وفى شىء من الحدة وقال : ليست هذه خصوصية للنبى صلى الله عليـه وسـلم وانمـا هـى عامـة فـى سـائر المرسـلين ، فأجبتـه فـى هـدوء اذا كـان لـديك الـدليل علـى العمومية فهات الدليل ونحن نسلم لك فسكت ، واذا بهامس لطيف فى قلبى : قل لـه اذا كـان تظليل الغمامة عاما للمرسلين فلماذا حكى الله عن سيدنا موسى عليه السلام وهو من الكبار أولى العزم فقال تعالى (فسقى لهما ثم تولى الى الظل) فلو كان مظللا بالغمامة ما تـولى الـى الظل ، وسرنى هذه الخاطر الرحمانى كل

السرور وقد جاءنى ببركتة صلى الله عليه وسلم ولكنى كتمته حتى صلينا وخرجنا فألقيت به لضيفى سرا وصارحته بأنه من الهام الله ، وراعيت أنه فى ضيافتى فلم أشأ أن أحرجه بين الناس ، ولكنى أفهمت الناس بعد ذلك ما كان .

وكذلك وقع لى وأنا فى الحرم النبوى الشريف أنى كنت أتكلم مع بعض القوم فى موضوع التوسل به صلى الله عليه وسلم فقلت لبعض السامعين : من الذى ينعم علينا قالوا ربنا سبحانه ، قلت هل ينعم أحد معه سبحانه قالوا : لا حاشا وكلا ، قلت لهم فلماذا يقول الله تعالى فى قصة سيدنا زيد ابن حارثة رضى الله عنه : (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) فسكتوا ، فقلت لهم ، لا يتنافى انعام الله وانعام رسول الله لأن انعام الله هو انعام المسبب الذى أقامه الله تعالى بحكمته وهو فى معرض الأسباب ، فالله تعالى أنعم قضاء وقدرا والرسول صلى الله عليه وسلم أنعم سببا تنفيذا للقضاء ، فأسلم زيد على يده واعتق من الرق على يده وتزوج من السيدة زينب القرشية على يده صلوات الله وسلامه عليه ، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى ، فالتوسل به صلى الله عليه وسلم هو استدرار رحمة الله تعالى وقد قال مخاطبا له (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فهو صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة ، وتكلمت طويلا بالهام من الله تعالى فى هذا المقام حتى قال قائلهم (عجيب) ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لهندتى لو لا أن هدانا الله .

وإذا كنا ونحن لا نساوى شيئا بالقياس الى السلف الصالح يلهمنا الله تعالى فى قلوبنا ما لا عهد لنا به فكيف بهؤلاء السلف الذين أخلصوا دينهم لله ، وطرحوا الدنيا وزينتها عن قلوبهم ، وعاشوا للآخرة التى خلقوا لها وألزمهم الله كلمة التقوى فكانوا أحق بها وأهلها ، ورحم الله من قال :

وإذا لم تر الهلال فسلم

لأناس رأوه بالأبصار

اللهم اجمع قلوبنا على محبتك ، واجعلنا بفضلك من أهل صفوتك ، واكتب لنا مع عبادك الصالحين عزتك التى قلت فيها (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

الأرزاق مقدرة

قال تعالى : (له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شىء عليم) ان سرت الى أقصى الارض أو أدناها فالمقدور معك حيث تكون) .

جاءت تلك العبارة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق المرحوم السيد / سالم جمعة وهى كما ترى عبارة تستند الى كتاب الله الكريم فى علاج مسألة من مسائل المجتمع الهامة وهى مسألة الرزق وقد صارت شغل الناس الشاغل حتى طغت أو كادت تطغى على ما عداها من المسائل حتى كانهم خلقوا لها ولم يكلفوا شيئا غيرها .

وكتاب الله الكريم ملىء بالآيات التى تكلمت عن الرزق وتأتى فى قمتها الآية الشريفة (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها وكل فى كتاب مبين) وهى وحدها كافية شافية فى تسكين ثائرة نفوس البشر من جهة أرزاقهم لو كانوا يفقهون ، غير ان الحرص على الدنيا وزينتها وفتنتها والوقوف عند حدها حجبت أكثر البصائر فلم تر الحقيقة التى وعظتها بها (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

وقضية الرزق وان بدت فى ظاهرها انها قضية دنيوية فى حياة المؤمن الا انها فى الواقع هى قضية دِينه ودُنياه ، فهى لازمة من لوازم معاشه وخادمة فى طريق معاده . والموفق من المؤمنين هو الذى يكسب عيشه من حلال فى اطمئنان بموعد ربه فى تقدير رزقه ولا تصرفه دنيا المال عن اخراه فيغفل فى طلب الرزق عن الرازق فيخسر اخراه ويندم يوم القيامة حيث لا ينفع الندم .

ومن عجيب رحمة الله بعباده أن يقسم لهم أرزاقهم مقدرة عنده قبل أن يخلقوا فيقول تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ثم يبين لهم أن فى الارزاق فتنة يجب عليهم ان يحذروها وأن تكون لهم عناية أكبر بأمر

الآخرة فيقول تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) ، فزينة أهل الغفلة فى الدنيا بالمال والبنين وزينة أهل التقوى بالأعمال الصالحة واليقين .

وانظر كيف ضرب لنا الامثال بمن كانوا قبلنا ، فقال مثلا لبنى اسرائيل (كلو من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) والطيبات ما كانت حلالا ، وعند السادة الصوفية الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرازق سبحانه .

وقوله تعالى : (ولا تطغوا فيه) أى بتجاوز الحلال الى الحرام وعدم شكر الله ومنع حق الله فى الاموال وانفاقها فى معاصية وعند السادة الصوفية لا تأكلوا منه على الغفلة عن ربكم والنسيان .

ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : اختلف الناس فى كل شىء ، الا فى الرزق والاجل ، اجمعوا على أنه لا رازق الا الله و لا مميت الا الله . ويقول العارفون : اذا شهد العبد هذا بيقين ايمانه اطمأن قلبه فاستوى عنده الرزق والأجل ، فعلم يقينا انه لا بد من رزق ولا بد من أجل ، فلم يكن عليه الا مراعاة حكم الله ، وشهد من شهادته ان خلقا لا يقدر ان يزيد فى عمره ساعة ولا ينقص منه ساعة وكذلك ما كان من رزقه لا يعطى لاحد سواه ولا يستطيع أحد أن يحول بينه وبينه .

والمال فى ذاته خير ، ويأتى الشر من قبله اذا افتتن المؤمن به فانفقه فى شهواته وغفل بالانغماس فى الشهوات عن آخرته ، أما اذا استعمله المؤمن فى مرضاة ربه وكان كسبه من حلال فانه وسيلة من وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه (نعم المال الصالح للمرء الصالح) كما روى أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط بسند صحيح : وقال تعالى : (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين) فعبر عن المال بالخير كما قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم نهارا) .

ويقول سيدى الامام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى كتاب

المنح السنية أن سيدى الامام أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه كان يقول لاصحابه : كلوا من أطيب الطعام ، واشربوا من الذ الشراب ، وناموا على أوطأ الفراش ، والبسوا الين الثياب ، فان احدكم اذا فعل ذلك وقال (الحمد لله) يستجيب كل عضو فيه للشكر ، بخلاف ما اذا أكل الشعير بالملح ولبس العباءة ، ونام على الأرض ، وشرب الماء المالح الساخن ، وقال (الحمد لله) فانه يقول ذلك وعنده اشمئزاز وبعض سخط على المقدور ، ولو أنه نظر بعين بصيرة لوجد الاشمئزاز والسخط الذى عنده يرجح فى الاثم على من تمتع فى الدنيا بيقين ، فان المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الحق سبحانه وتعالى ، ومن كان عنده اشمئزاز وسخط على مقدور الله فقد فعل ما حرمه الله تعالى .

ومن ذلك نعلم أن ما يطلب من المؤمن الغنى الا تنسيه النعمة ربه الذى انعم بها عليه ، ولذلك يقول سيدى الامام الشعرانى رضى الله .

ومما انعم الله تبارك وتعالى به على عدم اشتغالى بالنعمة عن المنعم سبحانه وتعالى ، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل ، فقل من لا تشغله النعمة عن المنعم ، ويستطرد رضى الله عنه قائلا : والمعين لى على ذلك شهودى عدم ملكى لما خولنى الله تعالى فيه من الاطعمة والملابس انما انا عبد آكل من مال سيدى واسكن فى داره .

ويقول سيدى الامام عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه : احذر ان تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته فيحجبك بذلك عنه دنيا واخرى ، وربما سلبك ذلك المال وافقرك وغيرك عقوبة لك ، واعلم انك ان اشتغلت بطاعة الله عن ذلك المال فهو موهبة من الله تعالى لك وليس هو من المال المذموم ، فيكون المال خادمك وانت خادم المولى جل وعلا فتعيش فى الدنيا مدللا وفى الآخرة مكرما .

ويقول سيدى وشيخى على عقل رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

كل شىء يزول عند الممات ... غير حب الاله والصدقات

فاذا مت لم يكن غير ما قد ... مته صالحا قبيل الوفاة

تترك المال للوريث ولكن ... تؤنس القبر تركة الصالحات

والرضا بالرزق المقسوم من آداب السادة الصوفية ، ولذلك جاء فى وصية سيدى على الخواص رضى الله عنه :

اياك ان تشره عينك فتتمنى ما ليس لك أن يكون لك ، فانه لا يخلو اما ان يكون قسمة الله لك أو لم يقسمه ، فان كان قسمة لك فهو صائر اليك لا محالة اما مشيك اليه أو بمجيئه هو اليك من غير مشى ، وأما ان لم يكن قسمه الله لك فلا يمكنك الوصول اليه بحيلة من الحيل ، فاشتغل عن ذلك باحسان الادب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك فى وقتك الحاضر ، فقد نصحتك وعليك ببذل طوقك وجهدك فى طاعته معتذرا مفتقرا خاشعا مطرقا غير ناظر الى عوض من دنيا أو أخرى ، فانك عبد ، والعبد لا يستحق على خدمة سيده شيئا لانها من حقوق السيد .

وحين يدعو السادة الصوفية الى الزهد فى الدنيا يظن الناس خطأ انهم يدعون الى الفقر وعدم امتلاك المال ، وهو ظن خطأ وليس من الصواب فى شىء ، فان السادة الصوفية يقولون بصريح العبارة : ليس الزهد ان تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . ومن ذلك تدرك انه قد يكون الغنى زاهدا بخروج الدنيا من قلبه وقد يكون الفقير غير زاهد لا ستشرافه الى الدنيا وتعلق قلبه بها .

ولذلك يقول سيدى الامام الشعرانى رضى الله عنه : اذا تنظف القلب من الشركاء والانداد من الأهل والمال والولد واللذات والشهوات والولايات والرياسات ولم يبق فى القلب ارادة ولا أمنية فحينئذ لا يضر القلب ملاحظة الأسباب من المال والولد والأهل والاصحاب لان القلب حينئذ صار كالاناء المنكسر الذى لا يمسك ما يمكث فيه لانه قد انكسر بفعل الله عز وجل ، فكلما اجتمعت فيه ارادة بشىء غير الله تعالى كسرها فعل الله فلم يتركها تصل الى القلب بل تكون خارجة والله تعالى لا يغار من شىء يكون خارج القلب بل يعطيه للعبد على وجه الكرامة له بين عباده فيطعم منه الورادين والقاطنين ولا حساب عليه فى الآخرة ان شاء الله تعالى ، قال الله عز وجل فى مثل ذلك (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) فافهم ذلك واعمل على التخلق به .

ثم ان السادة الصوفية يرون ان الله تعالى يغنى عباده بالمال ويغنيهم كذلك بالحال ، وعندهم ان الغنى الحقيقى هو غنى الحال ومن أقوالهم فى ذلك : اغناء الله تعالى لعباده على قسمين ، منهم من يغنيهم بتنمية أموالهم ، ومنهم من يغنيهم بتصفية أحوالهم وهذا هو الغنى الحقيقى .

وهم يقولون أيضا ان صاحب الحال يجود على صاحب المال وصاحب المال عيال على صاحب الحال ، وصاحب المال يشفق وصاحب الحال ينفق وتخلق مع الخلق بالهمة ، والخلق أحوج الى همة صاحب الحال منهم الى نعمة صاحب المال .

وعند تفسيره لاسمه تعالى (المعز) يقول سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه :

اعزازه تعالى للعبد يكون فى الدنيا والاخرة ، فأما فى الدينا فيكون بالمال والحال ، فالمال لتجميل الظواهر ، والحال لتزيين السرائر ،والمال يحصل به الاستغناء عن الامثال والاشكال ، والحال يحصل بها افتقار الى من لم يزل ويزال ، فالاعزاز بالمال فيما بين الخلق ، والاعزاز بالحال على باب الحق .

ويضيف رضى الله عنه قائلا فى روعة :

واعلم ان الله سبحانه يعز الزاهدين بعزوف نفوسهم عن الدنيا ، ويعز العابدين بسلامة نفوسهم عن الرغائب والمنى ، ويعز أصحاب العبادات بسلامتهم عن اتباع الهوى ، ويعز المريدين بزهادتهم فى صحبة الورى وانقطاعهم الى باب المولى ، ويعز العارفين بتأهيلهم لمقامات النجوى ، ويعز المحبين بالكشف واللقا ، والفنا عن كل ما هو غير وسوى ، ويعز الموحدين بشهود جلال من له البقا والبها .

ومن طرائف السادة الصوفية قولهم : ان الله تعالى خص الاغنياء بوجود الارزاق وخص الفقراء بشهود الرزاق ، وقد حكو ان رجلا قال لحاتم الاصم : من أين تأكل ، فقال : من خزائنه ، فقال الرجل : يلقى عليك الرزق من السماء ؟ فقال : لو لم تكن الأرض له لكان يلقى على الخبز من السماء ، فقال الرجل : انتم تقولون الكلام ، فقال : انه لم

ينزل من السماء الا الكلام ، فقال : انا لا أقوى على مجادلتك ، فقال لان الباطل لا يقوى على الحق .

ويتميز السادة الصوفية بقوة الثقة فى الله وحسن التوكل عليه تعالى فى أرزاقهم وفى تدبير كل أمورهم لأن المقدور معهم حيث كانوا كما قال سيدى الشيخ عبد السلام عفا الله عنه ، ويقول سيدى بشر الحافى انه رأى أمير المؤمنين الامام على ابن ابى طالب كرم الله وجهه فى منامه فقال له : عظنى يا أمير المؤمنين فقال له : ما أحسن عطف الاغنياء على الفقراء طلبا للثواب ، واحسن منه تيه الفقراء على الاغنياء ثقة بالله قال سيدى بشر فقلت له : زدنى يا أمير المؤمنين فقال له :

قد كنت ميتا فصرت حيا   وعن قريب تصير ميتا

عز بدار الفناء بيت   فابن بدار البقاء بيتا

وما أحلى ما يقول السادة الصوفية : كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا (بفتح الباء المشددة) غير مدبر (بكسر الباء المشدد) مرزوقا من حيث لا تحتسب ، وهم يقولون : ان القلوب كانت مفترقة فى الدنيا فقبضها الله تعالى عنها بقوله (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) فلما تعلقت القلوب بالآخرة قطعها الله سبحانه عنها بقوله (والله خير وأبقى) .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى كتاب التنوير :

للزاهد فى الدنيا علامتان ، علامة فى فقدها وعلامة فى وجودها ، فالعلامة فى وجودها الايثار منها ، والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها ، فالايثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان . ويقول رضى الله عنه أيضا : ينبغى لك أيها العبد الا تأسى على فقد شىء وألا تركن الى وجود شىء ، فان من وجد شيئا فركن اليه ، أو فقد شيئا فحزن عليه ، فقد أثبت عبوديته لذلك الشىء الذى أفرحه وجوده وأحزنه فقده ، ويضيف رضى الله عنه قائلا : ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه . وجاء فى حكمه : عنايته فيك لا لشىء منك ، واين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته ، لم يكن فى أزله اخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك الا محض الافضال وعظيم النوال .

وفى التعفف ورفع الهمة عن الخلق الى الخالق يقول السادة الصوفية : ربما استحيا العارف ان يرفع حاجته الى مولاه (أى استناد الى عمله بحاله كما قال سيدنا ابراهيم عليه السلام : علمه بحالى يغنى عن سؤالى ، ويكون ذلك الحياء من العارفين فى بعض الاحيان ولكنهم يسألون الله فى احيان اخر اظهارا للعبودية وامتثالا للربوبية) فكيف لا يستحى ان يرفعها الى خليقته .

ومن شعر سيدى ابن عطاء الله فى ذلك قوله رضى الله عنه :

الله يعلم اننى ذو همـــة تأبى الدنايا عفة وتظرفـا
لم لا أصون عن الورى ديباجتى وأريـهمو عز الملوك وأشرفا
أأريهموا انى الفقير اليهمــو وجميعهم لا يستطيع تصرفا
أم كيف أسأل رزقه من حقــه هذا لعمرى ان فعلت هو الجفا
شكوى الضعيف الى ضعيف مثله عجز اقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذى احسـانه عم البرية منـة وتلطفاِ
والجأ اليه تجده فيما ترتجــى لا تعد عن أبوابه متحرفـا

وكسب الارزاق من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من السعى فى تحصيل المعايش (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) و خير ما أكل المرء من من كسب يده ، وقد تاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورعى الغنم وكذلك كسب سادتنا النبياء والمرسلون أرزاقهم بجهودهم ، ويقول المرحوم شوقى أمير الشعراء فى ذلك :

من أحسن الامثال فيما أحسب الخبز لا يعطى ولكن يكسب
موسى الكليم استؤجر استئجارا وكان عيسى فى الصبا نجارا

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم صفوة هذه الامة يضربون فى الارض للتجارة ، كما كانوا يزرعون ، وانفقوا الأموال الطائلة على الدعوة الاسلامية ولم يقفوا فى انفاقهم عند حد الزكاة المفروضة بل تجاوزوها فقدموا لانفسهم خير وبرا ، وما يزال سخاء سيدنا عثمان بن عفان مضرب الامثال الى اليوم رضى الله عنه وعن سلفنا الصالح اجمعين

ومن السادة الصوفيه العاملين من نشطت تجارتة وربحت أرباحا طائلة وكانت عونا للفقراء والمحتاجين ، واذا نظرت فى نفقة سيدى عبد الله بن المبارك بهرك ما قدمت يداه فى سبيل الله عز جل حتى قال القائل :

اذا سار عبد الله عن مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها
اذا ذكر الاخيار فى كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت نهارك

وعندما يدعو السادة الصوفية الى اسقاط التدبير فانهم لا يقصدون بذلك ترك الاسباب وانما يقصدون به حصول الراحة النفسية التى تمكن المؤمن من ترك الشواغل التى تحول بينه وبين السعى لآخرته : فيعيش بهذه الراحة مطمئنا الى تدبير الله تعالى ويطرق أسباب الرزق المشروعة موافقا لمراد الله تعالى ومخالفا لحظوظ نفسه ، فاذا اتسع رزقه رد الفضل فى سعته الى فضل الله ، واستعمله فى حقوق الله ولم يستعمله فى حظوظ نفسه ، واذا ضاق رزقه فيرد الامر الى تقدير الله لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وها هو ذا سيدى ابن عطاء الله الذى تكلم كثيرا فى اسقاط التدبير يقول فى صراحة لا خفاء فيها : فلا بد لك من الاسباب وجودا ولا بد من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها تعالى بحكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحاديته . وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، كما أنه كان يقول : كنت أرى الشاب فيعجبنى منظره فاذا قيل لى لا حرفة له سقط من عينى . وكان سيدى ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه يعمل أجيرا فى البساتين وفى الحصاد ويأكل بعرق جبينه ، وكان يقول : عليك بعمل الابطال ، الكسب من الحلال والنفقة على العيال . وكان كبار فقهاء الامة يتاجرون ويكسبون حلالا من تجارتهم كما فعل الامام أبو حنيفة ومالك رضى الله عنهما ، وكان لهم عناية لمظاهرهم صيانة لمراكزهم الاجتماعية بين الناس عن تعليمهم أجرا وكان أجرهم على الله ، وقد قالوا لامامنا مالك رضى الله عنه : انك تعيش عيشة امراء ولا تعيش عيشة العلماء :

فاحتج عليهم بقوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

وإذا كان بعض سادتنا الصحابة قد تقشف فقد كان ذلك لضرورة حين قلت أموالهم وعظمت أحوالهم والله تعالى يقول (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله من بعد عسر يسرا) وفى الآية تطييب لنفوس المعسرين بقوله تعالى (سيجعل الله من بعد عسر يسرا) . وقد نظرت مرة الى نوافذ غرفتى والستائر محيطة بها وأخذت ألوم نفسى على تركيب تلك الستائر وما فيها من اسراف ، فاذا بخاطر ينقدح فى قلبى قائلا (لتركبوها وزينة) اشارة الى أن الستائر زينة مباحة شرعا .

وفى هذه المناسبة اذكر واقعة طريفة بين الصاحبين الجليلين سيدى أبى أيوب الانصارى وسيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فقد دعا سيدنا عبد الله سيدنا أبا أيوب الى طعام فلما دخل الدار رأى ستائر على المنافذ ، ولم يكن للسادة الصحابة عهد الستائر الا بستائر الكعبة المشرفة ، فقال سيدى أبو أيوب : ما هذا يا ابن عمر ؟ أكعبة فى بيتك ؟ أتتخذ شيئا لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سيدى ابن عمر : شىء غلبنا عليه النساء ، فقال سيدى أيوب : أقول لك لم يكن على عهد رسول الله وتقول غلبنا عليه النساء والله لا طعمت لك طعاما .

فانظر رعاك الله كيف حرص السادة الصحابة من ورعهم على ترك المباح خوف الوقوع فى المشبوه ، فلا أقل من أن نترك المشبوه خوف الوقوع فى الحرام .

اللهم ارزقنا حلالا طيبا ترضاه ، ووفقنا فى حسن استعماله حتى ترى علينا أثر نعمتك من الستر والشكر وصلاح الحال والمال فانك قلت وقولك الحق (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبولهم أيهم أحسن عملا) .

حسبنا الله

(وقل الله ، ولا تسأل عن أحد ، وقال جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، فالله لك مهما كان الأمر) .

جاءت تلك الكلمات المشرقة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، نور الله ضريحه ، لتلميذه الصالح المبارك الصديق المرحوم السيد / سالم جمعه ، وهى تكشف لنا عن القطب الذى يدور عليه التصوف كله ، فانه يدور على الغنى بالله ، والاستغناء عن سواه ، لأنه سبحانه وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم .

وذلك التوجيه الذى يوجهنا إليه سيدى الشيخ عبد السلام هو نهاية الشوط فى التربية الصوفية ، وهو يرفعنا به الى مقام الخواص وهم الواصلون الى الله تعالى ، وليس بينك وبين ربك مسافة تقطعها للوصول اليه ، وانما هو جهاد نفسك حتى يزول الحجاب بينها وبين الله فتراه أقرب اليها من كل قريب وأحب اليها من كل حبيب ، كما ترى بيده وحده العطاء والمنع والضرر والنفع ، وليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه فى مناجاته :

(الهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول اليك ، وبك استدل عليك ، فاهدنى بنورك اليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك ،

(الهى ، اعنى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى ،

الهى ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، واياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى .

(أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم

يلجأوا الى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وانت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم .

ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟ لقد خسر من بغى عنك متحولا ، وقد خاب من رضى دونك بدلا ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الاحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان .

وينصحنا رضى الله عنه فيقول :

(تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك يمدك بعزته ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ، كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟

ويرينا سيدى وشيخى الشيخ على عقل أن محبة الله هى معراج الوصول اليه سبحانه وتعالى ، فيقول رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

الحب ان ملك النفوس أعزها
والعاشقون بربهم علماء

والأصل فى الدنيا المحبة والهدى
لولا الهدى لم تخلق الأشياء

فاذا اتقينا الله جل جلاله
قضيت حوائجنا وسال الماء

من يصدقوا فازوا ومن سهروا علوا
ولهم أضاءت فى الدجى الزهراء

من لم يذوقوا ذكر خلاق السماء
هم والبهائم فى المقام سواء

بل ربما فطن البهيم لربه
والغافلون عن الهدى بلهاء

كونوا على هدى الطريق يعزكم
رب الورى هذا هو الاهداء

ليس العطاء المال عند أولى النهى
العلم عند الموقنين عطاء

وقد وقف رضى الله عنه نفسه على محبة ربه ، فلم يحفل بالناس فهو يقول الهاما لوقته من عطاء الله تعالى لأوليائه :

أنا صب ثابت القـدم   مستهام القلب من قدم
يجتلينى الحب فى سهرى   ونجوم الليل من خدمى
أملى فى الله يقبلنــى   فسوى الرحمن لم أرم
لم يثرنى الناس فى كلم   انما الله مدى كلمـى
أنا من حبى لحضرتـه   تارك للناس كلهـم
أنا من حبى لحضرتـه   لم أفق من لذة النغـم
لم أزل فى حى حضرتـه   مرتعا للعلم والحكـم
وفؤادى من هدايتــه   يرتوى من مورد الكرم
وبقلبى من محبتـــه   همة من أعظم الهمـم
هاجنى وجدى وبى حرق   لم تكن من شدة الضرم
بل هى الأنوار يقذفهـا   فسرت فى مهجتى ودمى

وقد طالب الله المؤمنين أن يقيموا الدليل على محبتـه تعالى بمتابعة من أخذوا عنـه محبـة الله تعالى والاستغناء به عن غيره وهو مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) كما بين لنا سبحانه أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هى طاعة الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) كما بين أن طاعته صلى الله عليه وسلم هى سبيل الاهتداء (وإن تطيعوه الله) كما بين أن طاعته صلى الله عليه وسلم سبيل الاهتداء (وان تطيعوه تهتدوا) وان مخالفته صلى الله عليه وسلم هى نذير الفتنة والعذاب الأليم (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وعلى نور تلك الآيات البينات تأسى الصحابة الكرام بأقوال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله ففازوا فوزا عظيما (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) ومن ثم ألحقهم الله بالكرام البررة (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

ويقول الامام سهل بن عبد الله رضى الله عنه :
أصول مذهبنا (يقصد الصوفية) ثلاثة : (١) الاقتداء بالنبى صلى الله عاليه وسلم (٢) الأكل من الحلال (٣) واخلاص النية فى جميع الأعمال .
وقال سيدى أبو عثمان الحيرى رضى الله عنه : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة ، ويروى السادة الصوفية الحديث الشريف (من أحب سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة) .
ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه : اعلم أن بركات السنة توصل العبد الى حقائق القربة وتجعله أهلا لخصائص الرأفة .
ويقول شيخه الامام أبو على الدقاق رضى الله عنه : من استهان بأدب من آداب الاسلام عوقب بحرمان السنة ، ومن ترك سنة عوقب بحرمان الفريضة ، ومن استهان بالفرائض قيض الله له مبتدعا يذكر ضده باطلا فيوقع فى قلبه شبة .
ويحكى السادة الصوفية أن الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال : كنت يوما مع جماعة يتجردون ويدخلون الحمام ، فاستعملت خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام الا بمئزر) ولم أتجرد ، فرأيت تلك الليلة فى المنام قائلا يقول لى : أبشر يا أحمد فان الله قد غفر لك باستعمال السنة فقلت من أنت فقال جبريل ، وقد جعلك الله اماما يقتدى بك . وحكوا عن بعضهم أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت يا رسول الله اشفع لى ، قال ، قد شفعت لك ، فقلت : متى ؟ قال : اليوم الذى أحييت فيه سنة من سنتى وقد أميتت ..
وفى تفسير قوله تعالى (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) يقول السادة الصوفية أن الحكمة هى السنة . وفى تفسير قوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) يقولون ان العمل الصالح هو الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى مناسبة تلك الآية الكريمة حكى لى المرحوم والدى أوسع الله له فى رضوانه أنه حين كان بمكة المكرمة حاجا (من نحو ثلاثين سنة)

رأى فى المنام أن تلك الآيات تتلى عليه فقام من نومه مسرورا ومستبشرا بأداء حجه وكرم ربه ، ثم نسى الآية وأخذ يفكر طويلا فى تذكرها فلم يستطع أن يتذكرها فأسف غاية الأسف لنسيانها ثم دخل المسجد الحرام وجلس قريبا من الكعبة المشرفة متطلعا اليها ، فاذا بقارىء يجاوره فى مجلسه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويقرأ على مسمع سيدى الوالد رحمه الله (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ...) فكان سروره بتذكر الآية بالغا للغاية واعتبر ذلك فضلا جديدا من الله عليه ، ولحرصه على دوام تذكرها ، سأل القارئ بعد أن فرغ من قراءته عن سورتها فقال له : هى سورة فاطر .

وترشدنا الآية الكريمة الى طلب العزة ممن يملكها وحده سبحانه ، بتوحيد الله وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم اذ لا عزة الا عزة الله ولا هدى الا هداه . ألا ترى أنه تعالى علمنا فى فاتحة الكتاب أن نقول (اهدنا الصراط المستقيم) ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى معناه : مل بقلوبنا اليك ، وأقم هممنا بين يديك ، وكن دليلنا منك عليك ، ويضيف رحمه الله قائلا : وكما يهديهم اليه بحسن التعريف ، يهديهم الى محاسن الأخلاق ومعالى الأمور بحسن التشريف ، قال سبحانه (ونفس وما سواه فألهمها فجورها وتقواها) .

وفى تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) يقول الامام القشيرى رضى الله عنه معناه : منور السموات والأرض ، وقيل الهادى لأهل السموات والأرض ، وقيل سمى النور لأن منه النور ، فاذا كان بمعنى المنور فإنما هو منور الآفاق بالنجوم والأنوار ، ومنور القلوب بفنون الدلائل وصنوف الحجج والملاطفات ، ومنور الأبدان بآثار العبادات ، فالطاعات زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح ، والتأييد بالموافقات نور الظواهر ، والتوحيد بالمواصلات نور السرائر ، وان الله سبحانه يزيد قلب العبد نورا بنور البرهان ثم يمده بحسن البيان ، قال سبحانه (نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء) .

وقد قيل لبعض الصوفية : سل حاجتك ، فقال : من وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن أن يكون لغير الله عليه منة ، وقيل لبعضهم : ألك حاجة ؟ فقال : لا حاجة لى الى من لا يعلم حاجتى . وفى مناسبة اسمه

تعالى (ذو الجلال والاكرام) يقول الامام القشيرى رضى الله عنه : قيل الاجلال أن ترى ما دونه بعين الاقلال ، أما الاكرام فقريب من معنى الانعام الا أنه أخص لأنه ينعم على من لا يقال أكرمه ولكن لا يكرم الا من يقال أنعم عليه ، أما ترى كيف كرم موسى عليه السلام حيث سلمته اليه أمه كيف رباه فى حجر عدوه وكيف صرف عنه كيده ، أسلمته الى البحر متوكلة على الله بالغداة (صباحا) فرده اليها قبل الظهر ، واذا سلمت اليه ولدها فرباه فى حجر عدوه وصرف عنه كيده ، فمن سلم اليه قلبه حفظه كما فى الخبر : القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، أى بين نعمتين من نعمه ، ترى أنه يضيعه ولا يحفظه ، حاشا لله .

ولما كان لشيوخ الصوفية مدخل فى تربية قلوب المريدين فى سلوكهم الى الله تعالى ، قال السادة الصوفية أن بر المريدين لشيوخهم يجب أن يكون أكثر من برهم بوالديهم ، وعللوا ذلك بأن الأب يحمى ولده عن آفات الدنيا والشيخ يحمى تلميذه عن آفات الآخرة ، والآب يربى ولده بنعمته والشيخ يربى تلميذه بهمته . كما أنهم يقولون : من حفظ حق أستاذه وشيخه لا يكافأ فى حياة الشيخ لئلا يسقط تعظيم الشيخ فى قلبه ومن لم يحفظ حرمة الشيخ لا يعاقب فى حياة الشيخ لأنه لهم بهم رحمة وشفقة فتداخلهم الشفقة عليهم ، بل ينتقم الله منهم ويكافئهم بعد موت شيوخهم ونعوذ بالله من سوء الخاتمة .

ومحبة العبد لربه تقتضى منه لزوم طاعته والائتمار بأمره والانتهاء بنهيه ، كما تقتضى من العبد تعظيمه لربه وهيبته منه ، وكلما كان أكثر طاعة له وأشد تعظيما كان أكثر محبة ، ومن كان عاصيا لأمره ومخالفا له كان بعيدا من محبته ، وتقتضى محبة المؤمن لربه ايثاره سبحانه على كل ما سواه ، ومن ثم لا يترك فى مرضاة ربه مجهودا الا بذله ولا ممكنا الا استعمله ، وأنشدوا فى ذلك :

لئن بقيت فى العين منى قطرة

فانى اذن فى العاشقين دخيل

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

وعيب على ذى الحب أن يألف الكرى

وهل نام من فى قلبه كمن الجمر

لقد دار فى الحب من كان جانب

الى أن تساوى عندى الليل والفجر

كما يقول رضى الله عنه :

أنا قد خلوت عن الورى وجعلت حبى فيك وحدك

وجعلت ذكرك غايتى وتبعت بالايمان جندك

وسهرت ليلى بالهدى ورفعت بين الناس حبك

ومشيت أنصح فى الملا وأعلم الأصحاب قصدك

ويقول رضى الله عنه :

رأيتك من الدنيا كفيلى ولم أر غير ركنك من مقيل

تجنبت الشكوك فما عرتنى وأدركت الحقيقة فى مثولى

وفتشت العلوم وعارفيها فلم أر كالمحبة من دليل

محبة خالقى مشكاة قلبى على أنوارها ألقى وصولى

وأن الحب أشواق وصبر يعز على المنافق والكسول

ورى الناس من ماء ولكن شراب الحب يذكى من غليلى

ولى من مشرق الايمان علم سموت به على الفحول

علومى فى الورى نفحات ربى فما بلغوا مذاقى أو شمولى

ولأنه رضى الله عنه رأى فى كفالة ربه ما أغناه عن غيره فقد اكتفى به سبحانه وسأله حاجاته وخافه ولم يخف سطوة عباده فقال رضى الله عنه :

مد اليدين اليك أفضل شرعة

ولغير وجهك لا يصح سؤالى

فاجعل هداك شريعتى وذريعتى

واجعل شهودك لى مسرة حالى

يارب قلبى غسلت من الورى

اذ ليس غيرك ما ذكرت ببالى

بالحب كنت ولا أزال فان أمت

لم تأتزر روحى بثوب زوال

ان مر بى عصف الزمان وقصفه

والله لست بما شهدت أبالى

أأحبه وأخاف سطوة غيـره

هذا وحقك لا تعيه خصالى

روض المحبة قد شهدت جلالـه

وجماله فثبت فى أحوالى

ومن كلام سيدى الشيخ على رضى الله عنه ندرك أن أهل الله وهم الأولياء الأصفياء يكتفون بالله ولا يسألون سواه ، لأن شعار الولى (حسبى الله) أى يكفينى ربى ، وهو الشعار الأكرم الذى اختاره الله لرسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم حين قال له (فان تولوا فقل حسبى الله لا الـه الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) وهو الشعار الذى استمسك به سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار فقد قال : حسبى الله فكفاه ربه شر أعدائه وقال للنار (كونى بردا وسلاما على ابراهيم) .

وقد كان نقش الخاتم الذى يلبسه الامام مالك رضى الله عنه : (حسبنا الله ونعم الوكيل) وقد سألوه فى سبب اتخاذه ذلك الشعار فقال لهم لأن بعدها (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) مشيرا بذلك إلى ما حكاه الله عن سادتنا الصحابة الكرام الذين نزل فيهم قوله تعالى (الذين قال لهم الناس ان الناس فد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمان وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمتة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) .

والمتوكلون على الله فى أمورهم فى ثقة واطمئنان يكفيهم الله ما أهمهم . وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (انى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا) فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ويعيدها) .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة

يشـهدك وجـوده لا عدمك ولا وجـودك . وفسـروا ذلـك بـأن شـعاع البصـيرة نـور العقـل ، وعـين البصيرة نور العلم ، وحق البصيرة نور الحق ، فالعقلاء بنور عقولهم شـهدوا أنفسـهم وشـاهدوا ربهم قريبا منـهم (أى قرب بالعلم والاحاطة لا بالمسافة) والعلماء بنور علمهم شهدوا أنفسـهم عدما فى وجود ربهم ، والمتحققون بنور الحق شاهدوا الحق ولم يشاهدوا معه سواه .

ويقول كذلك رضى الله عنه : لا يكن تأخر أمد العطاء مع الالحاح فـى الدعاء موجبا ليأسك ، فهو الذى ضمن لك الاجابة فيما يختـاره لـك لا فيمـا تختـاره لنفسك ، وفـى الوقت الـذى تريـد .

ويقول سيدى الامام أبـو الحسـن الشـاذلى فـى تفويض الأمـور الـى الله سبحانـه : لا تختـر مـن أمرك شيئا ، واختر ألا تختار ، وفر مـن ذلـك المختـار ومـن فرارك ومـن كـل شـىء الـى الله عز وجل (وربك يخلـق مـا يشـاء ويختـار) وقولـه هذا يفسر لنـا قولـه سيدى الشيخ عبد السـلام الوارد فى صدر المقال : فالله لك مهما كـان الأمـر ، ويزيـدنا سيدى ابـن عطـاء شـرحا فيقـول : اذا أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف اليك ومقبل بوجود لطفه عليك .

وختاما أقول ما حكاه الله عن سادتنا الصحابة ، وأحب أن يقولـه معى كـل مؤمن (حسـبنا الله ونعم الوكيل) .

حزب الله

(سرت سارية الليل لاهل الليل ، الذين يبغون الجليل ، وليس لاحدهم شاغل عنه ، فهو مع الله ، يسير له الدنيا وهو عنها غافل ، لانه مع الله عاقل ، لا يسأل عن المعاقل ، فهو به واصل ، مسلم لله ، فالله يرعاه ، لانه يرى أنه غير مالك ، والله مالك المالك) .

تلك سطور من نور جاءت فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، نور الله ضريحه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق المرحوم السيد / سالم جمعه ، ، وهى تصف عباد الرحمن فى اشتغالهم بالله ، فى عبودية الفاهمين عن الله ، والعارفين به سبحانه ، لم تلههم عنه دنيا فانية ، أو عرض زائل ، فان ملكت أيديهم من متاعها شيئا أيقنوا أنهم مملكون وليسوا مالكين على الحقيقة ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

والعقل عن الله تعالى نعمة لا توازيها نعمة من النعم ، وقد روى عطاء ابن أبى رباح عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنهما ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قسم الله العقل على ثلاثة أجزاء فمن كن فيه فهو العقل ، ومن لم يكن فيه فلا عقل له ، حسن المعرفة بالله عز وجل ، وحسن الطاعة لله عز وجل ، وحسن الصبر لله عز وجل) .

وأهل الليل الذين يشير اليهم سيدى الشيخ هم أهل المحبة ، الذين آثروا الله على هواهم ، فسهروا ليلهم شوقا اليه ، وغراما به ، ومناجاة له ، حيث نام غيرهم واشتد غطيطهم ، وقد أنشدوا فى ذلك :

وفى الناس من تحلو له لذة الكرى

وذكرك أحلى فى الجفون من الغمض

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

اذا سهرت فما أسهرات عن ملل

لكنه الحب يدعونى وأشهده

ومذ تغزلت فى ربى وما الفت

روحى سواه تجافى الجفن مرقده

اذا مددت يدى لله أسألــه

مدت الى بمعنى فضله يــده

ولا تعجب ان يكون هذا حالهم فان من ذاق شيئا من محبة الله ألهاه ذلك عما سواه ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه : ربما وردت عليك الأنوار ، فوجدت القلب محشورا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت ، فرغ قلبك من الأغيار يملأ قلبك بالمعارف والاسرار . وسيدى ابن عطاء الله لا ينفى وجود الآثار انما هو يطالبنا أن نراها كما نرى الظلال فى الانهار التى لا تعوقنا عن السير فيها وان بدت على صفحات الماء ولذلك يقول :

من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله ، فان ظلال الأشجار لا تعوق السفن عن التسيار ، ومن هنا يتبن لك أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين الله ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم ان يكون أقرب اليك منه ، ولا شىء أقرب من الله ، فرجعت حقيقة الحجاب الى توهم الحجاب .

ويقول الامام القشيرى فى لطائف الاشارات عند قول سيدنا زكريا عليه السلام (... فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) انه لم يرد الولد بشهوة الدنيا وأخذ الحظوظ منها وانما طلب الولد ليقوم بحق الله ، ويرث من آل يعقوب النبوة وتبليغ الرسالة فاستجاب الله له ، وعند قوله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا) يقول الامام : والقوة هنا ليس قوة يد ولكن قوة قلب ، وذلك خير خصه الله تعالى به وهو النبوة ، أما التقوى فعلى قسمين مجموع ومجلوب يتوصل اليه العبد بتكلفه وتعلمه ، وموضوع من الله تعالى وموهوب منه يصل اليه العبد بفضله سبحانه .

وقد حجب الله عنا الغيب وطالبنا بالعمل والسعى للآخرة لئلا نتعلل على ما قدره فى الازل ، وأرشدنا سبحانه الى أن رحمته قريب من المحسنين ، فمن أحسن عمله تعرض لرحمته فلا يقول قائل متخلف عن العمل كسلا (يختص برحمته من يشاء) فقد قال تعالى كذلك (ان

رحمة الله قريب من المحسنين) . وقد روى البخارى ومسلم والترمذى الحديث القدسى : (أنا عند ظن عبدى وأنا معه ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملا خير منه ، وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب ذراعا تقربت اليه باع ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة) .

ويجب تأويل القرب والهرولة بالنسبة له سبحانه لانه لا يتحرك ولا يسكن ولا ينقص ولا يزداد ، تأويل القرب والهرولة هو موالاة العبد بالنفحات والفيوضات حتى يذوق معرفة الله ذوق الخواص من عباد الرحمن ، وهم الذين قيل فيهم :

جلت عن الوصف أن تحصى مآثرهم
بطاعة الله فى الدنيا مفاخرهم
على البواطن قد دلت ظواهرهم
أحبهم وأداريهم وأثرهم
بمهجتى وخصوصا منهموا نفرا

ويقول فيهم سيدى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى :

عباد ولكن علا قدرهم
تبارك من لهمو قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسى
وهم عند ربك نور الغسق
ونارهمو فى النعيم المقيم
فيا عجبا جنة فى حرق

وقال فيهم مرة أخرى :

قوم خلوا بجلال الله وانتهجوا
نهجا من الصدق كانوا فيه وافينا
ثم اختفوا عن عيون الناس وابتهلوا
لله واجتهدوا فى الله هادينا
وأدركوا أن نور الله مركزه
قلوب قوم لوجه الله ساعينا

والله علمهم بالشرع فهمهـــم

فسددوا وأقاموها براهينـــا

وعاهدوا الله فى سر وفى علـن

أن يلزموا الحق والقرآن والدنيا

أعلامهم فى سماء المجد قد نشرت

ومكنت من قلوب الناس تمكينـا

وعباد الرحمن فى ولـع دائم بـالله لا يسكن أنيتهم وحنينـهم اليه سبحانه ويبذلون أوقـاتهم فـى مرضاته غير عابئين بملامة اللائمين ، وفى ذلك يقول سيدى يحيى الرزاى رضى الله عنه :

يقولون يحيى جن من بعد صحـة

ولا يعلم العذال ما فى حشائيـا

اذا كان داء المرء حب مليكـــه

فمن غيره يرجوه طبيبا مداويـا

ألا فاهجرونى وأرغبوا فى قطيعتـى

ولا تكشفوا عما يجن فؤاديـــا

كلونى الى المولى وكفوا ملامتـــى

لآنس بالمولى على كل ما بيــنا

وقد سئل بعض العارفين : متى يتحقق العبد بالعبودية ؟ فقال : اذا سلم القيادة من نفسـه الـى ربه ، وتبرأ من حوله وقوتـه ، وعلم أن الكل لـه وبه . ويقول الامام المحاسبى رضـى الله عنـه : الاخـلاص اخـراج الخلـق مـن معاملـة الله تعـالى ، والـنفس أول الخلـق . ويقـول الامـام سـهل التسترى رضـى الله عنـه : أهل لا الـه الا الله كثيـر والمخلصـون قليل وقد سئل الامـام الجنيـد رضى الله عنـه : أيهما أتم ؟ الاستغناء بالله تعالى أم الافتقار الـى الله عز وجل؟ فقال الإفتقار إلـى الله عز وجل موجب للغنـاء بـالله عز وجل ، فـاذا صـح الافتقار الـى الله عز وجل ، كمل الغناء بالله تعالى ، فلا يقال أيهما أتم لانـهما حالان لا يتم أحدهما الا بتمام الآخر ، فـاذا صـح الافتقار صح الغناء .

وقد سئل سيدى أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه عن معنـى قولـه تعالى (ثم أورثنـا الكتـاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه

ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فقال : السابق مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف الشوق ، مضطجع على باب الهيبة ، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة ، مقتول بسيف الندامة ، مضطجع على باب الندامة ، مضطجع على باب الكرم ، والظالم مضروب بسوط الأمل مقتول بسيف الحرص ، مضطجع على باب العقوبة .

وقد سئل سيدى أبو الحسين القرشى رضى الله عنه عن صفاء العبادة والمعاملة فقال : ان للعقل دلالة وللحكمة اشارة وللمعرفة شهادة ، فالعقل يدل ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد أن صفاء العبادات لا ينال الا بصفاء معرفة أربعة ، فأول ذلك معرفة الله تعالى ، والثانى معرفة النفس ، والثالث معرفة الموت ، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد الله ووعيده ، فمن عرف الله تعالى قام بحقه ومن عرف النفس استعد لمخالفتها ومجاهدتها ومن عرف الموت استعد لوروده ومن شهد وعيد الله تعالى ، ينزجر عن نهيه وينتدب لامره .

فمراعاة حق الله تعالى على ثلاثة أوجه : على الوفاء والادب والمروءة فأما الوفاء فانفراد القلب بفردانيته ، والثبات فى مشاهدة وحدانيته بنور أزليته والعيش معه ، وأما الادب فمراعاة الاسرار مع الخطرات وحفظ الاوقات ، والانقطاع عن الحسد والعدوات ، وأما المروءة ، فالثبات على الذكر نطقا وفعلا ، وصيانة اللسان ، وحفظ النظر ، وحفظ المطعم والملبس ، وينال ذلك بالادب ، لان أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الادب .

وقد أبدع سيدى وشيخى اشيخ على عقل قدس الله سره فى وصف النفس حين سأله ان يأتى له بأبيات على وزن البيت التالى وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
دون الذى تعلو به فى ذاتها

فقال فيما قال ، الهاما وارتجالا لوقته من عطاء الله لاوليائه واصفيائه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
كم عالم قد زل من نزاعاتها

تنأى عن الاصلاح طوال حياتها
وتواصل الاقبال فى شهواتها
وقفت على الدنيا حسن بلائها
فأمالها عن هديها وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضة
وتضج ان دعيت الى حسناتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى
كم تكثر الدعوى على قرباتها
ضحكت على جهالها فتوهموا
ان العلا والفوز فى نزواتها
فنحا مسيلمة النبوة وانتهى
فرعون للتأليه من عثراتها
والنفس ما برحت تضل وما بها
نور يزيل الظلم من ظلماتها
فانصح لنفسك فى الأمور لعلها
قد ترزق الانوار فى سبحاتها
ترضى تسفلها لكل نقيصة
دون الذى تعلو به فى ذاتها

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : للنفس مراتب ثلاث :
اذا سكنت وزايلها الاضطراب بسبب الشهوات سميت نفسا مطمئنة واذا اعترضت على الشهوات سميت نفسا لوامه ، واذا اذعنت للشهوات ودواعى الشيطان سميت نفس أمارة بالسوء . ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه . . كما يقول : اذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لا يثقل عليها الا ما كان حقا ويقول كذلك عفا الله عنه : انما تحتاج الى معاجلة نفسك فى الابتداء فاذا ذقت المنة جاءت معالجة النفس اختيارا ، فالحلاوة التى تجدها فى المعصية ، ترجع تجدها فى الطاعة .

ويقول كذلك رضى الله عنه : ان الذاكر باسمه تعالى (الله) وهو الاسم المفرد ، يكون متحققا فى ذكره بسبعة أصول : استحقار ما سوى

الله حالا ، والتعظيم لاوامر الله كشفا ، وسقوط الاكوان شهودا ، والفناء فى الجمع استغراقا ، وتعلق الهمة بالله دأبا ومراقبة الانفاس سرا ، ثم حدوث الوله ، بمعنى أن يستغرق سر الذاكر فى وجوده فى حال شهوده ، بحيث لا يرى غير الله ، ولا يحس بشىء سواه . وهو بذلك يشرح لنا قول سيدى الشيخ عبد السلام الوارد فى صدر المقال فهو به واصل . . .

ويقول سيدى الامام أبو على الدقاق رضى الله عنه : من زين ظاهره بالمجاهدة زين الله سرائره بالمشاهدة ، قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) .

ويقول سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى نصائحه الالهامية :

أننام ليلا ثم ندعى سادة
هذا الضلال البحت وا أسفاه
عودوا بنا لليل نسهر بالهدى
فالليل يكشف للمريد غطاه

وانظر ، رعاك الله ، كيف تحقق شيخنا بربه وتجرد له فى عبودية خالصة حين قال الهاما رضى الله عنه :

يا أيها المغرم السارى بسيده
روح المحبين تحقيق وتجريد
سارع الى الله معتزا برحمته
فالكل عبد ورب الكل معبود
قالوا اتخذ لك جاها قلت وا عجبى
أغير ربى ايمان وتوحيد
أطوف بالحى صبا فى مكارمه
يارب صب رواه البر والجود
وانما أنا فان فى محبته
لكننى فى كتاب الحب موجود
ما لذلى غير شدوى فى مواهبه
وانما مشهود أنا مشهود وموعود

وفى صدر رسالة بعث بها الامام الجنيد رضى الله عنه لأحد احبابه قال : أكرمك الله بطاعته ، وخصك بولايته ، وجلك بستره ، ووفقك لسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وأطلعك على فهم كتابه ، وانطقك بالحكمة ، وآنسك بالقرب ، وخصك بالفوائد ، ومنحك الزيادات ، والزمك بابه ، وكلفك خدمته ، حتى تكون له موافقا ، ولكأس محبته ذائقا ، فيتصل العيش بالعيش ، والحياة بالحياة ، والروح بالروح ، فتتم النعمة ، وتسلم من المعتبة ، فتصح العاقبة ، وتكمل السلامة .

وفى صدر رسالة أخرى كتب رضى الله عنه يقول لاحد أحبابه : حاطك الله بحياطته التى يحوط بها المستخلصين من أحبابه ، وثبتك وايانا على سبل مرضاته ، وأولج بك قباب انسه ، وأرقاك فى رياض فنون كرامته ، وكلأك فى الأحوال كلها كلاءة الجنين فى بطن أمه ، ثم أدام لك الحياة المستخلصة من قيمومية الحياة على دوام ديمومية أبديه وأفردك عمالك به وعما له بك ، حتى تكون فردا به فى دوامها ، لا أنت ولا مالك ولا العلم به ، ويكون الله وحده ، وفى كلامه شرح لما أجمله سيدى الشيخ عبد السلام فى عبارته التى بدأ بها المقال.

ويقول الامام الدقاق رضى الله عنه : ان العبد يصل بطاعته الى الجنة ، وبالادب فى طاعته الى الله . . ويقول ابن عطاء رضى الله عنه : الادب الوقوف مع المستحسنات ، فقيل وما معنى ذلك ؟ . . قال ان تعامل الله بالادب سرا وعلنا ، فاذا كنت كذلك كنت أديبا ، وان كنت أعجميا . وبهذا يبدوا لك معنى الحديث الشريف (ادبنى ربى فأحسن تأديبى) ، فكان – صلوات الله وسلامه عليه – مع الله فى جميع أوقاته ، وكان يقول : تنام عيناى ولا ينام قلبى . . ويخاطبه بعض صوفية الفرس بقوله :

يا ضيف أبيت عند ربى   فى جنة لا ينام قلبى

ويقول شيخ التصوف الاكبر سيد محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى عباد الرحمن الذين يقومون الليل :

قال تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) يا ليت شعرى ومن أقامهم من المضاجع حين نوم غيرهم الا هو (يدعون ربهم خوفا وطمعا)

يا ليت شعرى ومن انطق السنتهم بالدعاء ؟ . . ومن خوفهم وطمعهم الا هو ؟ . . أترى ذلك من نفوسهم ؟ . . لا والله ، الا من مفاتيح كرمه فتح بها عليهم (ومما رزقناهم ينفقون) فمما رزقهم التجافى عن المضاجع وعن دار الغرور ، ومما رزقهم الدعاء والابتهال ، ومما رزقهم الخوف منه والطمع فيه ، فأنفقوا ذلك كله عليه ، فقبله منهم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون) اى لا تعلم نفس عالمة ما أخفى الله لهؤلاء الموصوفين بتك الأوصاف من الجزاء الذى تقر به أعينهم . فكانت هذه الاعمال عين مفاتيح الكرم والمشاهدة ما أخفى لهم فيهم وفى هذه الأعمال من (قرة أعين) فكل ما هو فى خزائن الكرم فإن مفاتيحه تتضمنه ، فهو فيها مجمل وهو فى الخزائن مفصل ، فاذا فتح بالاعمال تميزت الرتب وعرفت النسب وجاءت كل حقيقة تطلب حقها ، وكل علم يطلب معلومه .

ويقول فى وصفهم سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه :

هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيما لربهم لمعرفتهم بجلاله ، فهم حجج الله على خلقه ، البسهم النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية الى مواصلته ، وأقامهم مقام الابطال لارادته ، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته ، وطهر أبدانهم بمراقبته وطيبهم بطيب أهل معاملته ، وكساهم حللا من نسج مودته ، ووضع على رءوسهم تيجان مسرته . . .

لقد اقامهم على باب النظر من قربه ، واجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ، ثم قال : ان اتاكم عليل من فقدى فداووه ، أو مريض من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فأمنوه ، أو آمن منى فحذروه ، أو راغب فى مواصلتى فمنوه ، أو راحل نحوى فزودوه أو جبان فى متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فعدوه ، أو راج لاحسانى فبشروه أو حسن الظن بى فباسطوه أو محب لى فواظبوه ، أو معظم لقدرى فعظموه ، أو مسيئ بعد احسان فعاتبوه .

ومما يقوله فيهم الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه :

همومهم فى الجد والطلب ، وأرواحهم فى النجاة والقرب ، يستقلون الكثير من اعمالهم ، ويستكثرون القليل من نعم الله عز وجل عليهم ، ان انعم الله عليهم شكروا ، وان منعوا صبروا . . . اذاقهم الله طعم

محبتـه ، ونعمهم بدوام العذوبـة فـى مناجاتـه ، فقطعهم ذلـك عن الشـهوات وجـانبوا اللـذات ، وداموا فـى خدمـة ملك الارض والسموات ، قد اعتقدوا الرضـاء قبل وقـوع القضـاء . . . طـاب والله عيشهم ودام ، نعيمهم سليم ، وغناهم فى قلوبهم مقيم ، كأنهم نظروا بأبصار القلوب الى محجوب الغيوب فقطعوا كل محبوب ، وصار الله جل جلاله ، هو المنى والمطلوب .

دعاهم اليـه فأجـابوه بالجد ودوام السير ، فلـم يقـم لهـم اشـتغال اذ استيقنوا دعوة الجبـار ، فعندها غابت عن قلوبهم أسباب الفتنـة بـدواهيها وظهرت أسباب المعرفـة بمـا فيهـا ، فصـار مطيتهم اليه الرغبة ، وسائقهم الرهبـة ، وحـاديهم الشـوق من المحبـة ، حتـى ادخلهم فـى رق عبوديتـه وبصرهم عظيم ربوبيتـه ، فليس تلحقهم ترة فى نيـة ، ولا وهن فـى عزمـة ، ولا ضـعف فى خدمة ، والا تأول فى رخصة ، ولا ميل الى داعى غرة .

ومما يقول سيدى الحكيم الترمذى رضى الله عنه فى وصف ولى الله :

. . . قد ذلت نفسه عند ظهور عزته ، وتلاشت عن التكلف عند رؤيته نصرته ، فقامت نفسـه فى خدمته كالعبد المحجوز ، أو كالمضطر المقهور ، أو كالاسير المأسور ، ثم نظر اليـه ربـه نظرة رحمته ، فنثر عليه من خزائن الربوبية نثار كرامات الخصوصية ، حتى قام مقام حقيقة العبودية ، فأغناه الله تعالى بذلك ، ثم قربه وناداه ، وأكرمه وسماه ، ولطف بـه ودعـاه ، فأتـاه حين سمع نداءه ، فأيده الله تعالى وقواه ، واكتنفه وآواه . حتى أجابه ولباه ، وفـى السر نـاداه ، وفـى كل وقت نـاجـاه ، وصرخ الـى مـولاه ، لا يعرف لـه ربـا سـواه ، فأعطـاه سؤلـه ومنـاه ، واصطفاه لخدمتـه وهداه ، ولمحبتـه ارتضـاه ، ولمعرفتـه اجتبـاه ، وأجرى بـين يديـه انـهـار مـن الصدق والصفاء ، والتحقيق والحياء ، والمحبة والرضاء ، والخوف والرجاء ، والصبر والوفـاء ، والشكر والقضاء ، والبقاء واللقاء ، والافتقار والافتخـار ، والتعظيم وترك الاختيـار ، والنظر فى الاقدار ومشاهدة العزيز الجبار ، يزيده الله كل وقت من اللطـائف مـا عجز الواصفون عن وصفه ، وهو فى قرب من مولاه ، مستوحش من دنيـاه ، اشتغل بـالله عن النظر فـى عقبـاه ، فهو فى أرغد عيش مع مولاه .

وهذا التفصيل يكشف لنا الستر عما اجمله سيدى الشيخ عبد السلام فى قوله : وليس لاحدهم شاغل عنه فهو مع الله ، يسير له الدنيا وهو عنها غافل ، لانه مع الله عاقل .

اللهم أدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين الذين نسبتهم اليك فشرفتهم بتلك النسبة العظيمة فى قولك الكريم : (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون) .

الأسوة الحسنة

(فايمانك من نور النبى صلى الله عليه وسلم ، ونور النبى من نور الله ، فابشر بالايمان) .
جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى قدس الله سره الى تلميذه الصالح المبارك الصديق المرحوم السيد / سالم جمعة ، وهى ترينا فضل الله على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ترينا فضل الله علينا فى ارساله الينا صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، فقد آمنا بالله على يديه ، وسلكنا طريق الحق على نوره الذى أودعه الله قلبه الشريف وجعله كاشفا للبصائر سبل الرشاد (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى الله تصير الأمور) .
ولان هدى الله جاءنا على يد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقديره سبحانه فقد من الله علينا برسوله العظيم فى قوله الكريم (لقد من على الله المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزيكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقد روى البخارى عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أجل والله انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وحرزا للاميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به اعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .
وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الاحبار وزاد بن اسحق فيه : ولا صخب فى الاسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولا قوال للخنا ، أسدده

لكل جميل ، واهب له كل خلق كريم ، واجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى امامه ، والاسلام ملته ، واحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، واسمى به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، واغنى به بعد العيلة ، واجمع به بعد الفرقة ، واؤلف به بين قلوب مختلفة ، واهواء متشتتة ، وامم متفرقة ، واجعل أمته خير أمة اخرجت للناس .

وفضل الله على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل كبير (ان فضله كان عليك كبيرا) وقدر روى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال فى كلام بكى به النبى صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضليتك عند الله ان بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله ان أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) .

كذلك جعله الله أمانا ورحمة لامته فقال سبحانه (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) أى وأنت بمكة قبل الهجرة ، فلما خرج عليه الصلاة والسلام منها وبقى فيها من بقى من المؤمنين نزل قوله تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وهذا من أبين ما يظهر مكانته عليه الصلاة والسلام ، قال بعضهم : الرسول عليه الصلاة والسلام هو الامان الاعظم ما عاش وما دامت سنته باقية فهو باق ، فاذا أميتت سنته فانتظروا البلاء والفتن . وفى قوله صلى الله عليه وسلم (أنا أمان لأصحابى) قيل من البدع وقيل من الاختلاف والفتن . وأى فضل عظيم ناله رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه (ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فقد أبرز الله تعالى فضله صلى الله عليه وسلم بصلاة الله عليه ثم صلاة ملائكته عليه وأمر عباده المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد حكى أبو بكر بن فورك ان بعض العلماء تأول قوله عليه الصلاة والسلام (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) أى فى

صلاة الله على وملائكته وأمره الامة بذلك الى يوم القيامة . هذا والصلاة من الله تعالى رحمة من الملائكة والمؤمنين دعاء .

ويقول الامام جعقر الصادق رضى الله عنه : من تمام نعمة الله عليه صلى الله عليه وسلم ان جعله حبيبه واقسم بحياته (يقصد قوله تعالى : لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) ونسخ به شرائع غيره ، وعرج به الى المحل الأعلى ، وحفظه فى المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى ، وبعثه الى الاحمر والاسود ، وأحل له ولامته الغنائم ، وجعله شفيعا مشفعا ، وسيد ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ، ورضاه برضاه ، وجعله أحد ركنى التوحيد (أى لان الاسلام لا يقبل الا بالشهادتين شهادة أن لا اله الا الله وشهادة ان محمد رسول الله) ثم قال تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) ببيعتهم اياك يد الله فوق ايديهم (يريد عند البيعة) قيل قوة الله ، وقيل ثوابه ، وقيل منته ، وقيل عقده .

أقول ولقد كرمه الله بالقرآن الكريم (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) قيل السبع المثانى السور الطوال الأول والقرآن العظيم أم القرآن (أى الفاتحة) وقيل السبع المثانى أم القرآن والقرآن العظيم سائره . وجعل الله رسالته عامة (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) وقال تعالى (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) فى حين قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) فخصهم بقومهم وبعث مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخلق كافة .

كما أنه سبحانه جعل أوامر رسوله صلى الله عليه وسلم نافذة فى أمته ، وجعل طاعته فيها من طاعة الله ، ومخالفته فيها من مخالفة الله فقال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال (وان تطيعوه تهتدوا) وحذرهم مخالفته تحذيرا شديد فقال تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) . وفى قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أى اتباع أمره أولى من أتباع هوى النفس .

أما حرمته فقد عظمها الله تعالى فى كتابه الكريم فى كثير من آياته البينات فى مثل قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه امهاتهم) فلأزواجه الطاهرات حرمة الأمهات فيحرم نكاحهن من بعده

تكرمه لـه صلوات الله عليه لأنهن أزواجه فى الجنة ، وفى مثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وفى ذلك من التهديد ما فيه . وانظر كيف مدح الله الحافظين لحرمته فى قوله تعالى (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) ثم انظر كيف نفى الله العقل عن اكثر من كانوا ينادونه من وراء الحجرات فى قوله تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) واعجب كيف علق الله الايمان على الرضا بقضائه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : من لم ير نفسه فى ملك الرسول صلى الله عليه ولم ير ولايته عليه فى جميع أحواله لم يذق حلاوة سنته بحال .

ويقول أمامنا الشافعى رضى الله عنه فى فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىأمته : لم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت نلنا بها حظا فى دين أو دنيا أو دفع عنا بها مكروه فيهما أو فى واحد منهما الا رسول الله صلى الله عليه وسلم سببها . وانما قال امامنا الشافعى ذلك بنور بصيرته ، اما من انطمست بصيرته فلا يدرك تلك الحقيقة ولا يراها وان كان ذا عينين كما قال تعالى (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) وقد دخل السلطان محمود الغزنوى على الشيخ ابى الحسن الخرقانى رضى الله عنه وجلس ساعة ثم قال : يا شيخ ما تقول فى حق أبى يزيد البسطامى ، فقال الشيخ : هو رجل من رآه اهتدى ، فقال السطان وكيف ذلك وأبو جهل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخلص من الضلالة ، فقال الشيخ تعقيبا على هذا الكلام ، إن أبا جهل ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما رآه محمد بن عبد الله يتيم أبى طالب فلو كان رآه رسول الله لدخل فى السعادة ، أى لو رآه من حيث هو رسول معلم يهدى الى الرشد والى طريق مستقيم لسعد بمتابعته على الايمان ولكنه نظر اليه على أنه بشر يتيم ، وهو نظر سقيم ، لان خصوصية الرسالة فى البواطن لا فى الظواهر ، وقد خدعتهم الظواهر حين قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق) .

ويتزكى المؤمن فى دينه على قدر تعظيمه لشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصه على احياء سنته والاقتداء به فى التقرب الى ربه بالفرائض والنوافل وفضائل الاعمال وصفاء الاحوال ، لانه صلى الله عليه وسلم هو الاسوة الحسنة للمتقيين (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) وانما استنارت بصائر العارفين بصدق الهمة وقوة العزم فى متابعته صلوات الله وسلامه عليه . وقد كان ابن عمر رضى الله عنهما اذا أسرعت به ناقته شد زمامها وهى فى الطريق الى مكة المكرمة ليضيق خطاها ويقول : لعل خف يقع على خف ، فانظر كيف رأى سعادته فى أن يقع خف ناقته على خف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتابع آثاره الشريفة . وحدث عن شغفه بأقواله واحواله ولا حرج .

وفى هذه المناسبة اذكر انى كنت ذاهبا مع بعض اصدقائى الى المدينة المنورة وحان وقت صلاة العصر فنزلنا من السيارة للصلاة على الرمال فتذكرت قول سيدى الامام ابن دقيق العيد رضى الله عنه :

قف بالمنازل والمناهل من لدن
وادى قباء الى حمى أم القرى
وتوخ آثار النبى فضع بها
متشرفا خديك فى عفر الثرى
وإذا رأيت منازل الوحى التى
نشرت على الآفاق نورا أنوار
فاعلم بأنك ما رأيت شبيهه
مذ كنت فى ماضى الزمان ولا يرى

وقد حركت تلك الابيات وجدانى فوضعت خدى على الثرى متشرفا بآثاره صلى الله عليه وسلم ، ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

دع زمانا مضى وعد بى لأرض
شغفتنى بنورها المتلالى
بين بيداء روعت ووهاد
وذئاب تختال فى اقبال

ونجوم مثل الحباب على الكأس

تسامت أو كالحـلى والآلـى

قيل ماذا تريـد من هـذه الأرض

اتبغى البقـاء فى جمـع مـال

قلت والله غير أحمد مــالى

بعد رب العبـاد من آمــال

يا حبيبي رضاك دنيا وديـن

فهما باتباعكـم صحــالى

والحق الذى لا مرية فيه ان الحجاز يثير فى النفس ذكريات مجيدة وكيف لا والحجاز موطن الميلاد المحمدى وهو اسعد ميلاد عرفته البشرية ، وهو كذلك مهبط الوحى ، ومشرق الرسالة ، ومـراح البـراق ، ومقـر الحـرمين الشـريفين ، ومثـوى الجثمـان النبـوى الشـريف ، والصـحابة الاعلام والشـهداء الكرام ، ويرحم الله فليسوف المسلمين المرحوم السيد محمد اقبال اذ يقول فيما ترجمه عنه الى العربية صديقى الشيخ الصاوى شعلان :

اضحى الاسلام لنـا دينـا

وجميع الكون لنـا وطنــا

بنيت فى الأرض معابدهـا

والبيت الاول كعبتنـــا

هو أول بيت نحفظـــه

بحياة الروح ويحفظنـــا

يا أرض النور من الحرميـن

ويا ميلاد شريعتنـــا

روض الاسلام ودوحتـــه

فى أرضك نمـاها دمنــا

ان اسم محمد الهـــادى

روح الآمـال لنهضتنا

ومما يقول صديقى الفاضل الحاج عبد الوهاب عرب (وهو من رجال الطائف الصالحين الكرام وقد تعرفت اليه فى الروضة الشريفة

منذ عشر سنوات) فى قصيدته التى اهداها لى فى مناسبة تعارفنا حينئذ :

بلدة قدسهـا الرحمـن إذ
حازت الفخر بخير المرسليـن
فهى والبيت العتيق المجتبـى
منبع الدين ومأوى اللاجئيـن
حرم المختار أسمى منــزلا
بفؤادى من قصور المترفيـن
اذ به الروضة قرب المصطفـى
كم سعى جبريل فيها للأميـن
كم بها من عبرة فياضـــة
لمحب كم بها من صالحيـن
كم تبارى لثراهـا هائـــم
كم علا فيها دعاء الساجديـن
كم تلا القرآن فيها مخبـت
وسعى للخير سعى المحسنيـن
فلآثار سجود المصطفـــى
فى ثراها طيب عرف الياسميـن

ولقد وقفت بين يديه صلى الله عليه وسلم زائرا فتذكرت قول سيدى العارف بالله الشيخ احمد الحلوانى الخليلى قدس الله سره وقلت ما قال :

بالله صل حبل الرجاء تعطفـا
أنا ضيف جودك يا امام أولى الكرم
جد للضعيف بمبتغاه فإنـــه
ما للضعيف سوى رحابك ملتـزم
جد لى فان خزائن الرحمن فـى
يدك اليمن وانت أكرم من قسـم

ومرة أخرى تذكرت ما قاله أمير الشعراء شوقى رحمه الله :

صلى عليك ما صحب الدجى حاد
وحنت بالفلا وجنـــاء
واستقبل الرضوان فى غرفاتهم
بجنان عدن آلك السمحــاء
خير الوسائل من يقع منهم على
سبب اليك فحسبى الزهـراء

ويقول الامام السهيلى فى كتاب التعريف والاعلام ان اسم احمد علم منقول من صفة لا من فعل ، وتلك الصفة افعل التى يراد بها التفضيل فمعنى أحمد ، أحمد الحامدين لربه عز وجل ، وكذلك قال هو صلى الله عليه وسلم فى المعنى لانه يفتح عليه فى المقام المحمود بمحامد لم تفتح على أحد قبله فيحمد ربه بها فهو صاحب لواء الحمد ، وأما محمد فمنقول من صفة أيضا وهو فى معنى محمود ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار فمحمد هو الذى حمد مرة بعد مرة كما ان المكرم من أكرم مرة بعد مرة فاسم محمد مطابق لمعناه ، فهو محمود فى الدنيا بما هدى اليه ونفع به من العلم والحكمة وهو محمود فى الآخرة بالشفاعة فقد تكرر معنى الحمد كما يقضى اللفظ .

وأضاف رضى الله عنه قائلا : وانظر كيف انزلت عليه سورة الحمد وخص بها دون سائر الأنبياء ، وخص بلواء الحمد ، وخص بالمقام المحمود ، وانظر كيف شرع له سنة وقرآنا ان يقول عند اختتام الأفعال وانقضاء الامور ، الحمد لله رب العالمين ، قال تعالى (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) تنبيها لنا على ان الحمد مشروع عند انقضاء الامور ، وسن صلى الله عليه وسلم الحمد بعد الأكل والشرب ، وقال عند انقضاء السفر : آيبون تائبون لربنا حامدون .

ويحكى السيد محمد اقبل رحمه الله انه فى صغره ضرب بعصا سائلا وقف بباب دارهم وطرقه بشدة ، فتناثر الخبز الذى كان فى جرابه فخرج أبوه وعنفه قائلا له : الاترحم أباك ياولدى فى شيخوخته ، وكيف بأبيك اذا عاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وقال

له : لماذا لم تؤدب ولدك بالادب الاسلامى فيرحم البائس الفقير ، وكان لهذا الدرس القيم اثره البالغ فى نفس الفيلسوف العظيم اقبال وهو بركة عليه من بركات أبيه الذى ود أن يرضى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .

وكانت السيدة رابعة العدوية رحمها الله تصلى فى اليوم والليلة الف ركعة وتقول : ما اريد بذلك ثوابا ولكنى أريد أن اسر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول للأنبياء انظروا الى امرأة من أمتى هذا عملها فى اليوم والليلة . هذا واعلم انه لا طاقة لاحد بالتلقى والشهود بدون واسطته صلى الله عليه وسلم فهو المرآة الكبرى والمجلى الأعظم ، وأقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به ، والمعرفة لا نهاية لها فما دام الانسان يترقى فيها فهو يغترف من بحره صلى الله عليه وسلم ويستمد منه ،ويقول سيدى القطب أبو العباس المرسى رضى الله عنه : لو احتجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين .

والصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم طريق الفتح وهى من ذكر الله تعالى الآمر بها (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وصلاتنا عليه (وكذلك صلاة الملائكة) هى دعاء وابتهال فى ان يزيده الله تكريما على تكريم لقاء هدايتنا الى الايمان والى العمل الصالح لاننا عاجزون عن مكافأته فندعو له صلى الله عليه وسلم حتى يكافئه الله عنا . أما صلاة الله تعالى عليه وعلى المصلين عليه فمعناه افاضة أنواع الكرامات ولطائف النعم ، وقد ورد فى الحديث الشريف (من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا) .

وقالوا ان الله تعالى يضاعف الصلاة للمصلين صلى الله عليه وسلم ، الا ان الصلاة عليه ليست حسنة واحدة بل هى حسنات ، اذ فيها تجديد الايمان بالله أولا ثم بالرسول ثانيا ، ثم بتعظيمه ثالثا ، ثم بالعناية بطلب الكرامة له رابعا ، ثم بتجديد الايمان باليوم الآخر خامسا ، ثم بذكر آله سادسا ، وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمات ، ثم بتعظيم آله ونسبتهم اليه سابعا ، ثم باظهار المودة لهم ثامنا ، ولم يسأل صلى الله عليه وسلم من أمته الا المودة فى القربى ، ثم الابتهال

والتضرع تاسعا ، والدعاء مخ العبادة ، ثم بالاعتراف عاشرا ان الأمر كله لله وان النبى صلى الله عليه وسلم وان جل قدره فهو محتاج الى فضل الله عز وجل . فهذه عشر حسنات سوى ماورد به الشرع من ان الحسنة الواحدة بعشر امثلها وأن السيئة بمثلها فقط .

وقد دخل الامام الشبلى رضى الله عنه على بعض الصالحين فقبله بين عينيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله فسألته بماذا استحق منك الشبلى ذلك يارسول الله ؟ فقال انه يقرأ عقب كل صلاة الآيتين الاخيرتين من سورة التوبة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) ثم يصلى على ثلاث مرات .

وقد رأينا الخير كله من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، بالصيغتين الواردتين فى الطريقة الخليلية لشيخنا الاكبر الغوس سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه المنير بالزقازيق والملحق بمسجده المبارك المعروف هناك . وهاتان الصيغتان هما :

١- اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه عدد حروف القرآن حرفا حرفا ، وعدد كل حرف ألفا الفا ، وعدد صفوف الملائكة صفا صفا ، وعدد كل صف ألفا الفا ، وعدد الرمال ذرة ذرة ، وعدد كل ذر ألف ألف مرة ، عدد ما احاط به علمك ، وجرى به قلمك ، ونفذ به حكمك فى برك وبحرك وسائر خلقك ، عدد ما أحاط به علمك القديم من الواجب والجائز والمستحيل (الواجب وجود الله والمستحيل وجود شريك له والجائز فعل كل ممكن أو تركه كما يشاء سبحانه) اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه مثل ذلك . وهى صيغة نتلوها عقب كل فريضة ثلاث مرات .

٢ - اللهم صلى على سيدنا محمد عدد ما فى علم الله صلاة دائمة بدوام ملك الله وهى صيغة نتلوها فى النهار قدر الاستطاعة وبحسب الاجتهاد بلا عدد محدود . اما فى اليل فيذكر المريد الاسماء الحسنى حسب الارشاد ، ويذكر الاسم الواحد مائة الف مرة فى المدة المناسبة

لا جتهاده من الليالى دون قيد فى الحد الادنى أو الاعلى ، فاذا تمت المائة ألف انتقل لذكر الاسماء الذى يليه وهكذا حتى اذا فرغ من الكل كرر الكل بذلك الترتيب وهكذا .

الا رضى الله عن شيوخنا العارفين الذين نابوا عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الله وتنبيه القلوب الغافلة لبذل الهمة فى مرضاة الله تعالى بما آتاهم الله من نور البصيرة النافذة مصداقا لقوله تعالى (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

أهل اليقين

(فمن نعمتك يا الله وخيرك وجودك نسالك بك لك ، ولا نسالك بأحد غيرك ، أن تهبنا الايمان والتوحيد واليقين حتى نلقاك سالمين غانمين طاهرين مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) .

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق المرحوم السيد / سالم جمعة ، وهو يسأل ربه اليقين ، واليقين مقام عظيم أوله ارتفاع الشك ويتحلى المؤمن بعد ذلك بالثقة بما فى يد الله تعالى وليس لزيادته نهاية .

وقد أفتتح الله سبحانه سورة البقرة منوها بفضل التقوى القائمة على اليقين فقال تعالى (آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فدل كلامه الكريم على أن أهل اليقين هم أهل الهدى والفلاح .

ويقول السادة العارفون أن أهل اليقين على درجات ثلاث :

الأولى ـ درجة الاصاغر ، وهم المريدون والعوام ، وهم الذين زال الشك من قلوبهم .

الثانية ـ درجة الأوساط وهم الخصوص ، وهم الذين تحققوا باليقين وترقوا فيه من يقين حتى يصير اليقين لهم وطنا .

الثالثة ـ درجة الأكابر ، وهم خصوص الخصوص ، وهم الذين يقطعون كل سبب يحول بينهم وبين الله تعالى ، ومن العرش الى الثرى حتى يكون الله لا غير ، ويؤثرون الله تعالى على كل شىء سواه ، وليس لزيادة اليقين نهاية ، بل كلما تفهموا وتفقهوا فى الدين ازدادوا يقينا على يقين .

وقد جاء اليقين فى كتاب الله تعالى على ثلاث درجات : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين . ولتقريب فهم هذه الدرجات قالوا ان علم اليقين هو أن تعلم مثلا أن مكة المكرمة مدينة فى الحجاز وبها بيت الله الحرام الذى يحجه المؤمنون ، فاذا ذهبت الى الحجاز وجئت الى مداخل مكة بنفسك صرت فى عين اليقين ، فاذا سكنت مكة وتنقلت فيها صرت فى حق اليقين .

فالمعرفة ثلاث درجات :

١- عقلية ونورها البرهان أو علم اليقين .

٢- قلبية ونورها البيان أو عين اليقين .

٣- كشفية ونورها العرفان أو حق اليقين .

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه : علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين ، ولكن كل الانوار تتبدد أمام شمس حق اليقين ويقول رضى الله عنه أنه حين قال سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام (رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) كان يطلب زيادة اليقين ، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان حاصلا له من عين اليقين .

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الاشارات : والاشارة من ذبح الطيور أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح أهواء النفس فمن لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يحيى قلبه بالله ، وفيه اشارة الى البعث بعد الموت فقد قال له قطع بيدك هذه الطيور وفرق أجزاءها ثم ادعهن يأتينك سعيا ، فما كان مذبوحا بيد صاحب الخلة مقطعا مفرقا بيده فاذا ناداه استجاب له كل جزء مفرق ، كذلك الذى فرقه الحق وشتته فاذا ناداه استجاب ،

ولو أن فوقى تربة ودعوتنى

لأجبت صوتك والعظام رفات

ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى قوة يقينه بالله تعالى : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا ، يعنى عند معاينته لما آمن به بالغيب . ويقول الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه : أصول

مقامات اليقين التى ترد اليها فروع أحوال المتقين تسعة : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والرجاء ، والخوف ، والزهد ، والتوكل ، والرضا ، والمحبة .

أما التوبة فقد قال تعالى فى شأنها (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وقد سئل الامام الحسن البصرى رضى الله عنه التوبة النصوح الواردة فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) فقال : هى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح واضمار ألا يعود الى الذنب . ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : من يقول ان التوبة ليست بفرض فهو كافر . ومن رضى بقوله فهو كافر كما قال : ليس من الأشياء أوجب على الخلق من التوبة ، ولا عقوبة أشد عليهم من ترك التوبة ، وقد جهل الناس علم التوبة . وقال أيضا : التائب الذى يتوب من غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونفس .

وقد سئل سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه : كيف يصنع التائب فقال : هو من عمره بين يومين ، يوم مضى ويوم بقى فيصلحهما بثلاث : أما ما مضى فبالندم والاستغفار ، وأما ما بقى فبترك التخليط وأهله ولزوم المريدين ومجالسة الذاكرين ، والثالثة لزوم تصفية الغذاء (أى أكل الحلال) والدؤوب على العمل . وقال رضى الله عنه : علامة صدق التوبة : رقة القلب وغزارة الدم . ومن حكم السادة الصوفية قولهم : لا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها .

وفى قوله تعالى (استعينوا بالله واصبروا) يقول السادة الصوفية استعينوا به على الطاعة واصبروا على المجاهدة فى المعصية . ويقول امامنا على بن أبى طاب كرم الله وجهه أعمال البر كلها الى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كتفلة الى جنب البحر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكرالى جنب الجهاد فى سبيل الله كتفلة فى جنب البحر ، والجهاد فى سبيل الله تعالى الى مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النهى كتفلة فى جنب بحر لجى ، وهذا يفسر معنى قوله صلى الله عليه وسلم (رجعتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر مجاهدة النفس) .

والغفلة عند الموقنين أصل الكبائر ، وقد سأل سيدنا عمار بن ياسر أمامنا عليا كرم الله وجهه : أخبرنا عن الكفر على مابنى ؟ فقال : على أربع دعائم ، على الجفاء ، والعمى ، والغفلة ، والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسى الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشد وغرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب ، ومن شك تاه فى الضلالة .

ويقول العارفون : العوام يتوبون من سيئاتهم ، والصوفية يتوبون من حسناتهم يعنى من تقصيرهم فى أدائها لعظيم ما يشهدون من حق الله الملك العزيز سبحانه ، ومن نظرهم اليها أو نظرهم الى نفوسهم بها وهى منة الله الواصلة منه اليهم . وقد سئل الامام سهل رضى الله عنه عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال :

أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الانابة ، ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح ، والانابة أعمال القلوب ، والتوبة اقباله على مولاه وترك الخلق ، ثم يستغفر عن تقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ، ثم ينقل الى الانفراد ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ثم محادثة السر وهو الخلة ، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه والرضا زاده ، والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله تعالى اليه فيرفعه الى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش . وكان رضى الله عنه يقول : العبد لا بد له من مولاه على كل حال وأحسن حاله أن يرجع اليه فى كل شىء ، اذا عصى يقول : يارب استر على ، فاذا فرغ من المعصية قال : يارب تب على ، فاذا تاب قال : يارب ارزقنى العصمة . فاذا عمل قال يارب تقبل منى . وبعد التوبة يتعقب المؤمن الذنب بثمانية أعمال ، أربعة من الجوارح وأربعة من أعمال القلوب ، ويرجو بذلك كفارة الخطيئة ، أما أعمال الجوارح فهى أن يصلى ركعتين ثم يستغفر سبعين مرة ويقول : (سبحان الله العظيم وبحمده) مائة مرة ثم يتصدق بصدقة ويصوم يوم ، وأما أعمال القلوب فهى اعتقاد التوبة منه ، وحب الاقلاع عن الذنب ، وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له ، يحتسب على الله تعالى بحسن ظنه

وصدق يقينه كفارة ذنبه ، فبهذه الاعمال قد وردت بها الآثار أنها المكفرة للزلل والعثار .
وأضاف الامام أبو طالب رضى الله عنه قائلا :
وفى أخبار متفرقة جمعناها : ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات : يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : ويا ليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر : يا ليتهم اذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ، وفى بعضها تجالسوا فتذاكروا ما علموا ، فيقول الآخر : ويا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا .
ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : عجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله وعجبت لمن شك فى الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك فى النشأت الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء . ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : ان العاقل لا يبيع الاثنين بواحد ، فكيف يبيع المؤمن الآخرة الباقية بالدنيا الفانية .
والصبر عند امامنا على كرم الله وجهه من مقامات اليقين ، فقد قال بنى الاسلام على أربع دعائم : علم اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل . وقال أيضا : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، لا جسد لمن لا رأس له ، ولا ايمان لمن لاصبر له . ورفع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر فى العلوم الى مقام اليقين وقرنه به فى قوله : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار . وكذلك قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) كما قال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وقال تعالى (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فضاعف سبحانه أجر الصابرين على كل عمل ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء ، فجعله بلا نهاية وبلا حد فدل ذلك على أنه أفضل المقامات .
وكان الامام سهل التسترى رضى الله عنه يقول : الصالحون فى المؤمنين قليل ، والصادقون فى الصالحين قليل ، والصابرون فى الصادقين

قليل . وكان رضى الله عنه يقول : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، ويقصد بالعافية النعمة من الصحة أو من غنى المال ، فلا يستعين بها على معصية الله فيبدل نعمة الله كفرا ، وقد مدح الله الذين يتقربون الى تعالى بنفقة أموالهم فى مرضاته ، فقال تعالى (الذين ينفقون فى السراء والضراء) فمدحهم بوصف واحد فى الحالين المختلفين لحسن يقينهم وسخاوة نفوسهم ، وحقيقة تقوام ، وحذر سبحانه وتعالى من الأفتتان بالاموال والاولاد فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) لأن الأموال والأولاد ما يسر ويشغل عن ذكر الله .

ويقول العارفون : ان المؤمن لا يصبر الا بأحد معنيين ، مشاهدة العوض والجزاء ، وهو حال أصحاب اليمين من المؤمنين ، أو النظر الى المعوض سبحانه وهو حال الموقنين ومقام السابقين المقربين . كما قالوا ان الصبر أوله ترك الشكوى وهذه درجة التائبين ، وثانيه الرضا بالمقدور ، وهذه درجة الزاهدين ، وثالثه واعلاه المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصادقين من أهل اليقين .

والشكر هو ثالث مقام من مقامات اليقين ، وقد قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : الشكر نصف الايمان . ويقول الله سبحانه (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) فقرن الشكر بالايمان ورفع بوجودهما العذاب ، وورد فى الحيدث الشريف : (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر) ويقول سبحانه (لئن شكرتم لازيدنكم) وأول المزيد شهود النعم انها من المنعم وبحوله سبحانه وقوته وأوسط المزيد مداومة الطاعة لله تعالى ، وأفضل المزيد قوة اليقين بالله عز وجل .

وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل : كيف أصبحت قال بخير ، فأعاد عليه النبى صلى الله عليه وسلم السؤال ثانية : كيف أنت ؟ فقال بخير ، فأعاد عليه الثالثة : كيف أنت ؟ فقال : بخير أحمد الله تعالى وأشكره ، فقال : هذا الذى أردت منك أى اظهار الحمد والشكر والثناء .

ويقول العارفون : على الموقن أن يشكر فى العطاء والمنع ، اذ قد يكون فى المنع العطاء ، ولكن لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق ، فاذا

شكر المؤمن ربه فى العطاء والمنع صار من أهل اليقين ، لانه اتصف بصفات العبودية ، ورأى أنه عبد تجرى عليه أحاكم الربوبية ، وانه لا يستحق على الله شيئا ، وان الله سبحانه يستحق عليه كل شىء ، فالعبد خلقه وصنعته ، والله صانعه ومالكه ومالك أمره . والله تعالى يقول (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) ويقول (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) وفى ذلك تنبيه لان يترك المؤمن ظاهر الاثم شكرا لظاهر النعم ويترك باطن الاثم شكرا لباطن النعم .

ومن أروع ما يقول الامام جعفر الصادق رضى الله عنه :

ان الله تعالى خبأ ثلاث فى ثلاث : رضاه فى طاعته فلا تحتقروا منها شيئا لعل رضاه فيه ، وخبأ غضبه فى معاصيه فلا تحتقروا منها شيئا لعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته فى عباده المؤمنين فلا تحتقروا منهم أحدا لعله ولى الله تعالى . ويقول العارفون ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، ومن أفضل النعم وأجلها نعمة الايمان به سبحانه وتعالى ، ثم نعمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نعمة القرآن ، ثم أن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، أما سائر النعم فلا يستطيع العاد حصرها (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فله سبحانه وتعالى الشكر والثناء والحسن الجميل .

وقد حدثوا عن رجل شكا الى بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك حزنه ، فقال له السامع لشكواه : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : أفما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا ؟

والرجاء هو رابع مقامات اليقين ، ويقول السادة الصوفية فى تفسير قوله تعالى (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه) ان الله تبارك وتعالى أوحى الى نبيه صلى الله عليه وسلم : تريد أن أجعل حساب أمتك إليك ؟ فقال يارب أنت خير لهم منى ، قال : اذن لا نخزيك فيهم .

ويروى السادة الصوفية أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، انى لا أصوم الا الشهر ولا أزيد عليه ، ولا أصلى الا الخمس ولا أزيد عليهن ، وليس لله تعالى فى مالى صدقة ولا حج ولا أتطوع ، أين أنا اذا مت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فى الجنة ، قال : يا رسول الله : معك ؟ فبتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معى ان حفظت قلبك من اثنين الغل والحسد ، ولسانك من اثنين ، الغيبة والكذب ، وعينك من اثنين ، النظر الى ما حرم الله تعالى وأن تزدرى بهما مسلما ، دخلت معى الجنة على راحتى هاتين .
كما يروى فى الخبر عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه أن الأعرابى قال : يارسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ قال : الله عز وجل ، قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، قال فبتسم الأعرابى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مم ضحكت يا أعرابى ؟ فقال : ان الكريم اذا قدر عفا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : صدق ، الا ولا كريم أكرم من الله عز وجل ، هو أكرم الاكرمين ثم قال عليه الصلاة والسلام فقه الأعرابى .

وخامس مقام من مقامات اليقين هو الخوف ، وفى قوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) جعل سبحانه الخوف مقاما فى العلم لان الخشية لا تكون الا من الخوف ، والخوف اسم لحقيقة التقوى ، والتقوى معنى جامع للعبادة بدليل قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) وكفى شرفا لاهل التقوى ان يقول الله تعالى فيهم (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) ومن مزايا الخوف أنه يحرق نار الشهوات مع شدتها وينتهى بصاحبه الى الجنة اذ يقول سبحانه (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس على الهوى . فان الجنة هى المأوى) .

لكن ينبغى ألا يخرج المؤمن من خوفه باليأس من رحمة الله ، فان فى ذلك مجاوزة الحد المعقول ، ويجب أن يجمع فى صلته بالله بين الخوف العاصم من الاستهتار بالشهوات وبين الرجاء الذى لا يقنط به من رحمة الله ويقول فى الجمع بين الخوف والرجاء شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه من الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

لا تياسوا من روحه　　فاليائسون كفره
أو تأمنوا من مكره　　فالآمنون فجره
ما بين خوف ورجا　　تعبد نفس حذره

وقد قال امامنا على كرم الله وجهه لبعض الخائفين الذين أخرجهم الخوف الى القنوط : ما أصارك الى ما أرى ؟ قال : ذنوبى العظيمة ، فقال ويحك ان رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك ، فقال : ان ذنوبى أعظم من أن يكفرها شىء ، فقال له الامام : ان قنوطك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك .

والمقام السادس من مقامات اليقين هو الزهد ، ومعناه عند السادة الصوفية خروج الدنيا وزينتها من القلب ولو كانت فى اليد ، ومن حكمهم فى ذلك : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ولكن الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . وكان يقال لسيدى مالك بن دينار : انك زاهد فكان يقول : انما الزاهد عمر بن عبد العزيز جاءته الدنيا وملكها فزهد فيها ، فأما أنا ففى أى شىء زهدت .

وفى مناسبة قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قالوا يا رسول الله : هل لذلك علامة ؟ قال : نعم التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله . وكان سيدى ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه يقول : قد حجبت قلوبنا بثلاثة اغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب ، الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح .

والمقام السابع من مقامات اليقين هو مقام التوكل وهو من أعلى المقامات ، وكفى المتوكلين شرفا أن يقول الله تعالى فيهم (ان الله يحب المتوكلين) وأن يقول (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه ومغنيه عن سواه .

ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : ليس فى المقامات أعز من التوكل ، وقد ذهب الانبياء بحقيقته وبقى منه صبابة انتشقها الصديقون والشهداء ، فمن تعلق بشىء منه فهو صديق أو شهيد . والمتوكل غنى بيقينه فى الله تعالى ، وفى الخبر : كفى باليقين غنى .

ويقول السادة الصوفية : احتجب سبحانه عن العموم بالاسباب فهم يرونها ، وحجب الأسباب بنفسه عن الخصوص فهم يرونه جل وعلا ولا يرونها .

والمقام الثامن من مقامات اليقين هو مقام الرضا ، وقد كان عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه يقول : أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القضاء ، ويقول شيخى وسيدى على عقل رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

مذ رأونى اهيم فى الله صبا

ادخلونى فى الحكمة الميدانا

علمونى كيف المسير الى الله

وقالوا خذ الرضا تيجانا

ويروى السادة الصوفية حديثا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، وان رضى اصطفاه) ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه : حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله . وقد قدم سيدنا سعد بن أبى وقاص الى مكة فجاءة الناس يهرعون يسأله كل واحد أن يدعوا له لانه كان مجاب الدعوة (حيث دعا له مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حين رمى سعد بأول سهم فى الاسلام فقال صلى الله عليه وسلم (اللهم سدد رميته واستجب دعوته) فقال له عبد الله بن السائب : يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال : يا بنى قضاء الله عندى أحسن من بصرى ، فانظر رعاك الله كيف بلغ به رضاه بقضاء الله .

والمقام التاسع من مقامات اليقين هو مقام المحبة . ويقول العارفون ان المحبة هى ايثار الله تعالى على ما سواه ، كما يقولون : ان ظاهر القلب محل الاسلام ، وان باطنه مكان الايمان ، ومن هنا تفاوت المحبون فى المحبة لفضل الايمان على الاسلام وفضل الباطن على الظاهر . ومن علامة المحبة متابعة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاقوال والافعال والاحوال لانه يقول (قل ان كنتم تحبون الله

فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فانظر كيف قرن سبحانه محبته لعبده بمغفرة الله ورحمته . ومتابعته صلى الله عليه وسلم تقتضى من المؤمن قطع العلائق والعوائق فى سبيل الله . وتستبين المحبة بترك المخالفات ، ولا تبين بكثرة الأعمال وقد قالوا أعمال البر يعملها البار والفاجر ، والمعاصى لا يتركها الا صديق .

ويقول سيدى إبراهيم بن ادهم رضى الله عن : قلت يا رب (ان كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطنى ذلك فقد أضرنى القلق ، قال : فرأيت فى المنام أنه أوقفنى بين يديه فقال : يا إبراهيم أما استحييت منى أن تسألنى ما يسكن به قلبك قبل لقائى ؟ وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ أم هل يستروح المحب الى غير مشوقه ؟ قال : قلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى كيف أقول ، فقال : قل اللهم رضنى بقضائك ، وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر نعمتك .

اللهم اجعلنا بفضلك ممن قلت فى وصفهم (يحبهم ويحبونه أذلة عند المؤمنين أعزة على الكافيرن يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) . .

الذاكرون بين
الأحوال والمقامات

(اذا ترقى الذاكر اشتد الهامه ، ويترقى بعد الأحوال الى مقامات القرب حتى يتحول فى النظر من الدنيا الى الآخرة ، فلا يكون بينه وبين الله حجاب ، بل تكون روحه مع الله تعالى فلا يرى غيره) .

ذلك من بعض ما كتب به سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصديق الصالح المبارك المرحوم السيد / سالم جمعه ، وهى كلمات طيبة تدلنا على فضل ذكر الله تعالى وأثره فى أرواح الذاكرين ، كما تكشف لنا عن بداياتهم ونهاياتهم فهم يستمعون قوله تعالى (فاذكرونى) فيتبعونه فيرون حلاوة الاتباع قوله تعالى (أذكركم) وما أحسن البداية وما أسعد النهاية ، وأين ذكرنا من ذكره ؟ وأين عملنا من أجره ؟ فتعالى الله الفعال لما يشاء .

وما أروع ما يقول سادتنا الصوفية ناصحين للمريد . يا هذا حفر النهر اليك ، واجراء الماء ليس عليك ، احفر ساقية (فاذكرونى) الى جنب بحر (أذكركم) فاذا بلغ اليها معول الفكر ، فاضت عليه مياه البحر ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، ألق بذر الذكر فى أرض الخلوة ، وشق اليه ساقيه من ماء الفكر لعلها تنبت شجرة : (أنا جليس من ذكرنى) ويقول المحب الذاكر :

يريحنى اليك الشوق حتى
أميل من اليمين الى الشمال
كما مال المعاقر عاودته
حميا الكأس حالا بعد حال
ويأخذنى لذكركمو ارتياح
كما نشط الأسير من العقال

ويذكرنى ذلك قول سيدى وشيخى الشيخ على عقل نور الله ضريحه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

وقفت على نجوى الاله جوانحــى
لذلك قلبى منزل كله ذكـر
وأخليت قلبى من مناجاة غــيره
فأصبح طودا لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقا وأسكت هائمــا
وأنطق اجلالا وما عاقنى سير
ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى
وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

وقد جاء فى الخبر : ان لله فى كل يوم صدقة يمن بها على خلقه ، وما تصدق على عبد بصدقه أفضل من أن يلهمه ذكره .

وفضائل ذكر الله تعالى أكثر من أن تعد ، وقد حض القرآن الكريم ، كما حضت السنة الشريفة على الاكثار من ذكر الله سرا وجهرا ، ولذلك جعل السادة الصوفية . على اختلاف طرقهم . ذكر الله تعالى مدخلا للتربية الصوفية العالية فجنى منه المريدون أطيب الثمرات فى أسرع الأوقات ، وقد شاهدنا ذلك عمليا بالتجارب التى رأيناها رأى العين ، والتصوف يقوم على التجربة والعيان ولا يقوم على الدليل والبرهان .

ويقول سيدى أبو سعيد الخراز ، اذا أراد الله أن يوالى عبدا من عبيده فتح له باب ذكره ، فاذا استلذه فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه الى مجالس الانس ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وأدخله دار الفردانية ، وكشف له الجلال والعظمة ، فاذا وقع بصره على الجلال الحق والعظمة بقى بلا هو (أى فنيت مراداته فى مرادات ربه فرضى بما يختاره له ربه) .

وهذا الذى قاله سيدى الخراز يفسر لنا سر السبق الذى أثبته مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم للذاكرين فى قوله لأصحابه (سيروا ، سبق المفردون (بتخفيف الراء المكسورة وتشديدها) قيل : من المفردون ؟ قال المستهيمون بذكر الله تعالى (أى المولعون كثيرا بذكره سبحانه) وضع الذكر عنهم أوزارهم ، يردون القيامة خفافا) ويؤيد هذا الحديث الشريف قال الله تعالى (... والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وانك اذا تأملت فى الآية كلها أيقنت أن مقام الذكر توج كل المقامات التى سبقته فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب (ان المسلمين

والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) فمن علو المقامات التسعة جاء الذكر فوقها مع أنه عاشر مقام فيها وهو ما يفيد سبق الذاكرين ، كما يفيد أنهم لا يصلون الى مقام السبق الا بعد التحلى بكل تلك المقامات الكريمة التى عددتها الآيه العظمة .

ويبدأ المريد تربيته الصوفية بالتوبة ، وهى عند السادة الصوفية ليس باللسان كتوبه العوام الذين يتوبون ثم يعودون لما تابوا منه ، بل استغفارهم هو الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح ، والانابة أعمال القلوب ، والتوبة اقباله على مولاه وترك الخلق ، ثم يستغفر من تقصير الذى هو فيه ، ومن الجاهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ربه ويكون عنده مأواه .

ثم ينقل الى الانفراد ، ثم الثبات ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المعرفة ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ثم محادثة السر وهو الخلة ، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه ، والرضا زاده ، والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله تعالى اليه فيرفعه الى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش .

هكذا قال الامام سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه ، وكان يقول :

العبد لابد له من مولاه على كل حال ، وأحسن حالة أن يرجع اليه فى كل شىء : اذا عصى يقول يارب استر على ، فاذا فرغ من المعصية قال : يارب تب على ، فاذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة ، فاذا عمل قال : يارب تقبل منى .

ويعنى السادة الصوفية فى تربية المريدين بتهوين الدنيا فى قلوبهم ، وان كسبت أيديهم الأموال ، وعندهم أن الدنيا قنطرة ، ولا يمكن استيطان القنطرة ، ويقول قائلهم فى ذلك :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض

على الماء خانته فروج الأصابع

وهم يقتبسون ذلك المشرب من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فان الله تعالى يقول مثلا فى سورة الكهف (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا) فما كاد الزرع يخضر حتى يبس وصار هشيما تذروه الرياح هنا وهناك ، لا دوام له ولا استقرار . وأما السنة فقد ورد فيها قوله صلى الله عليه وسلم : (من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شىء والزم الله تعالى قلبه أربع خصال : هما لا ينقطع عنه أبدا ، وشغلا لا يتفرغ منه أبدا ، وفقرا لا يبلغ غناه أبدا ، وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا) .

وبعد التوبة وتهوين شأن الدنيا يعنى المريد بأمر الآخرة ويبدأ بصحبة شيخه المقيم بالشريعة والمؤيد بالحقيقة فيرشده الى ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى التى يلقنها له ويبين له طريقة ذكرها وأدب الذكر وعدده ، فيذكرها باللسان ويراعى معناها بقلبه فيستنير قلبه شيئا فشيئا بأنوارها وخواصها وتقوى رابطته بربه ويشتد حبه ويترقى فى سلوكه من مقام إلى مقام حتى يشهد ربه بعين يقينه ويذوق توحيده ويقول بلسان حاله : الهى أنت مقصودى ورضاك مطلوبى .

ويتكلم سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى فى كتابه القيم (السيرة الخليلية) على أسرار الذكر فيقول ما خلاصته :

من أسرار الذكر أن الذاكرين يتدرجوا فى مقامات السلوك والأدب فيجاهدون أنفسهم الامارة وقد قال صلى الله عليه وسلم (رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الاكبر ، قالوا وما الجهاد الاكبر يا رسول الله ، قال جهاد النفس) فيجاهدون أنفسهم فى شهواتها ورغباتها حتى تستيقظ وتتجه الى الهداية فتصير لوامة تلوم نفسها على ما مضى وتثوب الى رشدها وتبوء الى الله تعالى بنعمة الاسلام ، والايمان ، ثم تصير بصدق العزم على الطاعة روحا طيبة يلهمها الله فتفرق بين طريق الخير وطريق الشر (فألهمها فجورها وتقواها) وعندئذ يستنير القلب بتعريف من الله سبحانه (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) فإذا خشى الذاكر ربه وخاف مقامه ونهى النفس عن الهوى واطمأن الى الله وخافه ورجاه ورجع فى كل أحواله اليه واعتمد عليه وسلم له الأمور ، فلا يعرف سواه ولا يخشى الا اياه ، فاذا ذكر خشعت نفسه ، واذا تجلى عليها الحق

انتعش ، فهى فى القهر والبسط لا ترجوا سواه فيرضيها برضائه عنها فتعود مرضية برحمته وبمحض فضله تدخل فى عبادة القائمين على ذكره وترجع فى الأخرى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وقد تعرض سيدى الشيخ عبد السلام بعد ذلك للمقامات الشريفة التى يتقلب فيها الذاكر المداوم على الذكر ، فتكلم عن مقامات المحبة والأخلاص والمراقبة والخشوع والحياء والخوف والرجاء والتقوى والصبر والزهد والتوكل والشكر وبسط الكلام على كل مقام منها ثم ختم كلامه قائلا رضى الله عنه :

ومن صدقت نيته مع الله وتفكر فى مصنوعاته وسلك سبيل الصواب أورثه الله هذه المقامات فتكون فطرة فيه لا يتكلفها ويصير من أولى الألباب ويكون قلبه مصقولا مستعدا للتجليات الألهية والنفحات الرحمانية متعرضا لها كما ورد فى الحديث " ان لله فى دهركم نفحات فتعرضوا لها " .

ثم أضاف سيدى الشيخ قوله :

قال بعض الصوفية : التقلب فى أطوار المقامات لعموم المحبين الذين أنابوا إلى الله وجاهدوا فيه فهداهم السبيل ، وطوى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون الذين اجتباهم ربهم فلا تقيدهم المقامات ولا تحبسهم لأن بواطنهم صافية لا تحتاج إلى ما يصفيها قال تعالى (الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) .

ويتكلم سيدى الشيخ بعد ذلك عن الأحوال فيقول ما خلاصته :

وإذا سلك العبد مسالك الصالحين وتدرج فى مقامات السالكين وعامل الله معاملة اليقين أصبح قلبه مسلكا للتجليات الإلهية والعطايا اللدنية ، فقد قيل أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب والمكاسب محفوفة بالمواهب . والأحوال مواهب علوية وسماوية والمقامات طرقها – على أن المقامات والأحوال كلها مواهب ، وإنما قال بعض الصوفية : كل ما كان عن طريق الأخذ بالأسباب بعمل العبد فإنه كسب ، وما لاح من طريق المواجيد والأحوال فإنه وهب . وقد ذهب

بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون الا إذا دامت فأما إذا لم تدم فهى طوالع ولوائح وبواده وهى مقامات الأحوال وليست بأحوال .

وتعرض سيدى الشيخ بعد ذلك للأحوال من الحب والعشق والشوق والأنس والبسط والقبض والتوحيد والوجد والجذب .

ويقول سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه فى الرسالة :

الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتى من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود ويعرف سيادته الحال فيقول أنه معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو هيبة أو انزعاج أو احتياج . ويضيف أن الأحوال كإسمها تحل فى القلب تزول فى الوقت وانشدوا :

لو لم تحل ما سميت حالا

وكل ما حال فقد زالا

أنظر إلى الفئ إذا ما انتهى

يأخذ فى النقص إذا طالا

ثم يقول رضى الله عنه : وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها وقالوا أنها إذا لم تدم ولم تتوال فهى لوائح وبواده (من بدهه إذا فجأه وبغته) .

ويقول العارفون : إذا بلغ المريد بالرياضة والأرادة حد ما عنت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه وهى التى تسمى عندهم أوقات ، وكل وقت يكسبه وجدا إليه ، ووجدا عليه ، ثم انه تكثر منه هذه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض ، ثم أنه ليوغل فى ذلك حتى يغشاه فى غير الارتياض ، فكلما لمح شيئا عاج منه إلى جناب القدس ، يذكر من أمره أمرا ، فغشيه غاش ، فيكاد يرى الحق فى كل شئ (أى لأن الأشياء من آثار قدرته تعالى) .

ويقول السادة الصوفية : أن قيسا كان يدور فى الأزقة ويقول أيا ليلى ، فلما أفرط كان يقول ليلى ليلى ، دائما لا يخلط مع إسمها شيئا ، وإذا كان هذا ثمرة حب ليلى ، فكيف بمجنون الحب برب ليلى ، ويذكرنى ذلك ما قاله أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل فى الهامه الارتجالى على سبيل الرمز :

لما علقت بليلى فى مشاهدتى

قالوا بأنك يا مسكين مجنون

أجبتهم لا تلومونى على حرقى

فكلنا ان تعشـقنا مجانين

وما قاله مرة أخرى :

قالوا بأن الغرام يامن

يحب من شأنه الجنون

قلت أكففوا ليس ذلك حقا

ونحن بالله نستعين

ان كان حبى له جنونا

ياحبذا ذلك الجنون

ويقول أحد الصوفية الأقدمين :

يا من يذكرنى بعهد أحبتى

طاب الحديث بذكرهم ويطيب

أعد الحديث على من جنباته

ان الحديث عن الحبيب حبيب

ملأ الضلوع وفاض عن أجنابها

قلب اذا ذكر الحبيب يذوب

مازال يخفق ضاربا بجناحه

ياليت شعرى هل تطير قلوب

وقال آخر :

خطرات ذكرى تستثير مودتى

وأحس منها فى الفؤاد دبيبا

لا عضولى الا وفيه صبابة

فكأن أعضائى خلقن قلوبا

واذا داوم المريد ذكر الله تعالى ورث محبته فورثته المحبة بدورها سرور القلب بشهود جماله وهو ما يعرف فى اصطلاح السادة الصوفية بالأنس ، فاذا أنس المحب بربه استوحش مما يقطعه عن رحابه أو يشغله

عن موالاته وفى ذلك يقول أستاذى وسيدى الشيخ على عقل ارتجالا من الهامه الفورى :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفس
وجافيت أنسى فانتهيت الى الأنس
وأدركت بالوجدان سر أحبتى
وعاينت آيات اليقين بلا لبس
وعشت زمانى لست أحفل بالورى
وكيف وقلبى هام فى مشهد القدس
وما اتخذت روحى سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس

واذا تكلم السادة الصوفية عن الرياضة فانما يقصدون بها عدم الوقوع فى رق المادة إلى درجة تصرف المريد عن طلب الآخرة ، وبقدر ما يطرح المريد الانشغال بالمادة من قلبه ، ثقة بربه الذى كفل الأرزاق ، بقدر ما تصفو روحه فى جنب الله ، ولذلك قالوا ان الكافر يتمتع والمؤمن يتزود ، فبينما يصرف الكافر همه للماديات والتقلب فيها ، يسخر المؤمن المادة فى مرضاة ربه فينفقها فى القربات لا فى الشهوات ، لأنه يملكها للحقوق لا للحظوظ ، لأن المؤمنين يضعون فى اعتبارهم على الدوام قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

واذا عزف المؤمن عن كروب المادة الدنية واتجه بكلياته الى فيحات الآخرة الرضية عوضه الله تعالى فرق بفضل الله وجدانه واشتد الهامه وتولاه الله فى جميع أموره وذلك مصداق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) .

وقوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولا شك أن السادة الصحابة الأطهار قد بلغوا فى حب الله ورسوله والتزام الطاعة الغاية التى لم يبلغها أهل الاجيال التى تلتهم ، وقد رأينا أن الله تعالى قد علمهم بعد جهل ، وجمعهم بعد فرقة وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وكانت كلمات الخلفاء الراشدين فى خطبهم و رسائلهم باهرة كأنها من مشكاة النبوة وما زالت للخلف نبراسا يهتدون به الى الحق فى كدورات الحياة .

ويقول سيدى الامام الكبير الحارث المحاسبى رضى الله عنه وأرضاه فى وصف سادتنا الصحابة رضى الله عنهم :

(وقد بانوا بفضل المعرفة على غيرهم والزيادة فى العمل بها لله جل ثناؤه من طهارة القلوب ، وادامة الذكر ، وكثرة التقرب الى الله تعالى سبحانه بالنوافل ، وبذل الطاقة والجهد نصيحة لأنفسهم ، وطلبا للحظوة عند سيدهم .. فكانوا بذلك عن حركات الطبع متجافين متشاغلين ، وبكل داع يدعوهم الى غيره مستثقلين ، وعن كل فترة تميل بهم الى الراحة نافرين والى كل حاد يحدوهم الى الزيادة ساكنين ، وعلى العمل المقرب لهم الى الله عاكفين .

(أمات العلم بالله لهم أهواءهم ، وغلب لهم أعداءهم ، وجمع لهم شملهم ، وأحكم لهم أمرهم ، وكان التوفيق لهم صاحبا ، وخفى اللطف من الله دائما ، والتأييد لهم من سيدهم مرشدا .. فلم يكونوا للأوقات مضيعين ، ولا باستجلاب ما كفوا عنه متشاغلين ، ولا لما أحب الخلق من الاستكثار محبين) .

وأنت ترى من ذلك الوصف شرح ما قاله سيدى الشيخ عبد السلام فى عبارته التى وردت فى صدر المقال ، فان السادة الصحابة ترقوا الى مقمات القرب وصارت أرواحهم مع الله فلم يروا غيره سبحانه ، فشغلهم به عما سواه وكفاهم ما اشتغل الناس به من أمر الدنيا الفانية (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) .

واذا كانت ثمار الطاعة الدائمة قد نضجت فى جيل السادة الصحابة فان الأجيال الذين جاءوا من بعدهم قد انتفعوا من بذور تلك الثمار اليانعة فنالوا من خيراتها وبركاتها وتشبهوا (ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) لا بل ان قلة من المتأخرين لحقت بالسابقين المقربين منهم مصداقا لقوله تعالى (والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين) .

وقد من الله تعالى على من فضله فسلكت طريق السادة الصوفية على مشرب الطريقة الخليلة لصاحبها العالم الأشهر والمجدد الأكبر سلطان وقته سيدى الغوث الحاج محمد أبى خليل (وضريحه المبارك ملحق

بمسجده المعروف بالزقازيق) وسلكتها على يد خليفته الكامل العارف الربانى سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى (وضريحه المبارك ملحق بمسجده المعروف بقرية كفر تهرمس جيرة فرأيت فى أهل الطريقة الخليلية تحقيق ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام فى وصف أهل الله ، وكان هو وتلميذه العارف بالله الشيخ على عقل من أبرز الأمثلة المؤيدة لذلك الوصف وقد كشفت سلسلة (الصوفية فى الهامهم) عن شىء من أنوار النثر والشعر المأثور عنهما وان كان شمائل رجال الطريقة العالية وصفاتهم الشامخة مستكنة فى جوانحنا بصورتها النورانية التى يحسها الوجدان ويعجز عن وصفها البيان .

وتتميز الطريقة الخليلة بغزارة الالهام فى سالكيها ، والالهام أثر ظاهر بينهم من آثار ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا ، حيث لا يحد الذكر فيها بحد أعلى وانما يذكر الذاكر ما وسعه الجهد ولو ذكر فى ليلة واحدة عشرات الألوف ، وليس الالهام عند السالكين وقفا على طائفة المثقفين بل يتعداهم الى غيرهم من غير المتعلمين كما شاهدنا ذلك مرارا ، فكنا نسمع شعرا رقيقا على البديهية من المرحوم السيد / أحمد السخاوى وكان نجارا ، ومما سمعناه منه منشدا على مجلس الذكر الهاما وارتجالا قوله رحمه الله :

يا نسيم الصبح هل خلت رشا

شبه نجار بقادوم يـدق

قال انى خلته فوق السمـاء

يستقى الأسرار من رب الفلق

وكذلك كان مما قال :

فقابلنى المختار فى عالم السمـاء

فقلت عجيبا جئت من أرض طيبة

فقال بلا عجب أنا أصل ذا الورى

ترانى بعين الحب فى كل بقعـة

ومن الهام المرحوم السيد رضوان عثمان رحمة الله قوله :

أيها العـذال مهــلا

اذ رأيتــم ما يريــب

لـو لقيتـم مـا لقينــا

ما عذلتـم مـا يذيــب

أو علمتـم مـا علمنــا

لارتجعتــم مـن قريب

حــالنا بالله حــــال

سرنــا ســر عجيـب

كل من ينكــر هــذا

فهـو أعمــى لا يصيب

قم بجنــح الليـل واصــل

واشهـد الحـق الحبيـب

ثم كــــن لله أخشـــى

قد أتـى وقت المشيــب

واستمـــد الله عفــوا

واسخ بالدمــع الصبيـب

واذكـر المـولى دوامـا

ثم قال انــى منيــــب

كيف يغـوى من دعـاه

من دعـاه لـن يخيـب

ومن الهام المرحوم المهندس الزراعى السيد / محمد لطفى خشبه رحمه الله قوله :

وعن شيخى أخذت السر غضا

وجلـى لى الكنـوز النــادرات

ولم أك غير مزمار وشيخـى

هو الموحى بتـاك المبدعـات

وعنه كم شدا غيرى فأشجـى

وجـاء بكل آى معجــزات

وان خاض العلوم تجده بحـرا

تدفق فى المعــانى الفائقـات

مواهب للخليل زهت وفاضت

على الاتبـاع غرا فاخـرات

ومن الهامه نثرا رحمه الله :

الهى : واجعل علمى بك علم المتأدبين الموفقين لطاعتك . لا علم المتكبرين المنسلخين بعد رؤية جليل آيتك .

الهى : واحينى بك حياة من أردته لك وخصصته بمحبتك . وكملته مع نقصه فاستوى بك دالا على حفى مودتك ، وقربنى ـ رغم عصيانى ـ اليك لأكون آية ناطقة على كريم منحتك ، ومظهرا من مظاهر جودك المتدفق ، وبرهانا لأهل الصفو من خاصتك ، وحتى أعلم ويعلموا أن المراد فى وصلك انما هو بمواصلتك ، وان التوفيق منك والقبول لا يكون الا بمشيئتك ، وأن عنايتك اذا تبدت فالشقى سعيد ، ولمحات قربك ان تجلت وصلت العانى الطريد .

ومن الهام المرحوم السيد / على السيد قوله رحمه الله وكان من حمله الشهادة الابتدائية :

لله در أبى خليل انــه
شيخ قد ازدانت به الأرجاء
شهد الزمان بفضله وبأنـه
هو للنفوس الدرة العصماء
أحيا المكارم والفضائل عصره
وانهل وابله وفاض المـاء
ما دون معرفة الاله سعـادة
كلا ولا دون الوصول هناء
صلى الاله على الذى من أجله
خلق الوجود وتمت النعمـاء

ومن الهام المرحوم الشيخ مساعد بكر وكان رحمه الله من عمد الريف قوله :

هدانى الهوى حتى وصلت الى الرحب
وهذب قلبى فى مشاهده ربى

ولما ارتقت روحى لحى جنابــه
أفاض لها سرا يحققه قلبـــى
فقلت لأهل الحب هيموا صبابــة
يفوز بفضل الله من طاف بالغيب
ترانا نؤاخى الناس لكن قلوبنـــا
مع الله لا تلهى بأهل ولا صحب
سكارى وما كنا سكارى وانمـــا
نغيب من الاجلال فى ساحة الجذب
سعت بالرضا روحى الى العرش ساعة
لقيت بها عند المهيمن ما يسبـى
فعلمـنى مما رأيـت سرائـرا
تفيض لروحى حيث قد رفعت حجبى
فما أنا الا نفحــة أحمديـــة
تجليت باسم الله فى الشرق والغرب

ومن الهام المرحوم الشيخ محمد البسطويسى قوله تعالى رحمه الله وكان مأذونا بالريف :

نناجيه والارواح تسجد هيبـــة
لعزته العليـا بعرش الحقيقــة
ولى نهضة العشق فى كل مجمــع
ولى نشوة الأشواق فى كل حالــة
فلولا هواها ما تولانى الهــوى
ولولا رضاها ما رضيت مذلتــى
أتيه ولاء تحت ظل لوائكـــم
وفى مشهد النجوى حمدت هدايتـى

واذا علم القارىء العزيز أن مستوى ثقافتهم لم يكن يهيئهم لأن يقولوا مثل هذا الكلام العذب أدرك أن الهامهم آية من الآيات التى أيد الله بها شيخ الطريقة وهو سيدى الغوث الحاج محمد أبوخيل رضى الله عنه . ومع كثرتهم وكثرة من سمعت بنفسى منهم فانى لم أجد ظاهرة الالهام المتدفق أغزر مما كان يلهم به فى كل وقت من ليل أو نهار سيدى العارف بالله الشيخ على عقل فكان رضى الله عنه أشهر وأذكر من عرفه الناس فى هذا المقام فكان كالشمس اذا طلعت اختفت فى نورها الكواكب وكان

سيدى الشيخ أبو خليل يمزح معه ويقول له " قول يا على يا بنى انت هاتجيب حاجة من بيت أبوك ؟ ويرد سيدى الشيخ على الفضل الى ربه ببركات شيخه فيقول :

كل شىء ينتهى فى موتـه
غير سر الله عندى ما نفد
لى خليل كلما أملتـه
جاءنى الفيض اذا سح المدد
كلما قد زاغ قلبى قال لـى
يا معنى قال هو الله أحـد

الا رض الله عن سيدى الشيخ أبى خليل الذى سلك بتابعيه سبيل الهدى على منهج الشرع الشريف ، فنأى بهم عن مواطن الضلال والردى ، فكان له فضل الدلالة والارشاد ، وكانت لهم ثمرات السلوك الصحيح ، جعلنا الله من المحسوبين عليه والمنسوبين اليه والمحشورين فى زمرته تحت لواء سيد المرسلين يوم يقوم الناس لرب العالمين ويتحقق قوله تعالى :
(يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) .

كل شئ بقضاء وقدر

ان الله فطر الناس كما يريد ، فسبحان من أرضى العبيد ، له الجنة وله النار ، قوله الحق وله الملك ، وهو على كل شئ قدير ، لا مانع لما أعطى وما منعه الا بما قدر : (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) .

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق المرحوم السيد / سالم جمعه وهى تدور حول الرضا بما يجرى به القضاء فى المنع والعطاء لانه تعالى هو الفاعل لما يشاء ، وكل شئ عنده بمقدار ، ولا يقع فى ملكه الا ما أراد ، لانه مالك البلاد والعباد ، والضلال والرشاد ، ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وليس للعبد أن يعترض بقلبه أو بلسانه على ما شاء ، لان ايمانه بالله يقتضى التسليم المطلق لصاحب السلطان الذى لاشريك له . وقد جاء فى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول جمعة صلاها بالمدينة المنورة : (قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنو كما أحسن الله اليكم ، وعادوا اعدائه ، وجاهدو فى الله حق جهاده هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينه ويحيا من حى عن بينه ولا قوة الا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملو لما بعد اليوم ، فأنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله مابينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولاقوة الا بالله العلى العظيم) .

وليس معنى التسليم بالقضاء ، ومواقع المقدور أن يترك الانسان العمل اتكالا على ما جرى به المقدور ، فان الغيب لله طواه عنا ، واستقل بعلمه سبحانه ، فلا يحيط العباد بشئ منه الا بما شاء ، وقد كلفنا جل وعلا أن نعمل ، ويوم القيامة يسألنا عما كلفنا ولا يسألنا عما

قضاه وطواه عنا . فوجب علينا أن نكون كالزارع يبذر البذور ويترك لله مآلها ان شاء انبتها وان شاء أماتها ، وان شاء بارك ثمرتها وان شاء قللها ، وهذا مايكشف لك عن معنى قوله تعالى (أفرأيتهم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون . بل نحن محرومون) .

ومن ذلك ندرك أن اتخاذ الاسباب بالعمل واجب على المؤمن ، ولكن ينبغى أن يقرن هذا الواجب بواجب آخر يستدعيه ايمانه بربه وهو أن يشهد من وراء حجب الغيب عون الله تعالى وفضله واثره ، فلا يعتمد على عمله أو علمه وحده فيتشبه بقارون حين غره ماله الكثير وأنكر فضل الله عليه بكفره وقال (وانما أوتيته على علم عندى) فكانت عاقبته كما حكى الله فى سورة القصص (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئه ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) .

وفى حين يقول تعالى (يختص برحمته من يشاء) بين سبحانه طريق الوصول الى رحمته فقال تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين) وبذالك أسقط حجه الكسالى الذين يتعللون بقضاء الله وقدره ليعفوا أنفسهم من العمل جهلا بالدين الذى فرض علينا العمل ووعدنا الأجر عليه

فقال تعالى (وقول اعملو فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهاده فينبئكم بما كنتم تعملون) كما قال الله تعالى (ونودوا ان تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) كما يقول سبحانه (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) فيجب ان يكون المؤمن فى دينه ذا عينيه ، فينظر بعين الشريعة الى أوامر الله ونواهيه ، فيأتمر بما أمره الله وينتهى بما نهاه عنه ، وينظر بعين الحقيقة الى قضاء الله فيرضى بواقع المقدور ويسلم لربه فيما قضاه وحكم به ، فلا يصده الشيطان بالسخط على المقدور عن العمل بطاعة الله كما يحب الله .

وعن أبن عباس قال ، قال عمر بن الخطاب : قرآت الليلة آيه اسهرتنى (أيود احدكم أن تكون له جنة من نخيل واعناب) ما عنى ؟

فقال بعض القوم : الله اعلم ، فقال : انى اعلم ان الله اعلم ولكنى سألت ان كان عن احد منكم علم وسمع فيها بشئ أن يخبر بما سمع ، فسكتو فرآنى وانا اهمس ، قال : قل يا أبن اخى ولا تحقر نفسك ، قلت : عنى بها العمل ، قال : وما عنى بها العمل ؟ قلت : شئ القى فى روعى فقلته ، فتركنى واقبل وهو يفسرها : صدقت يا أبن أخى ، عنى بها العمل ، ابن آدم أفقر ما يكون الى جنة اذا كبر سنة وكثرت عياله ، وابن آدم أفقر ما يكون الى عمله يوم القيامه ، صدقت يا أبن أخى .

وتلك الآيه التى يشير اليها ابن عباس رضى الله عنهما ورد فى سورة البقره وهيى بتمامها (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابة الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فأحترقت كذلك يبين الله لكنم الآيات لعلكم تتفكرون) وقد جرت الآيه السابقه عليها هكذا (ومثل الذين ينفقون أموالهم إبتغاء مرضاه الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) ويقول الامام القشيرى فى لطائف أشاراته بعد الآيتين الكريمتين :

هذه آيات كثيره ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق لمن أنفق ماله فى سبيل الله ، ولمن أنفق ماله فى الباطل ، فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف ، وهؤلاء لايحصل لهم فى الحال الا الرد وفى المآل الا التلف وهؤلاء ظل سعيهم مشكوراً وهؤلاء يدعون ثبورا ويصلون سعيرا ، هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو امولهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم ، وهؤلاء حبطت أعمالهم وخسرت أحوالهم وختمت بالسوء آمالهم ويضاعف عليهم وبالهم .

ويقول الإمام الحارث المحاسبى فى وصف عباد الله المقربين :

ان أنعم عليهم شكروا ، وان منعوا صبروا ، اذاقهم الله طعم محبته ، ونعمهم بدوام العذوبه فى مناجته فقطعهم ذلك عن الشهوات ، وجانبوا اللذات ، وداموا فى خدمة ملك الارض والسموات ، قد اعتقدوا الرضا قبل وقوع القضاء ، طاب والله عيشهم ، ودام نعيمهم ، فعيشهم سليم وغناهم فى قلوبهم مقيم ، كأنهم نظروا بأبصار لقلوب

الى محجوب الغيوب ، فقطعوا كل محبوب ، فصار الله جل جلاله هو المنى والمطلوب .

ويبين لنا العارفون أن الشريعة كالسفينة ، والطريقة كالبحر ، والحقيقة كالدار ، و الشريعة هى أن تعبد الله ، و الطريقة هى أن تقصده ، و الحقيقة هى أن تشهده ، فالشريعة هى اتباع ما امر الله به و رسوله ، و الطريقة هى اتخاذ التقوى وما يقربك الى المولى ، والحقيقة هى الوصول الى المقصد و مشاهدة نور التجلى . كما قيل فى الصلاة انها خدمة و قربة ووصلة ، فالخدمة فى الشريعة والقربة فى الطريقة والوصلة هى الحقيقة ، والصلاة جامعة لهذه الخصال الثلاثة .

و قال العارفون ان المريد فى سفر ، فهو يسافر من النفس الى القلب ، ومن القلب الى الروح ، ومن الروح الى السر ، ومن السر الى خالق الكل ، ومسافة هذا السفر بعيدة جدا بالنسبة للنفس و قريبة جدا بالنسبة الى الله تعالى ، و ليس بيننا و بين الله مسافة نقطعها بل هى حجب اذا زالت عنا غشاوتها أبصرنا الحقيقة من ورائها فوصلنا الى حضرة نشهد فيها و نتحقق ألا فاعل الا الله . ويقول العارفون ان طهارة الشريعة بالماء ، وطهارة الحقيقة بالتخلية عن هوى النفس ، وطهارة الحقيقة خلوة القلب عما سوى الله . وهم يقولون بحق : لو رأيت شخصا يطير فى الهواء أو يمشى على البحر أو ياكل النار وهو يترك فرضا من فرائض الله تعالى أو سنة من سنن النبى صلى الله عيله وسلم فاعلم أنه كذاب فى دعواه وليس فعله كرامات بل هو سحر . ويقول الامام المرسى أبو العباس رضى الله عنه : ليس الشأن أن تطوى لك الأ رض فتصير فى مكة او غيرها من البلدان ولكن الشأن أن تطوى لك أوصاف نفسك فتصير مع الله .

ويقول سيدى الامام ابو طالب المكى رضى الله عنه فى كتابة القيم قوت القلوب : الرضا عن الله تعالى من أعلى مقامات اليقين بالله ، وقد قال تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) فمن أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه ، فقابل الرضا بالرضا ، وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء وهو قوله غز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول : أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القضاء .

ويقول العارفون : ومن الرضا عند أهل الرضا الا يقول العبد : هذا يوم شديد الحر ولا هذا يوم شديد البرد ، ولا يقول : الفقر بلاء ومحنه والعيال هم وتعب ، بل يرضى القلب ويسلم ويسكن العقل و يستسلم بوجود حلاوة التدبير واستحسان حكم التقدير . وقد قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : الفقر و الغنى مطيتان ما أبالى أياهما ركبت ان كان الفقر فان فيه الصبر ، وان كان الغنى فان فيه البذل . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة او رخاء ، وقد قال مرة رضى الله عنه لامرأته عاتكة رضى الله عنها : والله لاسوأنك ، فقالت :اتستطيع أن تصرفنى عن الاسلام بعد ان هدانى الله له ؟ قال: لا ، قالت : فأى شئ تسوءنى اذن ؟ و يقول سيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنه : اذا استوى عند الؤمن المنع والعطاء فقد رضى .

ويروى الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه حديثا حسنا كالمسند عن حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك :

(اذا كان يوم القيامة انبت الله لطائفة من امتى اجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها و يتنعمون كيف شاءوا ، قال فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حسابا ، فيقولون :هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا الصراط ، فيقال لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من امة من انتم ؟ فيقولون من امة سيدنا محمد صلى الله علية وسلم ، فيقولون : نشدناكم الله ، حدثونا ما كانت اعمالكم فى الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانت فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمتة ، فيقولون : وماهما ؟ فيقولون : كنا اذا خلونا نستحى ان نعصية ، و نرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا) .

وقد قال سيدنا لقمان علية السلام لابنة فى وصيتة : اوصيك بخصال تقربك الى الله وتباعدك من سخطة ، الاولى أن تعبد الله لا تشرك به شيئا ، و الثانية الرضا بقدر الله فيما احببت و كرهت . و فى اخبار سيدنا داود علية السلام : يا داود : ما لأوليائى والهم فى الدنيا ، ان الهم يذهب حلاوة المناجاة من قلوبهم .

وقد جاء فى الرسالة الوفية فى الرد على منكرى الصوفية ومؤلفها سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه أبيات من شعر لوالده العالم العارف سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى يقول فيها رضى الله عنه :

على كل الورى يجرى القضاء
وليس خلاف ما حتم القضاء
فليس يسوقنا الا القضـاء
وليس يعوقنا الا القضـاء
يحركنا يسكننا القضـاء
يجمعنا يفرقنا القضـاء
يقربنا ويبعدنا القضـاء
يقدمنا يؤخرنا القضـاء
يحلينا ويخلينا القضـاء
ويعطينا ويمنعنا القضـاء
وينطقنا ويسكتنا القضـاء
ويطوينا وينشرنا القضـاء
ويخفضنا ويرفعنا القضـاء
ويقبضنا ويبسطنا القضـاء
ويحزننا ويبهجنا القضـاء
ويبكينا ويضحكنا القضـاء
ويفقرنا ويغنينا القضـاء
ويسقمنا ويشفينا القضـاء
ويلهمنا ويذهلنا القضـاء
ويسلمنا وينصرنا القضـاء
ويشقينا ويسعدنا القضـاء
ويحيينا ويفنينا القضـاء
وينشرنا ويحشرنا القضـاء
ويفصل بالقضا فينا القضـاء
فان وقع الجفا فهو القضـاء
وان حصل الرضا فهو القضاء

فأنت الله منك لك القضـاء

ومالسواك ينتسب القضــاء

الهى الطف بنا فيما القضـاء

به يجرى اذا انحتم القضــاء

وقد وقع لى حادث فى شبابى كان لـه أثر شديد على نفسى ، فلجأت الـى الله فى ضعفى أن يخففه بفضله عنى ، واعتصمت بكتاب الله الكريم فقرأت ما تيسر منه ، وكان مما قرأتـه سورة الحديد فلما تلوت قوله تعالى فى تلك السورة (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا علـى مافاتكم ولا تفرحو بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) نزل هذا القول الكريم على قلبى بردا وسلاما فخلقت خلقا جديدا فبدل الله خوفى أمنا وجزعى صبرا وألمى أملا وسبحان القائل (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ومن يومئذ اعتدت أن اتذكر الآيتين المذكورتين كلما نزلت بـى نازلة أو أصابنى مكروه فأرضى بقضاء الله وقدره من غير تبرم أو سخط .

أقول ومـع ايمـان المؤمنين بالقضـاء فـان الله تعالى تعبـدهم بالتكـاليف الشرعيه كمـا تعبـدهم بالدعاء والالتجاه اليه فى الاضطرار والاختيار فقال تعالى (وقال ربكم ادعونى استجب لكم) كما قال تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء) وقال (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لـى وليؤمنوا بـى لعلهم يرشدون) ويقول سيدى الامام القشيرى تعقيبا على تلك الآيه الأخيره فى لطائف الاشارات :

سؤال كل أحد على حاله ولم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين ولا عن دنيا ولا عن عقبى بل سألوا عنه فقال تعالى (واذا سألك عبادى عنى) وليس هؤلاء من جملـة من قال (ويسألونك عن الجبال) ولا من جمله من قال (ويسألونك عن اليتامى) ولا من جملة من قال (ويسألونك عن المحيض) ولا من جملة من قال (ويسألونك عن الروح) ولا من جملـة من قال (ويسألونك عن الخمر والميسر) ولا من جملة من قال (يسألونك عن الشهر الحرام) .

هؤلاء قوم مخصوصون (واذا سألك عبادى عنى) أى اذا سألك عبادى عنى فبماذا تجيبهم ؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد ، فأنت وان كنت السفير بيننا وبين الخلق فهذا الجواب أنا أتولاه (فانى قريب) ثم بين أن تلك القربه ماهى : حيث تقدس الحق عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة او اختصاص ببقعه فقال (أجيب دعوه الداع) وان الحق قريب من الجملة والكافة بالعلم والقدره والسماع والرؤية ، وهو قريب من المؤمنين بالنصرة واجابه الدعوة ، وجل وتقدس عن أن يكون قريبا من أحد بالذات والبقعة ، فانه احدى لايتجه فى الاقطار وعزيز لا يتصف بالكنه والمقدار. وقوله تعالى (أجيب دعوة الداع اذا دعان فليسجيبو لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) لم يعد اجابة من كان باستحقاق زهد أو الى زمان عبادة بل قال (دعوة الداع) متى دعانى وكيفما دعانى ، ثم قال (فليستجيبوا لى) هذا تكليف ، وقوله (أجيب دعوة الداع) وكأنه قال : اذا دعوتنى عبدى أجبتك فأجبنى أيضا اذا دعوتك ، انا لا أرضى برد دعائك فلا ترض عبدى بردى من نفسك ، ثم قال فى آخر الآيه (لعلهم يرشدون) أى ليس القصد من تكليفك ودعائك الا وصولك الى ارشادك) .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

ففى افتقارى وتسآلى ومد يدى

أقوى دليل على أن تقضى الاربا

لو لم تردنى لما أرجو وآمله

من فيض جودك ما علمتنى الطلبا

وقال أنس بن مالك رضى الله عنهم : (خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وليس كل امر كما يريد صاحبى ، ما قال لى لشئ فعلته لم فعلته ولا لشئ لم أفعله الا فعلته ، ولاقال فى شئ كان ليته لم يكن ولا لشئ لم يكن ليته كان) كان يقول (لوقضى شئ كان) . وقد اختلف العارفون فى أى المقامات أفضل : عبد يحب الموت شوقا الى لقاء الله ، وعبد يحب البقاء للعباده والخدمة ، وعبد قال : لا اختار شيئا بل أرضى ما يختار لى مولاى وان شاء أماتنى غدا ، قال فتحاكموا الى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضل بترك الاعتراض والأختيار ، فقد دخل دار (الدنيا) بغير اختيار ،

وكذلك يكون خروجه منها على معنى دخوله بلا اختيار ، لأن مقام الرضا أعلى من مقام التشوق ثم الذى يليه فى الفضل الذى يحب الموت شوقا الى لقاء الله ، وهذا مقام فى المحبة ، وفى الخبر : من أحب لقاء الله أحب الله لقائه والذى يحب البقاء للخدمة وكثره العبادة هو فاضل بعد هذين ، مقامه قوة الرجاء وحسن الظن فى حفظ الله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (افضل المؤمنين ايمانا ، أو قال : أكمل المؤمنين أيمانا ، من طال عمرو وحسن عمله) لان الاعمال مقتضى الأيمان ولان الأيمان علم وعمل .

ويقول سيدى سفيان الثورى رضى الله عنه : منع الله عطاء ، لانه يمنع من غير بخل ولا عدم ، فمنعه اختيار وحسن نظر ، لان حقيقته المنع انما يكون لمن لك عنده شئ فمنعك ، أو تستحق عليه شيئا فلم يعطيك ، فأما من لا يستحق عليه شيئا ولا لك معه شئ فله الحق والأمر ولا يشرك معه أحدا ، والعبد لم يكن شيئا مذكورا ، فكل شئ اختاره فهو عطاء منه ، على تفاوت مقادير وضروب أحكام ، حلو ومر ، ولطف وعنف ، وشده ورخاء ، فالصبر على الاحكام مقام المؤمنين ، والرضا بها مقام الموقنين (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

ويقول العارفون ان مقام الرضا فوق مقام الصبر والشكر . كما قالوا ان العصمة حال الراضى عن الله عز وجل ، وهو ظاهر الرحمة والرحمة أول الرضا من الله تعالى حيث يقول جل جلاله (ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) وقال تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ربى) فالعصمة من الله تعالى لعبده دليل على الرحمة منه ثم تدخله الرحمة فى مقام المحبة وهى رحمة المحبوبين ، ثم ترفعه المحبة الى الرضا .

ويقول سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى ذلك من الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

مذ رأونى أهيم فى الله صبا
أدخلونى فى الحكمة الميدانا
علمونى كيف المسير الى الله
وقالو خد الرضا تيجانا

نتنادى الى اليقين هلموا

وبهذا لربنا نتدانى

قد نشأنا على اليقين صغارا

وكبرنا وما جهلنا المكانا

وادخرنا اليقين للحشر ذخرا.

وملأنا من الثبات جنانا

ولبسنا من الحياء شعارا

وجعلنا فوقنا طيلسانا

قد علمنا أن المحبة كنز

كل من صانها سما بنيانا

كما قال رضى الله عنه الهاما لوقته يعلمنا الصبر على المكروه :

لولا التألم فى الحياة لما بدا

نور التأمل لامرئ قوام

لولا وقود النار فيما ينبغى

ما كان ينضج بعد أى طعام

ويقول السادة الصوفية : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ورضاء الخواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل ما سواه . ويقول سلطان الموحديين سيدى على البيومى رضى الله عنه :

كل له ورد يكون وسيلة

لمعاشه ومعاذه ومعاده

وجعلت وردى فى الخروج عن السوى

وأكون مع مولاى تحت مراده

وقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه يقول : (أما بعد فان الخير كله فى الرضا ، فان استطعت أن ترضى والا فاصبر) . وقد استوى عند أمير المؤمنين عمر الرخاء والبلاء فقال رضى الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت ايما اركب .

ويعلمنا الساده الصوفية أن الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، ويقصدون بالصبر على العافية الا يستعمل المؤمن نعم الله من قوه بدن ، أو جاه سلطان ، أو كثرة المال فى متابعة هوى النفس ومخالفته أوامر الله ونواهيه ، فان استعمال النعم فى معصية الله كفر بنعه الله ، والعبد مأمور بشكر الله ، والشكر يقتضى الا يستعمل نعمه الله فى المعصية ، وقد منح الله المنفقين فى السراء والضراء فمدحهم بوصف واحد فى الحالتين حالة اليسر وحالة العسر ، فلم يخرجوا باليسر عن طاعة الله ومرضاته عز وجل فهم يحرصون على محبه الله تعالى ، والحبيب لا يخالف . ومن حكم العارفين : لا تنظر الى صغر الذنب ولكن انظر الى عظمة من تعصيه .

كما يعلمنا السادة الصوفية ان فى معرفة الله تعالى عوضا عن كل العلوم وليس فى سائر العلوم عوض عن معرفة الله ، وكل علم موقوف على معلومه ، فعلم اليقين معلومه الله تعالى ، ففضله كفضل الله تعالى على ما سواه . ولذلك قال بعض الحكماء : من عرف الله تعالى فماذا جهل ؟ ومن جهل الله تعالى فماذا عرف ، فالعلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء ، لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى والدعوة اليه (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ويحشرون يوم القيامة مع الانبياء بدليل قوله تعالى (ومن يطيع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

وقد طلب بعض الناس الى سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه أن يآتى له الهاما لوقته بأبيات على وزن البيت التالى وقافبته :

الله قل وذر الوجود وما حوى

ان كنت مرتادا بلوغ كمال

فقال فورا :

الله قل ، ودر الوجود وما حوى

متأدبا فى ساحة الاجلال

سلم لتسلم فى حياتك انـه

إنه لازم التقوى سما بظلال

واجعل لنفسك من قضا الله الرضا

حتى تكون موفق الأحوال

فتشت كل الخلق عن علم فلـم
أرلى سوى رب السما من وال
فتركت كل العالمين وجئتــه
وجعلت ذكرى ذاته منــوالى
ان كنت تحسب ان فى المال الغنى
أنا قد جعلت رضا المهين مالى

وأطال رضى الله عنه حتى قال آخرالأمر :

فأجعل هداك شريعتى وذريعتــى
واجعل شهودك لى مسرة حالـى
وان مر بر عصف الزمان وقصفه
و الله لست بما شهدت أبــالى
أأحبه وأخاف سطوة غيــره
هذا وحقك لا تعيه خصــالى
روض المحبة قد شهدت جمالـه
وجلاله فثبت فى أحــوالى
يا نفس انى لاألوذ بغيـــره
قومى الى حوض الكريم تعالى
سلم لربك أمره واترك لـــه
أقداره واحذر من الأقــوال
وذر العباد وشأنهم وفعالـــهم
ان كنت مرتادا بلوغ كمـــال

ومما نقلناه ومن انشاده الفورى قوله رضى الله عنه :

أضاء الهدى قلبى ونقى سريرتـى
فلست كبعض الناس أنسب للترب
وطهرت فى نجواك سر جوانحى
فخلصتها من عالم البعد والحجب
رضاء الفتى باله يشرح صـدره
فلن يتأذى بالحوادث والخطـب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنــا

شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب

وكذلك كتبنا من الهامه الفورى :

حياة الورى حلو ومر وانمـا
حلا المر بالتوحيد من رقة الحس
وانك لو عظمت دينك عالمـا
وعاملت بالحسنى وأدبت للنفـس
وكنت على الأحداث بالله راضيا
سواء عليك الموت أو ساعة العرس
سعدت من الدنيا بربك محسنـا
ونلت من الأخرى العطاء بلا بخس
اذا قيل لى اطلب قلت ربى مطلبى
وان قيل لي اشرب فلت انواره كأس

وحسبك من هذا الذى قرأته أن تعلم أن السادة الصوفية يتقلبون بيننا باجسادهم ويكونون مع الله بقلوبهم ، ويتعرضون لما يتعرض له سائر البشر من البلايا والمكاره ، لكنهم يصبرون حيث يجزع غيرهم ويرضون حيث يسخط غيرهم ، لانهم فهموا عن الله وأدركوا أن القضاء قضاؤه والحكم حكمه ، فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضاه ،
(أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) .

الأنسان وعمله

(وكل فرد مسئول عن عمله ، فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ، الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ما كان لله ، فلا أنا مسئول عن عمى ابن أبينا آدم ولا خالى أخو بنت أمنا حواء مسئول عنى) . جاءت تلك الكلمات فى رسالة من رسائل سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه وأخى فى الله الصديق الصالح المرحوم السيد / سالم جمعة ، وهى تشرح لنا معنى قوله تعالى فى سورة الإسراء (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزره أخرى) ولئن كان الناس جميعا من أصل واحد وهو آدم وحواء عليهما السلام الا أنهم افتقروا فى المسالك فمنهم مؤمن وكافر ، ومطيع وعاص ، وسعيد وشقى ، ويوم القيامة يجرى حسابهم وجزاؤهم ، فلا يجزى ولد مؤمن عن ولده الكافر ، ولا المولود المؤمن عن والده الكافر ، لأن الأنساب لاتنفع مع قطع الاسباب ، والكفر قاطع للاسباب مع قيام الانساب ، ودليل ذلك واضح فى كتاب الله عز وجل فقد قال سيدنا نوح عليه السلام شافعا لابنه الذى استحب العمى على الهدى (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) فقال تعالى ردا على هذه الشفاعة فى سوره هود (يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) قال سيدنا نوح عليه السلام فى أدب المرسلين الكرام (قال رب انى أعوذ بك ان أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) . فكرمه ربه قائلا : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) .

فانظر رعاك الله كيف فرق الله بين مآل الايمان ومآل الكفر ، وكيف قطع الله صلة الدم بالكفر الذى أصر عليه ابن سيدنا نوح فلم يقبل فيه شفاعة أبيه وعلل ذلك بقوله الكريم (انه عمل غير صالح) ، ثم انظر كيف حذرنا الله بهذه القصه فى خطابه الكريم لمولانا رسول الله

صلى الله عليه وسلم فقال بعد ذلك فى السورة ذاتها (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) والتقوى لا تقوم الا على أساس الايمان المتين ، ولقد أسس المنافقون مسجد الضرار بالمدينة المنورة وظنو أنهم يستترون بالمسجد من نفاقهم وسوء طويتهم فكشف أمرهم لمولانا رسول الله ونهاه عن أن يقوم فيه ، فأمر رسول اله صلى الله عيله وسلم أصحابه بهدمه ويحكى الله تعالى فى سورة التوبة قصة ذلك المسجد فى قوله تعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرار وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون . لاتقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أفمن أسس بيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين ، لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبه فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) .

(ويحكى السادة الصوفية فى مقام الايمان أن بعض السلاطين زار ضريح سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟ فأشاروا الى شيخ مسن كان حاضرا هناك فسأله السلطان : هل تذكر شئ مما قال أبو يزيد ؟ قال نعم ، انه قال من زارنى لاتحرقه النار ، فعجب السلطان من ذلك الكلام وقال : كيف يقول أبو اليزيد ذلك وأبو جهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم وتحرقه النار .

فقال الشيخ للسلطان معلما : أبو جهل لم ير النبى صلى الله عليه وسلم انما رأى (يتيم أبى طالب) ولو رآه رسولا كريما ، صلى الله عليه وسلم ، ما كان من أهل النار ، فأعجب السلطان بكلام الشيخ ، وفهم أن العباره ليست برؤية العين انما هى بالايمان والتصديق والاتباع .

وأفضل النعم وأجلها نعمة الايمان بالله تعالى ، ثم نعمة الرسول وتصديقه ، ويترتب على التصديق الانتفاع بالكتاب والسنه والجماعة ، فنكون فى أمة الاجابه التى قال تعالى فى شرفها (كنتم خير أمه أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . ويقول الامام سهل التسترى رضى اله عنه .

خص بمعرفة النعم وبمعرفه عظيم حلم الله تعالى وستره الصديقون ، وقد قال تعالى وهو أصدق القائلين (وان تعدوا نعمه الله لاتحصوها ان الله لغفور رحيم) فتمت النعمة بوصفية اللذين هو لهما أهل من المغفره والرحمة ، ثم قال تعالى فى الأنسان (ان الأنسان لظلوم كفار) فالعبد أهل للظلم والكفر الى أن يجود عليه ربه بالتقوى والمغفرة بتقديم ما به تولاه ، فبنعمته أطاعه العاملون ، ومن نعمته جازاهم ، وبنعمته ستر على الجاهلين وحلم عنهم ، ومن نعمته اظهار الجميل وستر القبيح ، فلا ندرى أى النعمتين أعظم جميل ما أظهر او قبيح ما ستر ، وقد مدحه المادحون بالوصفين معا فى الدعاء المأثور : يا من أظهر الجميل وستر القبيح .
ويروى الامام أبو طالب المكى عن بعض السلف : يقول الله عز وجل ان عبدا اغنيته عن ثلاث فقد أتممت عليه نعمتى : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه .
ورد النعمه الى الله من فقه المؤمن بدينه فانه اذا رد النعمه الى الله لم يمن على ربه بعمل صالح يوفق اليه من فضل الله ، وصدق الامام ابن عطاء السكندرى رضى الله عنه حين يقول فى حكمه : اذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق فيك ونسب اليك وهو فى حكمته هذه يستنير بقوله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) .
ومن نعم الله علينا أن جعلنا فى الايمان مسؤلين عن أنفسنا فلا يأخذ الولد بكفر ابيه ولا يأخذ الوالد بكفر ابنه بل (كل امرئ بما كسب رهين) وهو سبحانه لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقد اشترك عبدان فى اسم المعصيه ثم تباينا فى الإجتباء والعصمة فتاب الله على سيدنا آدم عليه السلام حيث قال تعالى فى نهايه أمره (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) وكانت نهايه ابليس (فاخرج منها فانك رجيم * وان عليك اللعنه الى يوم الدين) ونعوذ بالله من غضب الله ومن سوء الخاتمة .
والايمان علم يزيد وينقص ، وليس المقصود بزياته ونقصه جوهره وانما متعلقاته ومن العبادات والمعاملات ، وخير المسلمين ايمانا الصحابه الكرام من الهاجرين والأنصار ، وقد سمى الله المهاجرين باسم باسم الصادقين وسمى الأنصار بالمفلحين ، رضى الله عنهم أجمعين ، وترى

ذلك فى سورة الحشر فى قوله تعالى (للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضونا وينصرون الله ورسوله أولئك هو الصادقون . واللذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجه مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خاصه ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ، وتدرك من الآيتين ما كان بين الفريقين من مودة وتراحم برابطة الأخوة فى الله فقد اجتمعوا على كلمة التوحيد وكانوا أحق بها وأهلها فجعلتهم يدا واحده وقلبا واحدا على من سواهم كما وصفهم الله فى قوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) .

ولم يقف الترابط فى الله عند المهاجرين والانصار بل تعداهم الى من جاءوا بعدهم فقال تعالى فى ذلك الترابط الدائم (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم) ومن آثار المحبة فى الله أن يحسن المؤمن ظنه بأخيه ولا يحسده على نعمة الله بل يشيد بها ، وقد سئل امامنا على بن أبى طالب أن يصف اصحابه ، فقال عن أيهم تسألون ؟ قالوا عن سلمان ، قال أدرك علم الأوائل والأواخر قال : فعمار ؟ قال ملئ ايمانا الى مشاشه ، قالوا : وحذيفة ؟ قال صاحب السر أعطى علم المنافقين ، قالوا فاخبرنا عن نفسك فقال متحدثا بنعمة الله : اياى أردتم ؟ كنت اذا سألت أعطيت ، واذا سكت ابتدئت ، أى اذا سأل الله أعطاه ، واذا سكت لم يحرمه من فضله .

ومع فضل كلمة التوحيد فى الدنيا والآخرة ، فان المؤمن مطالب بعمل الصالحات وترك السيئات والا عرض نفسه للنار التى أعدها لله الكافريين (واتقوا النار التى أعدت للكافرين * وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) . وقد أخرج الطبرانى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول اله صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء من أهل القبله قال الكفار للمسلمون : الم تكونوا مسلمين ؟ قالو بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم الاسلام وقد صرتم معنا فى النار ، قالو : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ، قال ثم قرأ رسول الله

صلى عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (الر *تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) .

وقد خاف السادة الصوفية عاقبة المعاصى ، لانها تعرضهم لغضب الله وهم يرجون رضاه ، ويطمعون فى عفوه وحسن جواره وهم لذلك يكثرون فى حياتهم الدنيا من ذكر الموت وما بعده ، حتى تنضج بالخوف نفوسهم فتأتمر بأوامر الله وتنتهى بنواهية سبحانه ، ومن خاف الله فى الدنيا أمن من عذابه فى الآخرة لانه تعالى لايجمع على عبده خوفين ، ولمن خاف مقام ربه جنتان ، ولا يتأتى خوف الله الا بكف النفس عن هواها (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى) .

ويقول سيدى الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه فى كتابه (التوهم) مذكرا بالموت وما بعده :

(فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها الا الى الحشر الى ربك ، فتوهم نفسك فى نزع الموت وكربه ، وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملك يجذب روحك من بين قدمك فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك ، ثم تدارك الجذب واستحث النزع وجذبت الروح من جميع بدنك ، فنشطت من اسفلك متصاعده الى أعلاك حتى اذا بلغ منك الكرب منتهاه ، وعمت آلام الموت جميع جسمك ، وقلبك وجل محزون مرتقب ، منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أوالرضا ، وقد علمت انه لا محيص لك دون أن تسمع احدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك ، فبينما أنت فى كربك وغمومك وألم الموت بسكراته وشده حزنك لارتقابك احدى البشريين من ربك ، اذ نظرت الى صفحه وجه ملك الموت بأحسن الصوره أو بأقبحها ، ونظرت اليه مادا يده الى فيك ليخرج روحك من بدنك ، فذلت نفسك لما عاينت ذلك وعاينت وجه ملك الموت ، وتعلق قلبك بما يفجؤك من البشرى منه اذا سمعت صوته بتعمته أبشر يا ولى الله برضا الله وثوابه ، أو ابشر يا عدو الله بغضبه وعقابه ، فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقر الامر فى قلبك ، فتطمئن الى الله نفسك ، أو تستيقن بعطبك وهلاكك ويحل اليأس قلبك وينقطع من الله عز وجل رجاؤك وأملك .

وينقلنا سيدى الامام الحارث المحاسبى بخياله الى هول يوم القيامة فيقول رضى الله عنه :
(... فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، فينفرد كل واحد منهم بنفسه ينادى : نفسى نفسى ، فلاتسمع الا قول نفسى نفسى ، فيا هول ذلك وأنت تنادى معهم بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادى فيه المصطفى آدم والخليل ابراهيم والكليم موسى والروح والكلمه عيسى مع كرامتهم على الله عز وجل وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادى : نفسى نفسى ، شفقا من شده غضب ربه ، فأين أنت منهم من اشفاقك فى ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم وبحزنك وبخوفك ؟
(حتى اذا أيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا من اشتغالهم لانفسهم أتوا النبى محمد صلى الله عليه وسلم فسألوه الشفاعه الى ربهم فأجابهم اليها ، ثم قام الى ربه عز وجل واستأذن عليه فاذن له ثم خر لربه عز وجل ساجدا ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك واسماع الخلائق حتى اجابه ربه عز وجل الى تعجيل عرضهم والنظر فى امورهم ، فبينما أنت مع الخلائق فى ظلمات القيامه وشده كربها تنظر متوقعا لفصل القضاء والحلول فى دار النعيم أو الحزن اذا سطع نور العرش واشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلبك بالجبار ، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه لا يعرض عليه أحد سواك ، ولا ينظر الا فى أمرك)
.

ويوجهنا شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه الى الجمع بين الخوف والرجاء فيقول فى الهامه الفورى الذى نقلنا عنه :

من عاش يدعو ربه ... ونفسه مطهره
فإنه فى حشره ... يحمد حسن المغفره
لا تيأسوا من روحه ... فاليائسون كفره
أو تأمنوا من مكره ... فالآمنون فجره
ما بين خوف ورجا ... تعبد نفس حذره

ونقلنا عنه كذلك قوله رضى الله عنه :

أنا مذنب واحسراتـى　　　أنا ما نسيت حسابيه
بل خائف يأتى الحساب　　　وما أمنت عذابيـه
يا رب أنت علمتنـى　　　لم تخف منى خافية
سقمى يزيد وانمـا　　　آيات عفوك شافيـة
ان كان جسمى بالفناء　　　سقوفه متداعيـة
فالروح بعد فنائــه　　　فى الخلد شمس سامية

ونقلنا عنه قوله رضى الله عنه :

يا أيها الناس اتقوا ربكم　　　فان هول الحشر هول شديـد
اعتبروا بمن مضوا قبلكم　　　فالموت فوق رأس كل العبيد
وكلنا بعد الردى صائـر　　　اما شقى ضائع أو سعيـد
والعيش فى الدنيا له منتهى　　　والعيش فى الأخرى سما بالقلوب
واتركوا غيكم وكونوا جنودا　　　للذى فى حماه عز الجنـود
كل شئ يحد غير هـواه لم تحطه من القلوب حـدود

ويرى السادة الصوفية أن ترك المعاصى علامه على صدق العبد فى محبته لربه ومن أقوالهم فى ذلك : أعمال البر يعملها البار والفاجر ، والمعاصى لايتركها الا صديق . وفى وصيه سيدنا أبى بكر لسيدنا عمرو رضى اله عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرئ ، والباطل خفيف وهو مع خفته وبئ ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لو يكن غائب أبغض اليك من الموت ولن تعجزه ، وفى تفسير قوله تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) يقول الساده الصوفية ، اذا كنت فى بلد يعمل فيها بالمعاصى فتحول منه الى غيره . كما يقول السادة الصوفية فى الربط بين قوله تعالى (ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى) وبين قوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) ان العصمة منه تعالى لعبده من المعاصى دليل على الرحمة منه سبحانه ، ثم تدخله الرحمة فى مقام المحبة .

ويقول السادة الصوفية فى الفرق بين أهل الهدى وأهل الضلال : بعث الله النبيين للناس ليعبدوه ، ففريق عبد الله على نسك وتقربوا ، وفريق

زاغوا عن الحق مبعدين ، فأما الذين عبدوه خاضعين فسيرفعهم الله الى مشهد الضياء ، فيدخلون فى صفوف العزه ، ويقدسهم الله بطهارته ، فاذا هم عند الله فى النعيم دائمون ، وأما الزائغون فيلقى عليهم الذل وهم على الرؤس تحت حجاب الظلمات ناكسون ، فسبحان الذى برزت له الذوات الصالحات فوهب لها البسطه فآبوا الى قومهم مكرمين .

وعند قوله تعالى فى سورة فاطر (من كان يريد العزه فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الاشارات :

(من كان يريد العزة بنفسه فليعلم ان العزة بجملتها لله ، فليس لمخلوق شئ من العزة ، ويقال : من كان يريد العزة لنفسه فلله العزة جميعا أى فيطلبها من الله ، وفى آيه أخرى أثبت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وقال ها هنا (فلله العزة جميعا) ووجه الجمع بينهما أن عز الربوبية لله وصفا ، وعز الرسول وعز المؤمنين لهم فضلا من الله ولطفا ، فاذن العزة لله جميعا . واسطرد رضى الله عنه يقول : وعزه سبحانه قدرته ، أو يقال العزيز هو القاهر الذى لا يقهر ، فيكون من صفات فعله على أول القولين ، ومن صفات ذاته على القول الأخر .

(.. اليه يصعد الكام الطيب) الكلم الطيب هو الصادر عن عقيده طيبه ، يعنى الشهادتين ، عن اخلاص ، وأراد به صعود قبول . (والعمل الصالح يرفعه أى يقبله . ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . ويقال الكلم الطيب ما يكون موافقا للسنة . ويقال هو نطق القلب بالثناء على ما يستوجبه الرب . ويقال هو ما يكون دعاء للمسلمين ..)

وقد حدثتنى سيدى الوالد رحمه الله ، وكان من الصالحين ، أوسع الله له فى رضوانه ، انه فى حجته الاولى رأى فى المنام وهو بمكة المكرمة رعاها الله تعالى أن قائلا يقرأ عليه الآيه الكريمة (ومن كان يريد العزة فلله العزة جميعا ..) فقام من نومه مسرورا مستبشرا وبعد قليل نسى الآيه وحاول جاهدا ان يستذكرها فلم يستذكرها، ثم قصد بيت الله الحرام وهو مشغول البال باستذكار الآيه فجلس يشاهد الكعبه الغراء وإذا بقارئ يجاوره يستعيد بالله من الشيطان الرجيم

ويقرأ مبتدئا (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ...) فكان سروره بالغا بتذكرها ، ولما ختم القارئ قراته سأله عن السوره حتى يبحث عنها اذا نسيها مرة أخره فقال له انها فى سورة فاطر . وكأنما أراد سبحانه وتعالى أن يبشره بالقبول مرتيين مره مناما ومرة فى اليقظه وسبحان ربى المنعم المتفضل على عباده .

وتقوى الله هى الباب الموصل لعزة المؤمن التى يتحلى بها بين عباد الله الصالحين ولذلك يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل من الهامه الفورى الذى نقلناه عنه طيب اليه ثراه :

وليس مقام الناس بالفقر والغنى
ولكنما الاقدار بالعلم والحذر
يموت الورى سيان من ذل أو علا
وما ضاع حظا غير من بالورى انتصر
سواء لدى الناس الا أخا التقى
عبادته تغنينى ان ورد الحفر
وكل فؤاد راقب الله جنة
منابتها الايمان والعلم والبصر
وأغصانها الاخلاص والصدق جذعها
وأثمارها التقوى وأنعم بها ثمر
فحاسب هنا تهنأ هناك منازلا
ومن حاسب النفس اجتباه الذى فطر
وما هذه الايام الا رواحل
علوت لها ظهرا وكنت على سفر
وحسبك من دنياك أجر ورحمة
ومن لم ير الاخرى المراد قد اندثر

ومجاهدة النفس فى سبيل الله درجات ، وأول تلك الدرجات مجاهدة التقوى وتكون بالوقوف عند حدود الله خوفا من عقاب الله الذى أنذر به أهل المخالفات والمعاصى . والدرجه الثانيه هو مجاهدة الاستقامة وتقتضى كف النفس عن هوها وترك الاخلاق المذمومة وكسب الاخلاق المحمودة التى مدحها كتاب الله وتحلى بها مولانا رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، ونحن نطلب فى كل ركعه سبيل الاستقامة بقولنا فى فاتحة الكتاب (اهدنا الصراط المستقيم) وهو (صراط الذين أنعمت عليهم) وطلبنا الاستقامه فى الفرائض سبعه عشرة مره كل يوم ، بخلاف طلبها فى السنن ، انما يدل على شرفها وحلاوة ثمرتها ، وتقتضى الاستقامه أن نعالج مثلا البخل بالسخاء ، والكبر بالتواضع ، والجذع بالصبر ، والغضب بالحلم وهكذا . والدرجة الثالثة مجاهدة الكشف والاطلاع وتقتضى ان تسبقها الدرجتان المتقدمتان ، كما تقضى الاستعانة فيها بشيخ عارف بالله ، خبر المجاهدات وتجلت له أنوار الحق فهو على نور من ربه يمشى به فى الناس فيهديهم الى طريق التصوف الصحيح القائم على آداب الكتاب والسنه والجماعه .

ويفرق السادة الصوفية بين العلم والمعرفه ، فالعلم تحصيل والمعرفه مذاق ، ويقول فى ذلك الامام جلال الدين الرومى رضى الله عنه : هل قطفتم وردا من الواو والراء والدال ؟ اذهبو فابحثو عن حقيقة المسمى ، لا تنظروا للقمر فى الماء بل انظروا للقمر فى السماء . وعند قوله تعالى (كلا والقمر) يقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الاشارات : أقمار العلوم اذا أخذ هلالها فى الزياده بزياده البراهين فانها تزداد حتى اذا صارت الى حد التمام وبلغت الغايه تبدو اعلام المعرفة ثم تأخذ علوم البراهين فى النقصان حين تطلع شموس المعرفة ، وكما أن القمر كلما قرب من الشمس يزداد نقصانه حتى يصير محاقا ، كذلك اذا ظهر سلطان العرفان تأخذ أقمار العلوم فى النقصان بزياده المعارف كالسراج فى ضوء الشمس .

والعلم مطلوب ، والتفقه فى الدين حتم ولازم ، وانما قام علم الشريعه ليعمل به ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه ، من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ومن حكم السادة الصوفيه قولهم : شكر العلم العمل ، وشكر العمل زياده العلم ، وأروع ما يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

كل روح تفرغت لرضاه   سعدت بالقبول من مسعاها
قبلتى فى الصلاه ساعه وقت   كم مصل بعد الصلاة تلاها
انما قبلتى جميع حياتى   هى ذات الاله لن أنساها
فمسائى مع اليقين نهار   ونهارى سعاده برضاها

آنس الله مهجتى بعـلوم مزجتنى بها فكنت وعاها
طاف بى النور فالمعرف بحرى تلفظ الدر وهى لاتتنـاهى
وارتقاء الارواح فى مورد العلم يصفى الأرواح من دنياها
وانعدام الأهواء والحس منها هو معنى السمو فى مسراها
يا سرورى بقوله يا عبـادى انا فى سمعها آنال رضاها

اللهم اجعلنا يا الهى ممن قلت فيهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب) .

بين الخوف والرجاء

(أسأل الله تعالى أن يلطف بى فى قضائه وأن يجعلنى من عباده من الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ولا يجعلنى من الذين قال فيهم (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .

جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصديق الصالح المرحوم السيد / سالم عمر جمعة ، وقد دعا الشيخ فيها ربه أن يلطف به فى قضائه وأن يجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه . والعارفون بالله يخافون ربهم من فوقهم مع يقينهم أنه أرحم بهم من أنفسهم وآبائهم ، ومبعث خوفهم يأتيهم من علمهم بأنه تعالى يمحو ويثبت وأنه صاحب المشيئة وحده ان شاء رحمهم وان شاء عذبهم وان شاء ثبتهم وان شاء أضلهم قال تعالى فى سورة ابراهيم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال تعالى فى سورة الرعد (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) .

وقد حكوا عن امامنا احمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : سألت ربى عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ففتح ، فخفت على عقلى فقلت : يارب أعطنى على قدر ما أطيق ، فسكن ذلك عنى . وهكذا لطف الله به فى قضائه فخفف عنه بعد شدة . ويحكى العارفون انه لما ظهر على ابليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل يبكيان زمانا طويلا فأوحى الله تعالى اليهما : ما لكما تبكيان كل هذا البكاء ، فقالا : يا ربنا لا نأمن مكرك ، فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكرى .

فانظر رعاك الله كيف خاف الله فى قضائه اكبر الملائكة قدرا عند الله مع طهارتهما واشتغالهما الدائم بطاعة الله وتسبيحه وتقديسه ، ومعلوم أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فكيف

لا يخاف مقام ربهم البشر وهم خطاءون بجبلتهم البشرية وغرائزهم الفطرية ، كما أنهم مبتلون بالنفس وشهواتها وبالشيطان ومكايده ، وبفتنة الدنيا وزينتها ، ويقول سيدى حاتم الأصم رضى الله عنه : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقى آدم فيها ما لقى ، ولا تغتر بكثرة العبادة ، فان ابليس بعد طول تعبده لقى ما لقى . ويقول الامام الشبلى رضى الله عنه جوابا على من سأله : لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ فقال : لانها عزلت عن مكان التمام فاصفرت لخوف المقام .

ويقول السادة العارفون : وكذا المؤمن اذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه ، لأنه يخاف المقام فاذا طلعت الشمس طلعت مضيئة كذلك المؤمن اذا بعث من قبره خرج ووجهه يشرق ، وليس معنى الخوف أن يقطع المؤمن رجاءه فى ربه بل يجب عليه أن يرجو ربه ويطمع فى كرمه فى حسن ظن به سبحانه ولكن لا يدع العمل اتكالا على الرجاء ، لأنهم قالوا : علامة الرجاء حسن الطاعة . ويؤيدهم فى ذلك قوله تعالى فى سورة الزمر (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب) .

ويقول سيدى أبو عثمان المغربى رضى الله عنه : من حمل نفسه على الرجاء تعطل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة وبين لنا العارفون أن رجال الرجاء ثلاثة : رجل عمل حسنة ، فهو يرجو قبولها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب ، فهو يرجو المغفرة ، والثالث رجل الكاذب ، يتمادى فى الذنوب ويقول : أرجو المغفرة .

ويقول سيدى أبو على الدقاق رضى الله عنه : الخوف على مراتب : الخوف والخشية والهيبة ، فالخوف من شرط الايمان وقضيته قال تعالى (وخافون ان كنتم مؤمنين) والخشية من شرط العلم ، قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) والهيبة من شرط المعرفة ، قال تعالى (ويحذركم الله نفسه) ، وتروى أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها أنها سألت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت يارسول الله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة)

أهـو الرجـل يسـرق ويزنـى ويشـرب الخمـر قـال : (لا يابنـت الصـديق ، ولكـن الرجـل يصـوم ويتصدق ويخاف الا يقبل الله منه) .
وحين سأل سيدى الشيخ ربه أن يلطف به فى قضائه لم يكن جازعا مما جرى بـه المقدور بل كـان صـابرا علـى الـبلاء أجمـل الصـبر ، فقد بهر عقولنـا مـا كـان يتحلـى بـه مـن الصـبر علـى المكاره ، وانما قد طلب اللطف مع الرضا بالمقدور فهو لجوء الى رحمة الله التى وسعت كل شىء وقد شكا سيدنا أيوب ضره الى ربـه ، فقال عليه السلام مستدرا رحمته سبحانه (انـى مسنى الضر وانت أرحم الراحمين) وجاء بعدها فى سورة الأنبياء (فاستجبنا له فكشفنا ما بـه من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) ولأنـه عليـه السلام كـان راضيا فى قرارة نفسه بمواقع المقدور وكان مسلما لله كل التسليم فى قضائه أمتدحـه الله تعالـى بالصبر فقال تعالى فى سورة ص (انا وجدناه صابرا نعم العبد انـه أواب) ومـن ذلـك نـدرك أن اظهار البلاء على غير وجه الشكوى والضجر لا ينـافى الصبر علـى الـبلاء والرضا بالقضـاء .
وكذلك حكى الله عن سيدنا يعقوب عليه السلام أنه قال (انما أشكو بثى وحزنـى الـى الله) فـى حين أنـه حكـى عنـه مرة أخرى فى سورة يوسف (فصبر جميل عسى الله أن يـأتينى بهـم جميعـا انـه هو العليم الحكيم) .
وقد شكا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله حين خذله أهل الطائف وآذوه وجاء فـى دعائـه المشـهور :اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلـة حيلتـى وهوانى علـى النـاس ، يـا أرحـم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، الى من تكلنى ، الـى بعيد يتجهمنـى (يستقبلنـى بوجه كريه) أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك علـى غضـب فـلا أبـالى ، ولكـن عافيتـك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت لـه الظلمـات ، وصـلح عليـه أمـر الـدنيا والآخـرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لـك العتبـى حتـى ترضـى ، ولا حـول ولا قـوة الا بك .
ومعلوم أنـه صلـى الله عليـه وسلم كـان المثـل الأعلـى فـى الصبر علـى الـبلاء وفـى الرضا بمـر القضـاء ، واللجوء الـى الله فـى الشدة لا ينافيهمـا مـا دام القلـب سـاكنا تحـت مجـارى الاقـدار ، وانما اللجوء مظهر من مظاهر العبودية ، كما هو مظهر من مظاهر تقديس الربوبية واجلالها

قال تعالى فى سورة النمل (أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أأله مع الله قليلا ما تذكرون) وقال تعالى فى سورة يونس (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) .

وما أروع ما يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

الهى ان اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون الى عطاء واليأس منك فى بلاء .

ويقول سيدى ابن عجيبة الحسنى رضى الله عنه فى شرح تلك الحكمة اختلاف التدبير هو اقامة كل عبد فى حكمته على حسب ارادته ومشيئته من فقر أو غنى ، من علم أو جهل ، من عز أو ذل من قبض أو بسط ، من سقم أو صحة أو مرض ، من ايمان أو كفر الى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة وتنوع مظاهر الحكمة . وسرعة حلول المقادير هو تبديل تلك الأحوال فى أسرع حال من فقر الى غنى ، ومن غنى الى فقر ، ومن علم الى جهل ، ومن جهل الى علم ، ومن عز الى ذل ، ومن ذل الى عز ، ومن قبض الى بسط ، ومن بسط الى قبض ، ومن سقم الى صحة ، ومن صحة الى سقم ، ومن ايمان الى كفر والعياذ بالله ، ومن كفر الى ايمان ، فقلوب الخلق بيد الله الواحد القهار ، يقلبها كيف يشاء ويختار ، ويفعل ما يشاء (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) . فاذا تحقق العبد بهذا امتنع من أن يسكن الى ما أعطاه مولاه ، لأنه قد يسلبه ذلك فى ساعة ، وامتنع أيضا أن ييأس من مولاه فى وقت شدته وبلواه ، قال تعالى (فان مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا) ودوام الحال من قضايا المحال ، لكن لم يتحقق بهذا ذوقا الا العارفون فلذلك لا يسكنون الى عطاء ، ولا ييأسون فى بلاء بل يسكنون الى من بيده المنع والعطاء ، فلذلك لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم .

(.... وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيه ما غاب عن غيره وجلاء القلب لا يكون الا بنور الايمان والايقان ، فعلى قدر قوة الايمان يكون نور القلب ، وعلى قدر نور القلب تكون مشاهدة الحق ، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة بأسمائه وصفاته ، وبقدرهما يكون التعظيم

لذاتة ، وبقدر التعظيم لذاتة يكون كمال العبد ، و بقدر كماله يكون استغراقة فى اوصاف العبودية ، و بقدر استغراقه فى أوصاف العبودية يكون قيامة بحقوق الربوبية) .
ويقول سيدى ابن عطاء كذلك فى مناجاتة : الهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى ، افتمنعهما منى بعد وجود ضعفى و يقول سيدى الامام الشاذلى رضى الله عنة فى مناجاتة : (الهى ما أطعتك حتى رضيت ولا عصيتك حتى قضيت ، أطعتك بارادتك ولك المنة على ، و عصيتك بقدرتك ولك الحجة على ، فبوجود حجتك و انقطاع حجتى الا ما رحمتنى ، و بفقرى اليك و غناك عنى الا ما كفيتنى اللهم انى لم آت الذنب جرأة منى عليك ، ولا استخفافا بحقك ، لكن جرى بذلك قلمك ، و نفذ بة حكمك ولا حول ولا قوة الا بك ، والعذر اليك ، وأنت أرحم الراحمين ، اللهم ان سمعى و بصرى ولسانى و قلبى و عقلى بيدك لم تملكنى من ذلك شيئا ، فاذا قضيت بشئ فكن أنت و ليى ، واهدنى الى أقوم سبيل يا خير من سئل ، ويا أكرم من أعطى ، يا رحمن الدنيا و الآخرة ، ارحم عبدا لا يملك دنيا ولا آخرة) .
ثم انظر الى سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنة حين سال ربة اللطف فى القضاء أتبع ذلك بأن يجعلة من الذين من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنة ولا يجعله من الذين قال فيهم (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون) و قد سأل الله الطاعة لأنها انما تكون بالاتباع و التطبيق ، وانما فرض الله العلم ليعمل به المؤمن لا ليقف عند تحصيلة واخترانة فى حافظتة ، فقد ندد الله ببنى اسرائيل فقال تعالى فى سورة الجمعة (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) ولا شك أن أحسن القول قول الله تعالى و صدق سبحانة اذ يقول فى سورة الزمر (الله أنزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منة جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) فانظر كيف تتأثر قلوب المخلصين الصادقين حين يستمعون لكلام الله تعالى فى تدبر و تقدير للكلام و المتكلم جل جلالة ، فأين منهم من قال تعالى فيهم فى سورة محمد (ومنهم من يستمع اليك

حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواء هم) .

و قد جاء فى الحديث : من أراد أن ينظر ما له عند الله فلينظر ما لله عنده ، وفى رواية أخرى : (من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه ، فان الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد من نفسه) . ونجد مصداق ذلك فى آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى مثل قوله عز و جل فى سورة محمد (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وفى سورة البقرة (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) وفى سورة ابراهيم (واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) وفى سورة الليل (فأما من أعطى واتقى و صدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأمامن بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى) وهكذا .

ويقول سيدى ابن عطاء رضى الله عنة فى حكمه : (خير ما تطلبة منه ما هو طالبه منك) . و قد طلب منا سبحانة امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتقواه فى السر والعلانية ، والأكثار من ذكره ، والصبر على بلائه ، والرضا بقضائه ، والتأسى فى كل ذلك بمولانا رسول الله صلى الله علية وسلم ، والسادة الصوفية يعولون على تربية البواطن ولا ينخدعون بالظواهر ، و يقول سيدى أبو سليمان الدارانى فى هذا المقام : ليس البكاء بتعصير العيون ، انما البكاء أن تترك الأمر الذى تبكى عليه .

ويقول السادةالصوفية فى التفرقة بين البار والفاجر شعرا :

ليس من بات قريرا عينه
مثل من أصبح قفرا دارسا
ليس من أكرم بالوصل كمن
ظل يهذى بلعل وعسى
ليس من ألبس أثواب التقى
مثل الذى البس ثوبا دنسا
ليس من سير به مثل الذى
بات يرعى الحمى مبتئسا
ليس من شاهد صبحا واضحا
مثل الذى شاهد ليلا غلسا

ليس من بوىء رضات الحمى

مثل الذى أسكن قفرا يبسا

ليس من أشبه غصنا يانعا

مثل من أشبه عودا يبسا

وأنت ترى مما تقدم أن المدار على تقوى القلوب والاقبال على طاعة الله تعالى بهمة وعزم لا هوادة فيها ، طلبا للاحسن وتفضيلا له على الحسن الذى يرتضيه عوام المؤمنين ، فاذا خير الخواص بين القصاص من المسىء وبين العفو عنه اختاروا العفو تقربا الى الله تعالى وان كان القصاص من حقهم ، وهم يفضلون العفو ناظرين الى قوله سبحانه فى سورةالشورى (وجزاء سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) والى قوله تعالى فى سورة ذاتها (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور) والسادة الصوفية يأخذون أنفسهم على الدوام بالعزائم دون الرخص تفضلا لما يبقى عما يفنى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

وواجب على المؤمن الصادق اذن أن يستجيب لله وللرسول صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، فقد دعاه القرآن الكريم لذلك فى مواضع عديدة ومنها قوله تعالى فى سورة الأنفال (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) أى لما يحيى دينكم الذى تحيا به قلوبكم اذ لا حياة لها الا بطاعة الله تعالى فيما أمركم به أونهاكم عنه . وقد بين تعالى أنه لا يستجيب لله وللرسول صلى الله عليه وسلم الا الذين يسمعون فى تدبر وتفهم وايمان قال تعالى فى سورة الانعام (انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) .

وقد وضح الله تعالى الصراط المستقيم الذى يحب من المؤمن أن يتبعه فى آيات كثيرة ومنها على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة الانعام (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من آملاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا

بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) فما أعظم هذا البيان الالهى والارشاد الربانى وما أجمع النصيحة وأنفعها للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وجهاد المؤمن فى الطاعة انما تعود ثمرة جهاده عليه لانه تعالى يقول (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين) واذا وفق المؤمن فى الطاعه فلا يمن بها على ربه لأن الله لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه . واذا أطاع المؤمن ربه فانما يطيعه بتوفيق الله ، ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه فى حكمه :

(لا تفرحك الطاعة لأنها برزق منك ، وافرح بها لأنها برزت من الله اليك)(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ويقول سيدى الامام على زين العابدين رضى الله عنه : كل شىء من أفعالك اذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لم يقبل ، لأن المقبول مرفوع مغيب عنك ، وما انقطعت عنه رؤيتك فذاك دليل على القبول .

ويقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه فى حكمه : متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنه . والطاعة فى ظاهرها تطبيق أحكام الشريعة ، والغنى بالله فى الباطن من شهود الحقيقة ، فاذا جمع الله فيك طاعة الجوارح فى ظاهرك ، والغنى بالله فى باطنك فقد تمت عليك نعمه ظاهرة وباطنة . ويقول سيدى الشيخ العروسى رضى الله عنه : ان الدين بستان والشريعة سياجه ، والطريقة رياضة ، والحقيقة ثمراته ، فمن لا شريعة له لا دين له ، ومن لا طريقة له لا شريعة له ، ومن لا حقيقة له لا طريقة له .

وشيوخ الطرق الصوفية المتحققين أئمة يدعون الى الله على بصيرة بالقول والفعل والحال ، فهم نواب عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوة الخلق الى الحق ، فاذا رزقك الله امامة واحد منهم فاحمد الله على فضله وتوفيقه ، واستمع لقوله واعمل بارشاده ونصحه ،

و قل له ما علمك ربك ان تقوله فيما حكاة عن سيدنا موسى علية السلام حين قال لسيدنا الخضر علية السلام (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك أمرا) ولا يفوتك ما جاء فى الحديث الشريف (من بايع اماما اعطاة صفقة يدة و ثمرة قلبة فليطعه ان استطاع) .

واذا كان سيدنا موسى عليه السلام قد سعا سعيا حثيثا للاجتماع بالخضر عليه السلام طلبا للمزيد من فضل الله بدليل قوله تعالى (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) فالأولى بنا نحن عوام المسلمين ان نطلب الطريق الى الله تعالى على يد العارفين المتحققين ، لا على يد المدعين المتصنعين ، فان فاقد الشيئ لا يعطية ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيرة أعجز . انظر بتدبر الى قوله تعالى فى شأن سيدنا موسى عليه السلام و فتاه (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا و علمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . و كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا. قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك أمرا . قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيئ حتى احدث لك منة ذكرا) .

ومما نقلناه من الألهام الفورى الذى كان يرتجله سيدى العارف بالله و شيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه قوله :

و عندى ان الأمر ليس كما ترى
فلابد من سوق القلوب لمن يدرى
اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى
يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم و نوأه
سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
و لولا اتصال الكهرباء بأصلها
على موجة التيار ما نورها يسرى

و هؤلاء الائمة المتحققون اهل يقين بالله ، وبهذا اليقين جعلهم الله ائمة للسالكين ، قال تعالى فى سورة السجدة (و جعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا بآياتنا يوقنون) ويحكى سيدى بشر الحافى وهو من ائمة السلف فيقول رضى الله عنه : رأيت النبى صلى الله عليه

و سلم فى المنام فقال لى : يا بشر ، أتدرى لم رفعك الله بين أقرانك ، قلت : لا ، يا رسول الله ، قال : باتباعك لسنتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لاخوانك ، ومحبتك لأصحابى وأهل بيتى ، هو الذى بلغك منازل الأبرار .

وكما يطلب الأئمة الصوفية لأنفسهم أحسن الأعمال الصالحة و أكمل الصفات العالية و ازكى المسالك الحميدة ،فانهم يحبون لاتباعهم ما يحبون لأنفسهم . وقد اجتمع الامام شقيق البلخى رضى الله عنه بالخليفة العباسى المأمون ، فقال لة المأمون : انت شقيق الزاهد ؟ فقال : نعم شقيق و لست بالزاهد ، فقال له المأمون اوصنى ،فقال شقيق يوصيه : ان الله قد اجلسك مكان الصديق وانه يطلب منك مثل صدقه ، ومكان الفاروق ويطلب منك الفرق بين الحق وغيره ، ومكان عثمان و يطلب منك مثل حيائه و كرمه ، و مقام على ، و يطلب منك مثل علمه و عدله . فانظر كيف أراد له ان يتأسى بقادة الصحابة من سادتنا الخلفاء الراشدين وأن يتأسى بأكرم ما خصهم الله به من السجايا و مكارم الأخلاق .

و يقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى وصف أولئك الأئمة فى رسالته المباركة :

(جعل الله هذة الطائفة صفوة أوليائه ، و فضلهم على الكافة من عباده ، بعد رسله و أنبيائه ، صلوات الله و سلامه عليه ، و جعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الغياث للخلق ، و هم الدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق ..

(.. رجعوا الى الله سبحانه و تعالى بصدق الافتقار ، و نعت الانكسار ، ولم يتكأوا على ما حصل منهم من الاعمال ، أو صفا لهم من الأحوال ،علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، و يختار من يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، و عذابه حكم بعدل ، و أمره قضاء فصل) .

و مع أنة رضى الله عنه توفى الى رحمة الله فى سنة ٤٦٥ هـ فانه بعد ذلك يقول : (ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من أهل هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم

وأرى نساء الحى غير نسائها

(حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، و قل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع و طوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه .

(وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ،ورفضوا التمييز بين الحلال و الحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، و استخفوا بأداء العبادات ، و استهانوا بالصوم و الصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ..) .

ثم بين رضى الله عنه أنه ألف الرسالة و ذكر فيها سير شيوخ الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم و عقائدهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترقيهم من بداياتهم الى نهاياتهم لتكون لمريدى الطريقة قوة ..

و اذا كان الامام القشيرى قد صور لنا حالة زمانه فيما قال ، فان ذلك التصوير يتفق مع ما جاء فى الحديث ، لا يمضى زمان الا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم . ونعوذ بالله من سوء الحال و المآل . و سوء الحال يدعونا للحرص على الاصلاح ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، ولا صلاح لآخر الأمة الا بما صلح به أولها ، وما صلح الأوائل الا باتباع شرع الله قولا وفعلا وحالا . واذ كان أئمة الطريقة فى زمن القشيرى قد انقرضوا ولم يبق الا أثرهم ، فليس معنى هذا أن نيأس من الاصلاح ، فان تربة الدعوة ما تزال خصبة و انما ينقصها الرى وبذر البذور ، و الدعاة الى الله موجودون بحمد الله وهذا من فضله سبحانه على الأمة المحمدية و لئن لم يبلغوا مستوى أسلافهم فانهم على دربهم ومن سار على الدرب وصل .

فاسع جاهدا ، واصدق فى سعيك ، فى الالتقاء بواحد من هؤلاء الدعاة ، ليأخذ بيدك فى طريق الآخرة ،و هو أدق مسلكا وأوعر مرتقى من طريق

الدنيا ، وراع فى اختياره أن يكون مقيدا بالشريعة ومؤيدا بالحقيقة ، وادع الله فى سرك وجهرك أن يدلك على من يدلك علية فإنة تعالى يقول (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) فاذا وفقك الله و عثرت علية ووزنتة بميزان الشريعة و لمست فية أنوار أهل الطريقة ووجدت لقوله رنة فى قلبك وتأثيرا فى روحك فاصحبه على بركة الله ، وأحسن أدبك فى صحبته ، وانتفع من حسناته ولا تتبع عوراته ، فانه أعلم بالطريق منك ، ويحمل عنك المشقات و ينزلك منازل القربات ، و يحميك من فتنة النفس و الشيطان ، و يعينك على الطاعة بما أقامه الله فيه ، لا يسألك على ذلك أجرا ، ولا يريد الا خيرا .

و يقول سيدى ابن عجيبة رضى الله عنة فى شرح الحكم :

لا يخاف عليك عدم وجود أهل التحقيق ، وانما يخاف قطاع الطريق ، لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق ، انما يخاف عليك من قلة الصدق ، والله ما حجبهم عنك الا من عدم صدقك ، فلو حسنت ظنك بالله وبأولياء الله لرفع الله الحجاب بينك و بينهم ووجدتهم أقرب اليك من أن ترحل اليهم ، فسبحان من سترهم فى حال ظهورهم و أظهرهم فى حال خفائهم .

و يقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه فى تاج العروس : القلب شجرة تسقى بماء الطاعة ، و ثمراته مواجيده ، فاذا جف القلب سقطت ثمراته ، فان أجدب فأكثر من الاذكار ، ولاتكن كالعليل يقول : لا أتداوى حتى أجد الشفاء ، فيقال له : لا تجد الشفاء حتى تتداوى .

أقول ، وطبيب نفسك هو شيخك ، وعلة نفسك كامنة فى هواها ، وهى أمارة بالسوء الا ما رحم ربى ، فان دلك الله على أحد أوليائه الداعين اليه على بصيرة فقد رحمك ، فاستعن بالله ولا تعجز ، وعالج نفسك على يديه ، ولتكن على بالك نصيحة سيدى ابن عطاء الله التى جاءت فى لطائف المنن والتى يقول فيها رضى الله عنه :

(من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع و يكشف عن قلبه القناع ، فهو فى هذا الشأن لقيط لا أب له ، دعى لا نسب له . و ليكن أيضا على بالك قوله رضى الله عنه فى تاج العروس : انما تحتاج الى

معالجة نفسك فى الابتداء ، فاذا ذقت المنة جاءت معالجة النفس اختيارا ، فالحلاوة التى تجدها فى المعصية ترجع تجدها فى الطاعة) .

اللهم انقلنا بفضلك من ذل المعصية الى عز الطاعة و اجز عنا مشايخنا خيرا كثيرا ، فقد أخرجونا من سجن الهوى و سلكوا بنا سبيل الهدى ، و قد كانوا فيما رأيناهم بعد طول العشرة لهم ممن قلت فيهم (فبشر عباد الذين يستعمون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) .

التوكل والأسباب

" قال (صلى الله عليه وسلم) : " لو توكلتم على الله حق التوكل ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " .. فالغدو سبب والعطاء من الله ، والطير يغدو ملهما من حيث لا يدرى ، فالمؤمن اذا توكل على الله مع اتخاذ الاسباب ، كان كالطير ، لا يدرى ما يتم به القضاء ، ولا يتحدى نظام الطلب " .

جاءت تلك الموعظة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى ، العارف بالله ، الشيخ عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح الصديق المرحوم السيد / سالم جمعة ، وهو يبين لنا فيها ان التوكل ليس معناه ترك الاسباب التى أراد الله من عباده اتخاذها لتؤتى ثمرتها باذن مسببها سبحانه . وهذه المسألة قلما يفهما الناس فهما صحيحا ، ويظن أكثرهم – خطأ – أن التوكل على الله يقتضى ترك الاسباب ، فلا يسعى على رزقه من أبوابه المشروعة ، بحجة أنه من المتوكلين على الله .

والحديث الشريف الذى صدر به سيدى الشيخ عبارته ، وضح لنا فيه مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أن الطير تغدو وتروح . تغدو خماصا لا طعام فى جوفها وتسبح فى القضاء وتسقط على الزروع ملتقطة ما قسم الله لها من الرزق ، وتعود ممتلئة البطون فتغذى نفسها وتغذى صغارها ، مما رزقها الله ، وقد ألهمها الله بقدرته أن تترك عشها ، باحثة عن رزقها ، وان تعود للعش بعد تحصيله لترتاح بعد الكد ، وتستعيد نشاطها لسعى آخر فى الغد ، وهكذا ، وهى فى حركة السعى متوكلة على ربها الذى بيده رزق مخلوقاته ، وقد تكفل به لكل مخلوق ، بقوله الكريم فى سورة هود : " وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين " .

والتوكل هو حسن الاعتقاد فى الله ، والاعتماد على فضله فيما تسعى اليه من أمورك كلها ، ومحل التوكل قلبك الذى بين جنبيك والله

تعالى مطلع على خلجاتك ، فيعلم صدق التوكل أو زعزعة الشك ، وسعيك فى سبيل غايتك لا يتنافى مع حسن توكلك وقوة يقينك ، بل حسن التوكل يدعوك لقوة الحركة التى أمرك بها ربك الذى تتكل عليه وتتجه بقلبك اليه ، فان وصلت الى ما تريد ، فانما تصل بعونه وتوفيقه وتيسيره ، وان تعسر عليك شئ ، علمت أن ذلك انما كان بتقديره ، وقلت ما كان يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " قدر الله وما شاء فعل " .

وآيات التوكل فى القرآن الكريم كثيرة جدا وكلها تدعونا الى التحلى بالتوكل ، وعلى سبيل المثال يقول تعالى فى سورة الطلاق :" ومن يتوكل على الله فهو حسبه " أى كافيه ومغنيه عن غير الله ، ويقول تعالى فى سورة إبراهيم :" وعلى الله فليتوكل المؤمنون" ويقول تعالى فى سورة المائدة : "وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين " ، ويقول تعالى فى سورة آل عمران : " فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين " ، ويقول تعالى فى سورة هود : وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه "ويقول تعالى فى سورة الفرقان : " وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده " ، ويقول تعالى فى سورة الاحزاب :" وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا " الى غير ذلك من آيات الله البينات التى ربطت ربطا أكيدا بين الايمان والتوكل واتخاذ الأسباب المشروعة .

وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : " جاء رجل على ناقة له فقال : يارسول الله : أدعها وأتوكل ؟ .. فقال : إعقلها وتوكل فأمره (صلى الله عليه وسلم) ان يربطها بعقالها ويتوكل على الله فى حفظها وبذلك جمع بين التوكل واتخاذ أسباب الحفظ ، فلا يهمل بتركها غير مربوطة ، بحجة أنه متوكل على الله . ويقول الامام سهل التسترى رضى الله عنه – من طعن فى الحركة (أى فى طلب الرزق بأسبابه) فقد طعن فى السنه ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان ، ويشرح ذلك – رضى الله عنه – بقوله : التوكل حال النبى (صلى الله عليه وسلم) ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته .

ويقول السادة الصوفية – رضى الله عنهم – : التوكل نفى الشكوك والتفويض الى ملك الملوك . كما قالوا : التوكل هو الثقه بما فى يد الله تعالى ، واليأس عما فى أيدى الناس . وقال الامام الدقاق – رضى

الله عنه – : للمتوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالتوكل صفه العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواصى الخواص .

واذا أردت أن تعرف مدى ما تحلى به السادة الصوفية من التوكل فانظر فيما قال سيدى سفيان الثورى – رضى الله عنه – حين قال : لو أن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، ثم اهتممت بشئ من رزقى لظننت أنى كافر . وقد قال رجل لحاتم الاصم – رضى الله عنه – : من أين تأكل ؟ . . فقال " ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون " . وقال عامر بن عبد الله : قرأت قوله تعالى : " وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها " ، فوالله ما اهتممت برزقى منذ قرأته فاسترحت (أى تأكد أنه رازقه فلم يتزعزع بالشك) .

وقد سأل بعض الأكاسرة حكيما فى زمانه : ما بالى أرى العاقل محروما ، والأحمق مرزوقا ؟ .. فقال : أراد الصانع (سبحانه) أن يدل على نفسه ، ولو كان كل عاقل مرزوقا ، وكل أحمق محروما لوقع فى العقول أن العاقل يرزق نفسه ، والأحمق يحرم نفسه ، فلما رأوا الأمر بخلاف ذلك علموا أن الصانع هو الرازق .

ويقول امامنا الشافعى – رضى الله عنه – فى ذلك :

ومن الدليل على القضاء وكونه

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويقول (صلى الله عليه وسلم) " ان الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله " ، وهذا ما يقوى يقين المؤمن فى أن رزقه يأتيه عن تقدير العزيز العليم . وقد لزم رجل باب أمير المؤمنين عمر ، فكان يأتيه كل يوم ليسأله عطاءه فأراد أمير المؤمنين – رضى الله عنه – أن يرشده ارشادا شرعيا ، فقال له : يا هذا هاجرت الى عمر أو الى الله ؟ .. اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب زمانا حتى افتقده أمير المؤمنين وسأل عنه فدلوه عليه : فذهب اليه وقال له قد افتقدتك حتى اشتقت اليك ، فما الذى شغلك عنا ؟ فقال: انى قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وعن آل عمر ، فقال له أمير المؤمنين ..رحمه الله – فما الذى وجدت فيه ؟ .. فقال وجدت فيه

" وفى السماء رزقكم وما توعدون " فقلت رزقى فى السماء وأنا اطلبه فى الأرض ؟.. فبكى أمير المؤمنين رضى الله عنه واعتبرها موعظة .

وقد قال رجل للامام حاتم الأصم – رضى الله عنه – : من أين تأكل ؟.. قال من رزق الله ، قال ينزل من السماء ؟ .. قال : لو لم تكن الأرض لننزل من السماء ، قال : ما نسمع منكم الا الكلام ، قال : وهل نزل من السماء الا الكلام ؟ .. قال : ؟ أنا لا أقوى على مجادلتك قال : لان الباطل لا يقوى على الحق .

وقال تعالى فى سورة الروم : " الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون " ، وأنت تتبين من ذلك أن الخالق والرازق والمحيى والميت هو وحده سبحانه وتعالى ، فيجب أن تركن اليه فى رزقك ، ولا تركن الى أسباب الرزق ، ولئن كان أبوك سبب وجودك ، فانك لاتقول خلقنى أبى ، بل تقول خلقنى ربى ، فنظرت فى خلقتك الى الخالق جل وعلا – ، ولم تنظر الى سبب أبيك وأمك . وهكذا يجب أن ترد الفضل فى رزقك الى ربك ، وترد كل نعمة من نعم الدنيا والآخرة اليه سبحانه ، كما قال سيدنا يوسف – عليه الصلاة والسلام – : " رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين " .

والله الذى أجرى عليك رزقك وأنت جنين فى بطن أمك ، هو الذى كفل رزقك مادمت حيا ولذلك جاء فى حكم السادة الصوفية : كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا (بفتح الباء المشددة) غير مدبر (بكسر الباء) ، مرزوقا من حيث لا تحتسب . كما يقولون : يا هذا حفر النهر اليك وجريان الماء ليس عليك ، ويقصدون أن تسعى على رزقك والله كفيل باعطائك ، فمنك يكون السعى امتثالا لأمره ، ومنه يكون العطاء انجازا لوعده . وقد كان مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول فى مناجاته سبحانه : " لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد " ، فبين لنا (صلوات الله وسلامه عليه) ان الأسباب حركة نتعرض بها للعطاء الربانى ، وليست الأسباب هى الرازقة مهما جد فيها العبد واجتهد ، بل هى قنوات يجرى فيها الينا ما قدره الله من أرزقنا .

وفى وصية سيدنا لقمان – عليه السلام – لابنه : يا بنى أردد رغبتك الى الله ان شاء اعطاك وان شاء منعك ، فأن حيلتك لن تزيدك ولن تنقصك من قسمة الله التى قسم لك ، واعتبر رزقك بخلقك ، فان استطعت أن تزيد فى خلقك بحيلتك ، فانك اذن تزيد فى رزقك ، والا فاعلم أن الله هو الذى عدل الخلق وقسم الرزق ، فلن تستطيع أن تزيد فى أحد منهما .

والمتدبر فى القرآن الكريم يرى أن الله تعالى أقام الأسباب وأثبت تقديره فيها ، فقال تعالى مثلا فى الأسباب : " قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم " ، وقال فى تقديره سبحانه : " الله يتوفى الانفس حين موتها " وقال سبحانه فى أسباب الزراعة : " أفرأيتم ما تحرثون " ، ثم كشف عن قدرته فى انبات النبات " أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون " ، كما قال فى ابراز القدرة العلية الربانية : " فلينظر الانسان الى طعامه . انا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم " .

ويقول الامام زروق – رضى الله عنه – : أوصاف الربوبية أربعة ، تقابلها أربعة هى أوصاف العبودية : أولها الغنى ، ويقابله الفقر ، والثانى العز ، ويقابله الذل ، والثالث القدرة ويقابلها العجز ، والرابع القوة ، ويقابلها الضعف ، فمن استغنى بالله افتقر اليه ، ومن افتقر الى الله استغنى به ، ومن تعزز بالله ذل له ، ومن ذل له تعزز به ، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه ، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه ، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه ، ومن رأى قوته سبحانه ، علم ضعف نفسه .

وقد تكفل الله بأرزاق عباده ، وأقسم لهم على ذلك فى قوله الكريم :

" وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون " وذلك ليزيدهم اطمئنانا على أرزاقهم حتى لا تشتغل نفوسهم بالرزق عن الرازق الذى خلقهم لعبادته : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " . قال ابن عباس – رضى الله عنه – معناها الا ليعرفون ، فمعرفة الله هى أول فرض فرضه الله على عباده ، والمقصود بها معرفة الشهود والمذاق بتعبير الصادقين من العارفين ، وليست معرفة العوام المصحوبة بحجاب الغفلة .

وقد روى الامام أبو طالب الملكى – رضى الله عنه – بسنده عن عمرو بن ميمون ، عن النبى (صلى الله عليه وسلم) ، قال :

" أتدرون ما قال ربكم ؟ .. قالوا : الله ورسوله اعلم ، قال : حين استوى على عرشه ونظر الى خلقه : عبادى أنتم خلقى وأنا ربكم ، أرزاقكم بيدى ، فلا تتعبوا أنفسكم فيما تكفلت لكم به ، واطلبوا أرزاقكم منى ، وانصبوا أنفسكم لى ، وارفعوا حوائجكم الى ، اصب عليكم أرزاقكم . أتدرون ماذا قال ربكم ؟ .. قالوا : الله ورسوله اعلم ، قال : عبدى انفق ، أنفق عليك ، ووسع ، أوسع عليك ، ولا تضيق ، فأضيق عليك ، ان أبواب الرزق بالعرش لا تغلق ليلا ولا نهارا ، فأنزل الرزق منها لكل عبد على قدر نيته وعالته وصدقته ونفقته ، فمن أكثر ، اكثر له ، ومن أقلل ، أقلل له . ومن امسك : أمسك عليه ، يازبير ان الله يحب الانفاق ويبغض الاقتار . فكل وأطعم ، ولا تقتر فيقتر الله عليك ، ولا تعسر فيعسر عليك ، أطعم الاخوان ، ووقر الاخيار ، وصل الجار ، ولا تماش الفجار ، تدخل الجنه بغير حساب ، فهذه وصية الله لى ووصيتى لك .

ولا ينافى التوكل ان يدخر المؤمن لنفسه ولعياله تسكينا للنفس وتطييبا للقلوب التى قد تحركها وساوس الشيطان . وقد ادخر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوت سنة ليسن لأمته ذلك مع انه كان سيد المتوكلين . واذا ادخر المؤمن من رزقه شيئا فليجعل ادخاره موقوفا على رضا الله تعالى ، فيؤدى حق الله فيما ادخره ، ولا يبخل على الله الذى رزقه ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى ونحن الفقراء ، وقد هدد سبحانه البخلاء ، فقال تعالى فى سورة " محمد " " ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم " .

وقد حض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على كسب العيش فى حديثه : " لأن يأخذ أحدكم فأسه وحبله فيذهب الى الجبل فيحتطب فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه " . وقد قال شاب للامام أحمد بن حنبل – رضى الله عنه – : انى أريد ان اخرج الى الحج ولا أتزود ، فقال له الامام : ولماذا لا تتزود ؟ .. قالى انى

أريد أن أخرج الى الحج متوكلا ، فسأله الامام : تخرج وحدك أو مع القافلة ؟ .. قال بل مع القافة ، فقال له الامام : انت لا تتكل على الله ، بل تتكل على اخراج الناس ، وما ابدع ما قال الامام وفى الجمع بين اتخاذ الاسباب والتوكل يقول بعض الحكماء :

توكل على الرحمن فى الامر كله
ولا ترغبن بالعجز يوما عن الطلب
الم تر أن الله قال لمــريم
وهزى اليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء ان تجنيه من غير هزها
جنته ولكن كل شئ له سبــب

ويقول السادة الصوفية : ان الله تعالى احتجب عن العموم بالاسباب ، فهم يرونها ، وحجب الاسباب بنفسه عن الخصوص فهم يرونه ولا يرونها . فلا يصح عند السادة الصوفية ان يكون العبد متوكلا فى رزقه على صحه جسمه ، أو يعتقد انه لا يرزق الا من كده ، أو يعتمد على مال عنده وينسى به الثقة بربه – جل وعلا – وقد قال الامام بشر الحافى – رضى الله عنه– : ان العبد ليقرأ : " اياك نعبد واياك نستعين " فيقول الله تعالى : كذبت ما اياى تعبد ، ولا اياى تستعين ، لو كنت تعبد اياى لم تؤثر هواك على رضاى ، ولو كنت بى تستعين لم تسكن الى حولك ولا قوتك ولا الى مالك ونفسك .

ويقول الامام سهل التسترى – رضى الله عنه – : لو ان العبد سأل الله الا يرزقه لم يستجيب له ، ولقال له : يا جاهل انا خلقتك ولا بد من ان أرزقك أبدا وقد نقلنا عن شيخى ، العارف بالله ، سيدى الشيخ على عقل – رضى الله عنه – من الهامه الفورى الذى خصه الله به

كفل الله للبـرية رزقـا وتولاهم ثم أسبل ستـرا
تصبح الطير فى الهواء جياعا يشبع الله بعد ذاك الطيرا
لا تمد اليدين للنـاس يوما مدها للعباد بالشرك أخرى
وسؤال العباد شرك خفــى قد حفظناه حين ذقنا السرا
واذا ما اتجهت لله فــردا نلت يا صاحبى من الله خيرا

وكان مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اذا وضعت له مائدة الطعام قال : " بسم الله ، اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة " . وكان اذا فرغ من الطعام يقول : " الحمد لله ، اللهم لك الحمد ، اطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت ، لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه " . وكان (صلى الله عليه وسلم) يشرب الماء فى ثلاث دفعات ، ويسمى الله فى كل منها ، وكان يحمد الله فى أواخرها ثلاث تحميدات . فانظر رعاك الله كيف علمنا أن نرد الفضل فى طعامنا وشرابنا الى الله تعالى غير منكرين ولا متنكرين لفضله عز وجل .

وينبهنا سيدى الشيخ على عقل- رضى الله عنه – فى حكمه الملهمة ، الى أهمية اليقين بالله ، فهو الغنى الحق للمؤمن وان قل ماله فيقول :

ان أكن فى الورى فقيرا فانى أنا أغنى بمن أحب وأقنى

نفثات الغرام تشعل قلبى من جلال فيه أحيا وأفنى

نحن نرتاد كل صرح فنرقى بمراقى النفوس حسا ومعنى

وفى الحديث الشريف : " ليس الغنى بكثرة العرض انما الغنى غنى النفس " . ولذلك كان سيدى الامام الشاذلى – رضى الله عنه – يقول فى دعائه : نسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لا نشهد الا اياك ويقول امامنا على بن أبى طالب – رضى الله عنه وكرم وجهه – : من أراد الغنى بغير مال ، والكثرة بغير عشيرة ، فلينتقل من ذل المعصية الى عز الطاعة . ويفسر السادة الصوفية عز الطاعه بالمبادرة لامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ، والاكثار من ذكره ، وبذل كل مجهود ممكن فى مرضاته سبحانه .

وقد قال رجل لسيدى ذى النون المصرى – رضى الله عنه – زودنى كلمة ، فقال له وما ابدع ما قال :

لا تؤثرن الشك على اليقين ، ولا ترض من نفسك بغير التسكين ، وان تأتك نائبة الدهر فتحملها بحسن الصبر ، وارم بآمالك نحو الدائم الخبير ، تجده بآمالك قائما ، واغتنم مواصلة الله تعالى فان لله عبادا ألفوه فاستأنسوا به ، وعرفوه فأملوه على معرفته وواصلوه على عين يقين ، فسمت أبصارهم نحو عظيم ، جليل قدرته ، فسقاهم من حلاوة

مواصلته ، والعقهم من لذاذه مخالصته فلبكائهم حول العرش دوى ، ولدعائهم حنين تتقعقع أبواب السماء بسرعة تفتحها لاجابة دعائهم .
وقد حكى الله تعالى عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فقال سبحانه فى سورة القصص " فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير . فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا " فما كاد عليه السلام يدعو حتى رزقه الله من فضله الطعام . والعمل الذى يكسب منه رزقه حلالا طيبا ، ومثل هذه القصص انما ساقها الله الينا فى القرآن الكريم للاتعاظ بها وتقوية يقيننا فى كفالة الله تعالى لارزاقنا وتدبيره لامورنا ومعايشنا وسبحانه من رءوف رحيم ورزاق كريم .
ومن اروع الامثال التى ضربها الله لنا فى كتابه المجيد فى مقام التوكل عليه عز وجل قصة أم موسى عليهما السلام فقد قال تعالى فى سورة القصص " وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين " واطمئنانا الى وعد الله سبحانه ألقته فى البحر متوكلة على الله فى حفظه ، ولا شك ان المعترك بينها وبين نفسها وهى أم الرضيع كان شديدا ، فليس بلأمر الهين على الأم أن تقذف الرضيع فى البحر تتقاذفه الأمواج فى تابوته الى حيث لا تعلم ولكن الله تعالى ثبتها فى ذلك الموقف العسير على النفس وهو ما يحكيه قوله تعالى فى سورة القصص " وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين " وهو ما يعلمنا أن نلجأ الى الله فى تثبيت نفوسنا عند اضطرابها وقلقها بحكم جبلتها البشرية .
وقد بر الله بوعده لأم موسى عليهما السلام وهو ما يحكيه قوله تعالى فى السورة ذاتها " فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين " وقد بدل الله خوفها امنا وحزنها سرورا وجعل من جميل صبرها فرجا ومن عسرها يسرا . والعجب العاجب أن يكون كفيله اعدى أعدائه فرعون الذى ادعى فى غطرسته وغروره أنه اله من دون الله فأهلكه الله هو وجنوده

فكانوا من المغرقين وهو ما يحكيه قوله تعالى " وقال فرعون يا أيها الملا ما علمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين " والفارق فى هذه القصه واضح بين معاملة الله لاوليائه ومعاملته لا عدائه فقد أخرج سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه السلام الى بر السلامة وأغرق فرعون وجنوده فكان البحر عليه عذابا ونقمة بينما كان لموسى عليه السلام نعمة ورحمة وسبحان من اذا لطف بعبده جعل له المحن منحا والمضيق فضاء .

ولعلك بعد ذلك تستطيع أن تتذوق دعاء الامام الجنيد رضى الله عنه الذى يقول فيه :

" الهى وسيدى مولاى ، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك ؟ ومن أوسع منك رحمة لمن اتقاك وقصدك ، ومن أسرع منك عطفا ورأفة لمن أرادك وأقبل على طاعتك ؟ فكلهم فى نعمائك يتقلبون ، ولك بفضلك عليهم يعبدون ، سرت همومهم بك اليك ، وانفردت ارادتهم لديك ، وأقبلت قلوبهم بك عليك ، وفنيت حظوظهم من دونك واجتمعت لك وحدك ، فهم اليك فى الليل والنهار متوجهون ، وعليك فى كل الاحوال مقبلون ، ولك على الاحوال مؤثرون"

" فأنا أسالك الهى وسيدى ومولاى ان تكون لى بفضلك كالئا كافيا عاصما راحما ، فانى اليك لاح ، وبك مستغيث ، واليك راغب ، ومنك راهب ، وعليك فى أمور الدنيا والآخرة متوكل ، لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين " .

الا رضى الله عن سادتنا الصوفية الذين سبقت لهم من الله الحسنى والزمهم كلمة التقوى فساروا الى الله وأعرضوا عما سواه طمعا فى رضاه فأعزهم بمقام التوكل عليه سبحانه وأحبهم بصدق توكلهم فقال تعالى " ان الله يحب المتوكلين " . جعلنا الله من المتوكلين المحبوبين .. آمين .

الشاكرون

" الشكر باللسان مأمور به الانسان ، والشكر بالقلب نعمة أنعمها المنان ، وهو قسمان ، قسم على النعم الظاهرة وقسم على النعم الباطنة "

جاءت تلك العبارة فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح التقى الصديق المرحوم السيد/ سالم جمعه وفيها يوجهنا سيدى الشيخ الى الشكرين ، الشكر اللفظى والشكر القلبى ، ويلفتنا الى النعم التى أسبغها الله علينا ظاهرة وباطنة والتى توجب علينا لله تعالى الشكر الظاهر باللسان والشكر الباطن بالقلب لوهاب النعم ومفيضها جل جلاله " وما بكم من نعمة فمن الله " .

وقد وجهنا كتاب الله الكريم كما وجهتنا السنه النبوية الى التحلى بالشكر لأن الشكر مقام عظيم من مقامات أهل اليقين . ويقول العارفون ان أول الشكر أن يعرف المؤمن أن النعم التى يتقلب فيها هى من الله وحده لا شريك له فيها " وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه " . فاذا عرف المؤمن ذلك أطلق لسانه بشكر ربه والثناء عليه ، وحمده على انعامه واكرامه . وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل : كيف أصبحت ؟ قال : بخير ، فأعاد عليه النبى صلى الله عليه وسلم السؤال ثانية : كيف أنت ؟ فقال : بخير ، فأعاد عليه الثالثة : كيف أنت ؟ فقال بخير أحمد الله تعالى وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا الذى أردت منك ، فوجهه صلى الله عليه وسلم الى اظهار الحمد والشكر والثناء.

وللسادة الصوفية مشرب خاص فى مقام الشكر ، فهم لا يكتفون بالشكر عند العطاء كعوام المؤمنين ، بل يشكرون ربهم كذالك عند المنع لأنهم يرون فى المنع العطاء ولكن لا يفهم فهمهم هذا الا الأولياء والصديقون .. ويوضح لنا ذلك ما وقع بين سيدى شقيق البلخى وبين سيدى الامام جعفر الصادق رضى الله عنهما ، فقد سأله سيدى شقيق :

ما هى الفتوة فى الدين يا ابن رسول الله ؟ فقال الإمام ما تقول أنت يا شقيق ؟ قال إذا وجدنا شكرنا وإذا فقدنا صبرنا ، فقال الإمام رضى الله عنه : هكذا حال الكلاب عندنا فى المدينة ، فقال شقيق : فما الفتوة عندكم يا ابن رسول الله ؟ فقال الإمام : إذا وجدنا آثرنا وإذا فقدنا شكرنا ، فانظر رعاك الله إلى قول الإمام فى حال العوام : هكذا حال اكلاب عندنا فى المدينة المنورة ، وكيف لم يرضى أن يكون شاكرا فى العطاء دون المنع ، ولا تعجب فهم من الخواص بل من خواص الخواص وكان الإمام أبو حنيفة تلميذا له وقال فيه : ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد .

ثم إن السادة الصوفية لا يفهمون الشكر على أنه حمد وثناء فحسب بل يذهبون إلى أن الشكر يقتضى منك ألا تعصى الله بنعمه ، كما يقضى منك أن تستعين بنعمه على طاعته ، ولا تستعين بها على معصيه ، وإلا كنت كافر بالنعمة وغير شاكر لها ، وهم يستندون فى ذلك إلى قوله تعالى " ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا " وذهبوا إلى أن معناها استعانوا بنعمه على معاصيه فبدلوا شكر نعمة الله كفرا ، لأنه أمرهم أن يطيعوه بالنعم فخالفوه وعصوه بها ، وحجة السادة الصوفية فى هذا التفسير قوية فإنهم يقولون أن الخلق لا يقدرون على تبديل نعمة الله عز وجل ، وهذا من المضمر معناه ، لظهور دليله عليه ، ومثله قوله تعالى : " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون " والمعنى شكر رزقكم تجعلونه تكذيبكم برسل الله تعالى ، ويحض السادة الصوفية أتباعهم على ترك المعاصى كلها ظاهرها وباطنها ويقولون فى هذا المقام أنه تعالى قال : " وأصبغ عليكم نعمه طاهرة وباطنة "ثم قال "" وذروا ظاهر الإثم وباطنه " وفى ذلك تنبيه لأولى الألباب أن يذروا ظاهر الاثم شكرا لظاهر النعم ويذروا باطن الاثم شكرا لباطن النعم . وظاهر النعم هى عافية الأجساد ووجود الكفايات من الأموال ، وظاهر الاثم شهوات الجوارح التى تتفق مع النفس فى هواها ، وباطن النعم صفاء القلوب واخلاص النوايا ، وباطن الاثم سوء النيات والاصرار على الذنوب وسائر أمراض البواطن من الحقد والحسد والسخط على المقدور وسوء الظن والكبر والعجب الخ .

وقد علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاجتهاد فى العبادة والأعمال الصالحة نوع من الشكر ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه قام الليل وأطال القيام فى صلاته حتى تورمت قدماه ، وقد قالت له

سيدتنا أم المؤمنين عائشه رضى الله عنها : لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ وهكذا فسر لنا مولانا رسول الله بفعله وقوله قول الله تعالى " اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور " .

وقد مدح الله سيدنا نوحا عليه السلام فقال تعالى " انه كان عبدا شكورا " وجاء فى تفسيرها انه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شر أو نفع أو ضر . وجاء فى الخبر " ينادى مناد يوم القيامة : ليقم الحمادون ، فيقوم زمرة ، فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة ، قيل : ومن الحمادون ؟ قال : الذين يشكرون الله تعالى على كل حال " وفى لفظ آخر " على السراء والضراء " .

ومما يعين المؤمن على الشكر أن ينظر فى أمر الدنيا الى من هو أقل منه عطاء ، فتعظم فى نظره نعمة الله عليه فيشكرها ، ثم ينظر الى من هو فوقه فى الدين وينافسه فى طاعة الله والاقبال عليه ، فاذا كان كذلك كان من الشاكرين .

وقد جاء فى الحديث الشريف " من نظر فى الدنيا الى من هم دونه ، ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا ، ومن نظر فى الدنيا الى من هو فوقه ، ونظر فى الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا " .

ويقول السادة الصوفية : ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة ، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المنعم وترك التفكير فى نعمه والتذكر لآلائه ومننه ، وقد أمرنا له بتذكرها ووعدنا بالفلاح بتذكرها فقال تعالى " فاذكروا آلا الله لعلكم تفلحون " كما وعدنا رفع العذاب عنا فقال تعالى " ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم " فقرن الشكر بالايمان ورفع بوجودهما العذاب .

وقد قرن الله الشكر بذكره تعالى فقال عزوجل " فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون " وحين نزل قوله تعالى " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم " قال صلى

الله عليه وسلم : تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم ، قالوا : يارسول الله ، نهيتنا عن كنز الدينار والدرهم ، فماذا نكنز ، قال : ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وامرأة صالحة تعينه على أمر آخرته . وقد نصح صلى الله عليه وسلم سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه أن يقول فى دبر كل صلاة (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

ويقول السادة الصوفية أن شكر العامة على المأكل والملبس ، وشكر الخواص على مايرد على قلوبهم من المعانى . وقد شكا رجل الى بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك غمه وحزنه ، فقال له المدنى : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : فيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف ؟ قال: لا ، قال: فيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ، قال : لا ، قال : أفما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا .

وحدثوا عن بعض القراء المقربين أنه اشتد به الفقر حتى أحزنه قال فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له : تود أنا أنسيناك سورة الأنعام ، وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، قال فمعك آلف وأنت تشكو الفقر ، فأصبح وقد سرى الله عنه همه .

ويضع السادة الصوفية فى قمة النعم نعمة الايمان به سبحانه وتعالى ، ثم نعمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نعمة القرآن الكريم ، ثم أن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس . وهم يشكرون الله تعالى أنه لا يقلب قلوبنا فى الزيغ والشك فى العقيدة مع أن جوارحنا تتقلب فى المعاصى ، ولا شك أن ذلك مظهر من مظاهر كرمه واحسانه فلو قلب قلوبنا فى الزيغ والشك كما تتقلب جوارحنا فى المعاصى لكنا من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة والعياذ بالله .

وهذا منهم تقدير لنعمة الايمان ، وتقدير النعمة مدعاة الى شكرها . وقد دخل رجل على الامام سهل بن عبدالله التسترى رضى الله عنه وقال له : ان اللص دخل دارى وأخذ متاعى ، فقال له الامام سهل : أشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك – وهو الشيطان – وأفسد عقيدة التوحيد ، ماذا كنت تصنع ؟

ولتدرك فضل الله على هذه الأمة فى تثبيت الايمان فى قلوبهم قارن بين المؤمنين فى الأمة المحمدية وبين بنى اسرائيل فان سيدنا موسى عليه السلام اجتاز بهم البحر بمعجزة كبرى فما كادوا يصلون الى البر بعد رؤية المعجزة بأعينهم حتى تقلبوا فى الشك ، فانهم وجدوا قوما يعبدون الأصنام فقالوا " يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة " ونعوذ بالله من الضلال بعد الهدى .

والواقع أننا لا نبلغ حقيقة الشكر مهما شكرنا الله تعالى ، لأن نعمه تعالى لانستطيع حصرها " وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار " وانما يكون شكرنا مظهرا من مظاهر ولائنا لله واعترفنا بفضله واقرارا بأننا لا نستحق عليه شيئا ، وانما هو صاحب الفضل والجود والاحسان ، وقد سبق فضله وجودنا ، كما سبقت مغفرته ذنوبنا ، ولا يكون من الكريم الا الكرم ، وصدق القائل :

فان جحدتك ما أوليت من كرم

انى الى اللؤم أولى منك بالكرم

وعجزك عن شكره سبحانه هو غايه ما يصل اليه شكرك ، فلتكن على الدوام الشاكر العاجز عن الوفاء وردد ما كان يقول صلى الله عليه وسلم : سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وشعورك بأنك عاجز عن الشكر شكر ، واذا وفقك الله لشكره فاشكره على ذلك التوفيق ، وقد قال العارفون : الشكر على الشكر أتم من الشكر وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر الى ما لا يتناهى ، لهذا قال سيدنا داود عليه السلام : يارب : كيف أشكرك والشكر نعمة منك تستوجب بدورها الشكر ، فقال تعالى : يا داود الآن عرفتنى وشكرتنى .

وفى قوله تعالى " ان الانسان لربه لكنود " قيل هو الذى يشكو المصائب وينسى النعم . والخصوص يرون نعم الله فى المصائب ، ولذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما من بلاء يصيبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم ، النعمة الأولى أن البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، النعمة الثانية أنه لم يقع أكبر مما وقع ، والنعمة

الثالثة أن الله صبرنى عليه فاحتملته ، والنعمة الرابعة أن الله ادخر لى ثواب الصبر عليه . كما كان رضى الله عنه يقول : لو كان الصبر والشكر بعيرين ماباليت أيهما أركب . وأنت ترى من ذلك أنه استوى عنده البلاء والرجاء وتلك درجه الصديقين من أهل اليقين .

وقد جاء فى الخير : الصبر نصف الايمان ، والشكر نصف الايمان ، واليقين الايمان كله ، وقد قرن الله تعالى بين الصبر والشكر فى قوله تعالى " أن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور " فذكر الصبر بلفظ المبالغة على وزن فعال ، وذكر الشكر بلفظ المبالغة على وزن فعول ليتحلى المؤمن بالصبر الجميل الذى لا شكوى معه ، وبالشكر الدائم الذى لا جحود معه .

ويقول السادة الصوفيه ان المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام وكلها نعم من الله تعالى ، فهى اما أن تكون درجه وهذا للمقربين والمحسنين ، واما أن تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين والأبرار أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين فيعجل الله لهم العقوبة فى الدنيا رحمه منه ونعمة ، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين .

ويرى العارفون أن الايمان الذى كتبه الله فى قلوب المؤمنين نعمة وأن تثبيته فى القلوب نعمة أخرى اذ لو لم يثبته الله لانمحى ورجع القلب الى الكفر ، ولذلك يقول تعالى " يمحو الله ما يشاء ويثبت " أى يمحو ما لا يشاء ثبوته ويثبت ما يحب ثبوته . ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك .

وقد من الله علينا فعلمنا بعد جهلنا ، وبصرنا بعد غفلتنا فقال تعالى " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " فى حين أنه تعالى قال فى وصف الكافرين " وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله " وهو ما يدلنا على أن الأسباب وحدها لا تؤتى ثمرتها الا باذن مسببها سبحانه وتعالى .

وقال الامام سهل التسترى رضى الله عنه : اذا عمل العبد حسنة فقال : يارب أنت استعملتنى ، شكر الله له ذلك ، فقال : أنت عملت ، فاذا

نظر الى نفسه فقال : أنا عملت ، يقول الله : بل أنا استعملت . وقال رضى الله عنه : اذا عمل العبد سيئة فقال : أنت قدرت وأنت أردت ، يقول الله تعالى : أنت ظلمت وأنت عصيت بشهوتك وهواك ، فان قال العبد : ظلمت نفسى وعصيت بجهلى استحيا الله منه ، فقال : بل أنا قدرت وأنا قضيت ، قد غفرت لك باعترافك بالظلم على نفسك . ويقول الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه فى تعقيبه على كلام الامام سهل رضى الله عنه : وهذا داخل فى قوله تعالى " وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم " قيل هو الاعتراف بالذنب عقب العمل السيىء فكان الصالح بعده هو الاعتراف .

والانسان قد يطغى بالنعم ان لم يحفظه الله تعالى من شرها ويؤيد ذلك قوله تعالى " كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى " ويقول صلى الله عليه وسلم " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ " ويقول تعالى " وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون " أى من بعد ما أعطاكم العافية والغنى . فاذا أعطاك الله الصحة والغنى وصانك عن المعاصى فتلك نعمة النعمة ووجب عليك فيها شكر على شكر .

وعند قوله تعالى فى حق سيدنا نوح عليه السلام " انه كان عبدا شكورا " يقول الامام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الاشارات :الشكور هو الذى يكون شكره على توفيق الله له لشكره ، ويقال الشكور الذى يشكر بماله ينفقه فى سبيل الله ولا يدخره ، ويشكر بقلبه ربه فلا تأتى عليه ساعة الا وهو يذكره .

وعند قوله تعالى فى حق سيدنا ابراهيم عليه السلام " شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم " قال الامام القشيرى رضى الله عنه : الشاكر فى الحقيقة يرى عجزه عن شكره ويرى شكره من الله عز وجل لتحققه ان الله هو الذى خلقه ، وهوالذى وفقه لشكره ، وهو الذى رزقه الشكر ، وهو الذى اجتباه حتى كان بالكلية له سبحانه .

ويذكر سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى الهالمه الفورى الذى نقلناه عنه فضل ربه عليه فيقول رضى الله عنه :

أحبه وفؤادى بيت حكمتــه
ثوب الحياء من البارى تغشانى
أخافه وهو يهدينى لسدتــه
فما خشيت من العذال والشانــى
وكيف أخشى وفضل الله يدركنى
وبالهدى والندى مولاى وشانــى
أمسيت منكسرا أصبحت مفتقرا
والله عن كل هذا الخلق أغنانــى
طاب النسيم وحبى لا يبارحنــى
وقد هدانى الى التقوى فأفنانــى
ان يسكن الناس جنات تطيب بها
فحب ربى فردوسى وأفنانـــى

ثم هو يستنجد بربه يسأله أن يكون فى عونه وألا يكله الى نفسه فيقول رضى الله عنه :

رب هبنا رضاك وانظر الينـا
واهدنا يا كريم هدى حنـان
وتعطف على الضعيف بجـدوا
ك فانى أتوق للاحســان
لا تكلنى لشر نفسى وقتـــا
ان تكلنى فقد تكاثر رانــى
رب جنبنا الذنوب جميعـــا
وارعنى بالهدى مع الاخوان
واسكب العلم واليقين علينـــا
وأذقنا موارد الرضـــوان

ويقول رضى الله عنه فى أهل الصدق من عباد الله الصالحين :

هم الجواهر طبعا لا يغيرهـم
مر الزمان وهم من أهله الـدرر
أن يشبعوا حمدوا أو أفقروا صبروا
أو يحزنوا كتموا أو يوهبوا شكروا

ملائك الله ترعاهم وتتبعهــم

والفضل يحضر فيهم أينما حضروا

من أمهم كان فضل الله غامـره

وحيث منزلهم يستنرل المطـر

ثم هـو يـدعوك أن تتمسـك بربـك وأن تـركن اليـه علـى الـدوام وتتحلـى بتقـواه لتظفـر باحسـانـه واكرامه فيقول رضى الله عنه :

تمسك بالالـه تسـد حيـاة

وتحمد من أياديـه الثوابـا

فان قـالوا اتخذ لك أى جـاه

فخذ تقواه جـاهك والمآبا

وان قالـوا اتخذ لك أى كـأس

فخذ من كأس عزته الشرابا

ولعلنا أدركنا من كل ما تقدم أن ما نتقلب فيه من نعم ظاهرة وباطنـة انمـا هـى مـن عطـاء الله وجوده وهو سبحانه الغنى على الدوام ونحن الفقراء اليـه فـى الاضطرار والاختيـار ، وقد بـدأنا بفضله قبل أن يكون منا عمل ، فلا منة لنا عليه بل المنـة لـه علينـا ، ولا نستطيع أن نشكره الا بالعجز عن شكره ، واذ كنا عاجزين عن عد النعم وحصرها فكيف نستوفى شكرها ، فمنـه سبحانه الكثير ومنـا التقصير ، نشكره علـى قدرنا لا علـى قدره ونستغفره مـن تقصيرنا وهو الذى يقبل التوبـة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وليقل كل منـا مـا قالـه المؤمن الناضج الراشد الكامل سيدنا أبو بكر رضى الله عنـه (رب أوزعنـى أن أشكر نعمتك التـى أنعمت علـى وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين) فنفوز ان شاء الله برضا الله ومغفرته ونـدخل الجنـه التـى أعدها لعباده المتقين وقد قال فيهم بعد الآية السابقة فى سورة الأحقاف " أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن مـا عملـوا ونتجـاوز عن سيئاتهم فى اصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون " .

الحضور والغفلة

" وليس القائم كالنائم ، اذ النوم غفلة والقيام يقظة وحضور فان نام الذاكر فهو قائم ، قلبه معلق بالله وليس بلاه ، بل هو يقظ يراقب من يراه سبحانه وهو لا يراه فهو مع الله ".
ذلك من بعض ما كتب سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه المبارك الصديق المرحوم السيد / سالم جمعة ، وقد بين فى تلك الكلمات أن الغفلة عن الله نوم وان كان الجسد فى اليقظة ، وان الذكر حضور وان كان الجسد مستغرقا فى النوم ، فالذاكر قائم وان نام لانه انما ينام على حب الله ولا يلهيه عنه لاه مما يتلهى به الغافلون .
وهذه المسألة هى القطب الذى يدور عليه التصوف كله ، لان السادة الصوفية انما يتشبهون فى مسلكهم بخاصة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أوصاه الله بهم فى قوله الكريم (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدواة والعشى يريدون وجهه) فليس لهم غاية من شدة التعلق به سبحانه الا رضاه الذى يغنيهم عن كل عوض من أمور الدنيا والآخرة ، وقد قال تعالى فى شأن هؤلاء الخواص (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) كما يقول فيهم (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) وقد ورد فى الحديث الشريف " ان الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : انا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأى شئ أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا " وحين أوصى الله ورسوله بأهل الصفة قال صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله الذى لم يمتنى حتى

امرنى أن أصبر نفسى مع ناس من أمتى . ويعول السادة الصوفية فى تربية مريدهم على الاكثار من ذكر الله تعالى ، ويقول سيدى أبو مدين التلمسانى رضى الله عنه ، من دامت أذكاره صفت أسراره ، ومن صفت أسراره كان فى حضرة الله تعالى قراره . ويقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : المراد بحضرة الله تعالى حيث أطلقت فى لسان القوم (أى الصوفية) هو شهود العبد أنه بين يدى الله تعالى فاذا حجب عنه هذا المشهد فقد خرج منها .

ويقول الامام الشعرانى رضى الله عنه :

ان فوائد الذكر لا تنحضر ، لان الذاكر يصير جليس الحق تعالى وينال الذاكر من الاسرار والعلوم ماشاء الله كلما ذكر ، لان حضرة الله لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد ، لكن مع الحضور فيقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه فى ذكره مع ربه تعالى ، ماذا أتحفك وأعطاك فى هذا المجلس ، فاذا قال : ما أعطانى شيئا قلنا له : وأنت الآخر لم تحضر معه فى ذكره ، فاتخذ لك شيخا يزيل عنك الموانع المانعة لك من الحضور .

وقال رضى الله عنه كذلك :

والذكر أسرع فى الفتح من سائر العبادات ، قال سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى : قد بحث الأشياخ فلم يجدوا للمريد دواء أسرع فى جلاء قلبه من مداومة الذكر ، فحكم الذكر فى الجلاء للقلب كحكم الحصى فى النحاس ، وحكم غير الذكر من سائر العبادات كحكم الصابون فى النحاس وذلك يحتاج الى طول زمن .

ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى طيب الله ثراه (والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه) :

وفى الخبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اعطيت أمتك ما لم تعطه أمة من الامم ، قال : وما ذلك يا جبريل ؟ قال قوله (فاذكرونى أذكركم) لم يقل تعالى هذا لأحد غير هذه الامة . وقال رضى الله عنه وفى الخبر " الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت " رواه الشيخان . وفى تعليقه على قوله تعالى (ولذكر الله أكبر) يقول رضى الله عنه : قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية

وجهان : أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم اياه – والاخر أن ذكر الله أعم من كل عبادة ولبعضهم فيه وجه آخر وهو أن ذكر لفظ " الله " أعظم من ذكر غيره من الأسماء العلية واليه الاشارة بقوله سبحانه (وكلمة الله هى العليا) .

ويقول رضى الله عنه :

وفى الصواعق لابن حجر أن الامام علي الرضا المدفون بسوس كما فى تاريخها لما دخل سوقها وعليه مظلة لا يرى من ورائها تعرض له الحافظان أبو زرعة الرازى ومحمد بن أسلم الطوسى ومعهما من طلبة العلم والحديث مالا يحصى فتضرعا اليه أن يريهم وجهه ويروى لهم حديثا عن آبائه ، فاستوقف البغلة وأمر غلمانه بكشف المظله وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعته المباركة وقال : حدثنى أبى موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه بن أبى طالب رضى الله عنهم قال : حدثنى حبيبى وقرة عينى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حدثنى جبريل قال : سمعت رب العزة يقول : " لا اله الا الله حصنى ، فمن قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى " ثم أرخى الستر وسار فمد أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفا ، وقد قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه لو قرأت هذا الاسناد على مجنون لبرئ .

وفى هذه المناسبة أذكر أننى أثناء الحرب العالمية الثانية كان يداخلنى خوف عند وقوع الغارات وانطلاق المدافع المضادة للطائرات فشكوت خوفى لسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فأمرنى أن أقول عند وقوع الغارة : لا اله الا الله ، دخلنا فى حصن الله ، ثم أضاف رضى الله عنه : اتدرى لماذا اخترت لك ذلك ؟ قلت لا ياسيدى ، فروى لى الحديث المذكور بسنده ، وقد اتبعت ما أمرنى به رضى الله عنه فبدل الله خوفى أمنا بفضله وكرمه ، وصار ذلك القول من عادتى فى كل موطن من موطن الخوف حيث لمست بركته ، كما أنى علمته لتلاميذى وأحبائى ، جزى الله عنى وعنهم سيدى الشيخ خيرا كثير .

والحضور فى الذكر لا يتأتى للمريد مرة واحدة (الا أن يشاء الله) ولكنه يتدرج فيه شيئا فشيئا كلما والى ذكر الله واكثر منه وكانت وجهته صادقة وهمته عالية ، وتابع ارشاد شيخه العارف بدقة وتخيل انه معه أثناء الذكر يشد من أزره وأن روح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبارك الجلسة ، ذلك بأن الشيخ هو باب المريد الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو صلوات الله وسلامه عليه باب المؤمنين الى الله ، وهو سبحانه وتعالى يتولى الجميع ، والشيخ نائب فى الدعوة الى الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، ولولا أن للشيخ مدخلا فى تربية المريد ما جوزوا تخيله ، والطريق تحتاج الى الرفيق والله تعالى يقول (يوم ندعو كل أناس بامامهم) . وقد تأتى للمريد أثناء الذكر بعض الوساوس ، فيقول له الوسواس ما فائدة هذه الجلسة وأنت غافل فى ذكر الله ؟ وقد حذر السادة الصوفية من ترك الذكر فى هذه الحالة وقالوا لا تترك جلسة الذكر متابعة لهذا الوسواس ، بل يجب أن تستمر فى ذكر الله لان الغفلة عن الذكر شر من الغفلة فيه . وقد سمعت سيدى الشيخ على عقل نور الله ضريحه يشرح هذه المسألة ويقول على مسمع المريدين : ان اللسان جارحة فاذا تحركت بذكر الله تعالى وصارت رطبة به جعلت للذاكر قيمة وان لم يبلغ درجة الكمال التى يبلغها أهل القلوب الحاضرة التى لا تشتتها الشواغل والوساوس . وضرب لنا رضى الله عنه مثلا فقال لو انك ركبت فى عصا رخيصة حلية من ذهب ، لارتفع ثمن العصا كثيرا بقيمة حلية الذهب فكذلك ذاكر الله بلسانه تزداد قيمته بذكر الله ولو كان ذاكرا فى غفلة ، لقدسية الاسم الجارى على لسانه الذى حركته به محبة الله .

ويقول سيدى الامام الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الاحياء : فان قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أنفع وأفضل من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ، فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق الا بعلم المكاشفة والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى وفى الاخبار مايدل عليه أيضا .

واضاف رضى الله عنه قائلا :
وحضور القلب فى لحظة الذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى ، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو فى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات ، وهو غاية ثمرة العبادات العملية . والمريد فى بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس الى ذكر الله عز وجل ، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور وهذا معنى قول بعضهم : كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة ، ولا يصدر التنعم الا من الأنس والحب ، ولا يصدر الأنس الا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعا ، فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف ، هى النفس ما عودتها تتعود ، أى ماكلفتها أولا يصير لها طبعا آخرا ، ثم اذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع من غير ذكر الله ، وما سوى الله عز وجل هو الذى يفارقه عند الموت ، فلا يبقى معه فى القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا يبقى الا ذكر الله عزوجل .
أقول : والصلاة على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر ، وكذلك الاستغفار والتسبيح والتحميد والتكبير . والدعاء وتلاوة القرآن الكريم ، وصلاة الفرض أو النفل من أجمع العبادات للذكر لان الصلاة يتم فيها كل ما تقدم . ومن ذكر الله التفقه فى الدين ، ومدارسة العلوم الشرعية والتذاكر فيها ، وعلى الجملة تدخل كل العبادات والطاعات فرضا أو نفلا فى وصف الذكر بصفه عامة . أما ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى فهو المقصود بصفة خاصة فى التربيه الصوفية .
ويقول السادة الصوفية ان الذكر هو سلم الواصلين من السالكين الى حضرة رب العالمين ، وهو يحرس الجوارح ويحفظ الوقت ويفتح أبواب الأنس ، ويطبع فى النفوس رسوم العبودية ثم يمنحها منشور العتق ويضمن الخير بكل حال ، ويحدو قوافل السائرين الى الله ، وهو العبادة التى ظاهرها أجور ، وباطنها حضور ، وباطن باطنها نور على نور .
اقول : وتلك نتيجة طبيعية لأن التعلق بالكريم لابد أن تظهر آثار الكرم عليه ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ، وشاهد ذلك واضح فى كتاب

الله عز وجل ، اذا يقول تعالى (يا أيها الذين أمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما) .

أرأيته كيف أخرج سبحانه الذاكرين كثيرا من الظلمات الى النور أى من الكفر الى الايمان ، ومن الغفلة الى الذكر ، ومن الشرود الى الحضور ، ومن الجهل الى العلم ، ومن الخلق الدنى الى الخلق السنى ومن النقيصة الى الفضيلة الخ هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فأجرهم عظيم كما بينته الآية الأخيرة . ومن عجيب انك اذا تتبعت كتاب الله الكريم وجدت أنه تعالى أمر بكثرة الذكر أو معناها فى أوامره أو ثنائه على خواصه . فمثلا يقول تعالى فى سورة الأنفال (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) ويقول تعالى فى سورة الجمعة (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل اله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وقال تعالى فى سورة البقرة (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) ويقول تعالى فى سورة طه لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام (اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى) وقال تعالى فى سورة الاحزاب (والذاكرين الله كثيرا والذكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وقال تعالى فى سورة الشعراء (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) وقال تعالى فى سورة آل عمران (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) كما قال تعالى فى السورة ذاتها لسيدنا زكريا عليه السلام (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار) هذا فى حين أنه تعالى وصف المنافقين بقلة الذكر فقال سبحانه فى سورة النساء (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا) .

ولبيان ما قاله السادة الصوفية من ان الذكر عبادة ظاهرها أجور وباطنها حضور وباطن باطنها نور على نور يصف شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه حاله فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه فيقول :

وقفت على نجوى الاله جوانحـى
لذلك قلبى منزل كله ذكر
وأخليت قلبى من مناجاة غيـره
فاصبح طودا لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقا وأسكت هائمـا
وأنطق اجلالا وما عاقنى سير
ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى
وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

وكان رضى الله عنه من الذاكرين الله كثيرا والساهرين الليل كله فى مرضاة ربه ، وقد عاشرته عشرين عاما فرأيت منه همة لا تبارى ، وعزما لا يلين ، وهياما لا يفتر ، وحركة لا تسكن ، وشوقا لا يهدأ وحبا فى الذروة العليا وهو القائل ارتجالا والهاما :

نجتلى ذكره ونرتاح فيـــه
فانتهانا فى الذكر منه ابتدانا
اذكر الله ثم مل عن ســواه
كان عرفان غيره كفرانـا
اننا ملكه وموعدنا الحشــر
فهل عنه لحظة نتوانـــى

كما يقول :

أخلى فؤادى له من كل شائبــة
ان عشت أو مت أعضائى توحده

وقال ارتجالا فى لهفته على لقاء ربه :

انا لو أشرب البحار جميعـا
لم أزل فى محبتى ظمآنـــا
لست أروى الا بلقياك يـارب
فهذا اللقاء أسمى رجانـــا
نتنادى الى اليقين هلمــوا
وبهذا لربنا نتدانــــى

كما قال :

أرواحنا قال فيها الحق من قدم
هاهم رجالى وان المقصد الله
لا أنثنى عن هواه لحظة أبدا
وكيف أسلو وقلبى بيت تقواه
هجرت كل مرام غير رحمتـه
فانها حسناتى يوم القــاه

وقال :

شهدت روحى حمياه وقـد
لاح لى نور المحيا واتصـل
ان عيدى يوم القاه فمــا
لى عيد غير وجه الله جــل
ليس عندى أى مال انمــا
كل مالى فيه علم وعمــل
وحياة قد خلا سلطانهــا
من تقى الله قصاراها الفشـل
ليس من ورث عرشا ملكـا
أو على الملك تفانى واتكــل
انما الملك الذى حد الهـوى
وعن اللهو تناءى وعــدل

ويفرق رضى الله عنه بين أهل الغفلة وأهل الحضور فيقول ارتجالا :

وغفلة قلب المرء بعد وحسرة
فما نال عقبى ربه غافل القلب
لقد ذل فى يوم القيامة غافـل
تأخر فى يوم الجهاد عن الركب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنـا
شربنا من الانوار ما ليس بالشرب

ويشجعنا رضى الله عنه على الاكثار من ذكر الله تعالى فيقول :

ان يذكر الرحمن فى دار امرئ
حل الهنا بها ونعم الـدار
والليل بين سواده وسكونــه
بالذكر تكشف ستره الانوار
لا تسأموا من حبه لا تسأمـوا
من ذكره فهنا العطاء يدار
قومى اطمئنوا فى الحياة بربكم
فبذكره تتنعم الابـرار
ان تنصروا الرحمن ينصركم وما
خابت رجال هم له أنصار

ويقول حاضا على مراعاة الأخلاص فى الذكر :

لا تذكر البارى بقصد ولايــة
أو أن تكون على السما لا تنطفى
اذكر لوجه الله جل جلالــه
من رام غير جنابه لم يشرف
واذا اقتديت فبالكتاب لك الهـدى
حافظ على آياته بتلهـف
وانـهض بروحك نهضة قدسيــة
ولسنه المختار فى السير اقتـف

ولا تعجب أن تكون تلك حاله فانه تربى فى الطريقة الخليلية المباركة على يد سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنـه ، وهو الرجل الكامل الذى رباه صاحب الطريقة سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه الأنور الملحق بمسجده الكبير بالزقازيق ، وهو الامام المربى الذى وصفه تلميذه فضيلة المرحوم الشيخ عبد البارى الشرقاوى (كان رحمه الله من علماء الازهر الاجلاء) فقال فى وصفه :

كان ملكا فلم يزل يترقــى
فى المعالى حتى غدا ملكوتـا

ان هذا هو الخليل فقبـــل

تـرب أرض مشى عليها خفوتا

من يشاهده شاهد الافق الاعلـــى

وألفى جلاله المنعوتـــا

الا رضى الله عن شيوخنا الاجلاء الذين أخذوا بأيدينا فى طريق الآخرة حسبه لوجهه تعالى ، فأيقظونا بالذكر من غفلتنا وسقونا من شرابهم الطهور مشربا هنيئا سائغا للشاربين ، ذلك الشراب الذى قال فيه ارتجالا بالهامه الفياض سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه .

شراب الحب يعرف بالمــذاق

وما كل السقاة له بســاقى

دعاة الحب أكثر ما تلاقـــى

وقل الصادقون فما تلاقـــى

ألا يا ساقى العشاق مهـــلا

تعال املأ كؤوسك من حقاقـــى

تركت جميع خلق الله دونـــى

شغلت عن الخلائق باشتياقـــى

وكيف أحب غير الله يومـــا

وليس سواه فى الاكوان باقـــى

ومن عرف المحبة عن يقيـــن

محال أن يميل الى فـــراق

اللهم اجعلنا يا مولانا فى عبادك الصالحين الذين قلت فيهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

خصال صوفية

" وقد نظرنا اليك نظرة المتأمل فيك فاذا لك آداب وانتساب وشيم وشمم ، وطهر وكرم ، لا تنظر الى برك ، بل تقصد به وجه الله ، لانك مملوء بحبه تعالى ".
جاءت تلك الكلمات فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح التقى المبارك الصديق الراحل المرحوم السيد / سالم جمعة ، أوسع الله له فى رضوانه ، وهى شهادة قيمة من الشيخ فى تلميذه الموفق ، ولا شك أن الشيخ يسره أن يرى فى مسلك تلاميذه ثمرة تربيه طيبة يانعة ، فانه يرشدهم فى طريق الله ويربيهم فى جنبه ابتغاء وجه الله ، والله تعالى لا يضيع عمل عامل أخلص دينه لله .

وقد فارقنا قريبا الى دار القرار ذلك الصديق التقى النقى السيد / سالم جمعة ، وورى فى قبره يوم الجمعة الأول من شهر رمضان ، وقد أيد الله بآياته شهادة الشيخ المتقدمة ، فاختار السيد / سالم الى جواره الكريم فى ليلة مباركة هى ليلة الجمعة ، ودفن فى يوم مبارك هو يوم الجمعة ، وفى شهر مبارك هو شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى لناس وبينات من الهدى والفرقان ، وانا لله وانا اليه راجعون وسبحان الحى الذى لا يموت.
ولا تعجب أن يكشف الشيخ للمريد ما رآه فيه من خصال الخير ، فانه لا يكشفها له الا ان أمن عدم افتتانه بها ، وربما كشفها له ليزداد استمساكا بها ويسأل الله دوامها ، لانها من خصال السادة الصوفية الاتقياء الذين يتحلون بالفضائل ، ويتخلون عن الرذائل ويسعون الى مرضاة الله ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وها هو ذا الامام جلال الدين الرومى يصف تلميذه المقرب اليه سيدى حسن حسام الدين فى مقدمة

كتابه الشهير " المثنوى " وقد كتبها الامام باللغة العربية بنفسه وقال فيها عن تلميذه المبارك :

" .. لاستدعاء سيدى وسندى ومعتمدى ومكان الروح من جسدى ، وذخيرة يومى وغدى ، وهو الشيخ قدوة العارفين ، وامام أهل الهدى واليقين ، مغيث الورى ، أمين القلوب والنهى ، وديعة الله بين خليقته ، وصفوته فى بريته ، مفتاح خزائن العرش ، أمين كنوز العرش ، أبو الفضائل ، حسام الحق والدين حسن بن محمد بن الحسن المعروف بابن أبى ترك ، ابو يزيد الوقت ، جنيد الزمان ، صديق ابن صديق ابن الصديق رضى الله عنه " .

وقد كنت أكتب مقالى هذا قبل وفاة الصديق العزيز الراحل السيد / سالم جمعة ، رحمه الله رحمة واسعة ، وكنت أخشى أن يضايقه نشر شهادة شيخة فيه ، لانه طيب الله ثراه كان يحب أن يكون مخبوءا فى فضله وبره ، كما هو شأن كملة الرجال الصادقين ، وشاء الله أن يتوفاه الله قبل أن ينشر المقال فنشرته فى اطمئنان ابرازا للمثل العليا التى نراها فى مسالك العارفين من السادة الصوفية .

أما الانتساب الذى ورد فى عبارة سيدى الشيخ فهو انتساب الصديق الراحل الى الدوحة النبوية الشريفة ، وحدث عن السادة الاشراف فى سمو مناقبهم ولا حرج ، فهم مطهرون عنصرا وطوية ، وهم أهل المكارم ، وأصحاب الفضائل ، وقد سبقت لهم من الله الحسنى ، فالزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وهم ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بنى البشر ، وكفاهم شرفا أن يقول الله تعالى فيهم (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقد استعارت الآية للذنوب كلمة الرجس ، واستعارت للطاعات كلمة التطهير ، واذا أراد الله أمرا ساق أسبابه لانه تعالى فعال لما يريد .

وقد كان المرحوم السيد / سالم جمعة من أهل السعة فى المال ولكنه لم يبخل بما آتاه الله بل عطف على الفقراء والمساكين ومد بعونه البؤساء المتعففين ، وهنيئا له لما قدمت يداه ، والى روح وريحان وجنة نعيم . ويرضى الله عن سيدى الشيخ العارف أحمد الحلوانى (والد سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه) اذ يقول فى قصيدته الحلواء فى مدح بنى الزهراء :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا
وان هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا
هم الدين والدنيا لعمرى همو همو
فقل فيهمو ما شئت لا ترهبن نكرا
وعال بهم من شئت ان ذكروا العلا
وفاخر بهم من شئت ان ذكروا الفخرا
بدور سمت عن شمس أكرم مرسل
أناروا دياجى الكون بالطلعة الغرا
وبالبر والتقوى وبالحلم والندى
وبالعلم والفتوى وبالذكر والذكرى

والبر الذى ورد فى عبارة سيدى الشيخ عبد السلام ليس وقفا على الصدقات بل هو أعم ، ودليل ذلك من كتاب الله الكريم قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

ويقول الامام البيضاوى رضى الله عنه فى تفسيره : ان البر هو التوسع فى الخير من البر وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير ، ولذلك قيل البر ثلاثة : بر فى عبادة الله تعالى ، وبر فى مراعاة الاقارب ، وبر فى معامله الاجانب . وقال أيضا إن الآية كما نرى جامعة للكمالات الانسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنا بكثرتها وتشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء ، صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة وتهذيب النفس ، وقد أشير الى الأول بقوله (من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين) والى الثانى بقوله (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب) والى الثالث بقوله (وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا الى ايمانه واعتقاده ، وبالتقوى اعتبارا بمعاشرته

للخلق ومعاملته مع الحق ، واليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله : " من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان " .

وأهل البر _ بهذا المفهوم _ الذين يقصدون ببرهم وجه الله تعالى ويخلصون له النية فى عباداتهم ومعاملاتهم هم أهل محبة الله سبحانه كما يعلمنا سيدى الشيخ عبد السلام فى عبارته التى وردت فى صدر المقال ، واذا أردت أن تقف على تفصيل مسلكهم وتعرف كيف يحسن المريد اسلامه ويكسب محبة الله تعالى فاقرأ ما يقول سيدى الامام أبو طالب المكى رضى الله عنه :

" يكون محبا للخير وأهله ، مجانبا للشر وأهله ، مسارعا الى ما ندب اليه أو أمر به اذا قدر عليه ، حزينا على ما فات من ذلك اذا أعجزه ، تاركا لما لا يعنيه من الاقوال والافعال ، بريئا من التكلف ، وهو اجتناب مالم يؤمر به ولم يندب اليه من ترك وفعل مصليا للخمس فى جماعة ، مجتنبا للغيبة ولذكر الناس ، يحب للكافة ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، مسارعا الى الخيرات ، مسابقا الى أعمال البر والقربات ، طويل الصمت ، لين الجانب ذليلا للمؤمنين ، عزيزا على المتكبرين ، لا يمارى فى الباطل ولا يداهن فى الدين ، ولا يبغض على شىء من الحق وان كان عليه أو من أبعد الناس منه ، ولا يحب على شىء من الباطل وان كان له أو من أقرب الناس اليه ، كارها للمدح ممن يحبه ، قابلا للنصح ممن يبغضه ، صدوقا فيما يضره ، سريرته أفضل من علانيته محتملا لأذى الخلق ، صابرا على بلائهم ، منفردا بحاله عنهم " .

وفى تعقيبه على الآية الكريمة (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) يقول رضى الله عنه :

" الشريعة اسم من أسماء الطريق ، وللطريق أسماء كثيرة منها : الصراط المستقيم ، والسبيل ، والمنهاج ، والمحجة ، والمنسك ، والشريعة تشتمل على اثنتى عشرة خصلة هى جامعة لأوصاف الايمان : فأول ذلك الشهادتان وهى الفطرة ، والصلوات الخمس وهى الملة ، والزكاة وهى الطهرة ، والصيام وهو الجنة (بضم الجيم) ، والحج وهو الكمال ، والجهاد وهو النصر ، والأمر بالمعروف وهو الحجة ، والنهى عن المنكر وهو الوقاية ، والجماعة وهى الالفة ، والاستقامة وهى العصمة ، وأكل

الحلال وهو الورع ، والحب والبغض فى الله وهو الوثيقة ، فلا يكون المسلم معتقدا لبدعة ، ولا مقيما على كبيرة ، ولا آكل الحرام ، ولا طاعنا على صالح السلف ، ويكون كاف اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم ، ويكن ناصحا لجميع المسلمين مشفقا عليهم ، يسره ما يسرهم ، ويسوءه ما يسوءهم سيما لأئمتهم ، داعيا لجملتهم ، ويكون مخلصا لأعماله كلها لله تعالى " .

ومن أرفع آداب المسلم أن يكون رحيما بالمسلمين . وفى قوله تعالى فى الصحابة (رحماء بينهم) يقول ابن عباس رضى الله عنه وعنهم أجمعين يعنى متوادين بينهم ، يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم ، اذا نظر الطالح الى الصالح قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير ، وثبته عليه ، وانفعنا به ، واذا نظر الصالح الى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه واغفر له ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : هذه الآيه من حلالكم وحرامكم وفى الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والأخرة ، ومن منع حظه من الرفق منع حظه من الدنيا والآخرة " .

وبر الفقراء والاحسان اليهم من أعظم أبواب البر ، وفى الحديث الشريف : سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله أحدهم : " رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه " ، وهذا من المبالغة فى الوصف يدل على مجاوزة الحد فى الاخفاء فيخفى عن نفسه فكيف لا يخفى عن غيره ، وهذا الاخفاء الشديد يدل على أنه قصد بعطائه وجه الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى .

ويقول سيدى أبو طالب المكى رضى الله عنه : فاذا لم يمكنك على الحقيقة ان تخفى صدقتك عن نفسك ، فاخف نفسك فيها حتى لا يعلم الفقير انك المعطى ، وهذا مقام فى الاخلاص فان أظهرت يدك فى الاعطاء فاخفها سرا الى الفقير ، هذا حال الصادق ، فقد كان بعض المخلصين يصر الدرهم فى ثوب الفقير وهو نائم فلا يعلم من الذى صره ، وبعضهم كان يوصل الى الفقير على يد غيره ويستكتمه شأنه .

ويبين لنا سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه كيف يكون المؤمن بارا بماله وجهاد نفسه فيما قاله ارتجالا ومنه :

كل شىء يزول عند الممات
غير حب الاله والصدقات
فاذا مت لم يكن غير ما قد
متّه صالحا قبيل الوفاة
تترك المال للوريث ولكن
تؤنس القبر تركة الصالحات
خل عنك الدنيا ان من خدموها
خدعتهم والذنب للخدمات
وتنادى العباد فى كل يوم
احذرونى وجانبوا غدراتى
ان من يفقه الحقيقة يدرى
انها دار دعوة وصلاة
كان فيها وقلبه ليس فيها
انما كان كاسب الاوقات
ذاكرا شاكرا مقدم بر
ساهرا جانحا عن الشهوات
مستدرا فيض الاله عليه
مستقيما ملازم الحسنات
قائما فى عبادة الله يقظان
قوى الفؤاد أهل ثبات
ذلك الحى فى الرجال عليه
يوم ان مات اعظم الرحمات
انا مازلت فى ديار التجلى
صادق العزم صادق القربات
ساعيا فى الهدى أوحد ربى
اينما كان شأن كل السعاة

ويقول السادة العرفون : اذا دعا لك مسكين عند الصدقة فأردد عليه مثل دعائه حتى يكون ذلك جزاء لدعائه ويخلص لك اجر صدقتك ، والا كان دعاؤه مكافأة لك على معروفك . وقد كانت السيدتان عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما اذا ارسلنا معروفا الى الفقير قالتا لرسولهما : احفظ ما يدعو به ، ثم يردان عليه مثل قوله ويقولان : حتى تخلص لنا صدقتنا ، وفعل ذلك سيدنا عمر وابنه سيدنا عبد الله رضى الله عنهما .

وينبغى للمتصدق أن يجعل صدقته من أطيب ماله ، فان الله طيب لايقبل الا طيبا ، وينبغى له ان يستصغر ما يعطى ، فان استكثاره ما يعطى من العجب ، والعجب يحبط الأعمال ، ويقول السادة الصوفية ان الطاعة كلما استصغرتها كبرت عند الله تعالى ، وان المعصية كلما استعظمتها صغرت عند الله تعالى . كما يقولون : لا يتم المعروف الا بثلاث : تصغيره وتعجيله وستره .

وقد وصف الله تعالى أهل الحاجة من الفقراء باوصاف خمسة فى القرآن الكريم فقال سبحانه (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) وقال تعالى (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) وقال تعالى (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) أما السائل فهو الذى يسأل بلسانه ، وأما المحروم فهو المضيق عليه فى رزقه ، وأما القانع فهو الذى يقعد فى بيته ويقنع بما يسوق الله اليه من غير طلب ، وأما المعتر فهو الذى تحمله الحاجة على التعريض فى سؤاله ويمنعه الحياء من التصريح .

وفى الحديث الشريف : " ليس المسكين الذى ترده الكسرة والكسرتان والتمرة والتمرتان ، انما المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه " . وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الفقير على قدر العيلة ، فيعطى المتأهل ضعف ما يعطى للأعزب ، ويعطى الرجل على قدر أهل بيته الذين هم فى كنفه . وقد سئل سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن جهد البلاء ما هو ؟ فقال : كثرة العيال وقلة المال .
قد كان بعض العارفين يؤثر بعطائه فقراء الصوفية عن غيرهم فقيل له : لو عممت بمعروفك جميع الفقراء ، فقال : لا أفعل بل أوثر هؤلاء على

غيرهم ، قيل لـه : ولم ذلك ؟ قال : لان هؤلاء همهم الله سبحانه وتعالى فاذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم ، فلان أرد همة واحد الى الله تعالى أحب الى من أن أعطى الفا من غيرهم ممن همه الدنيا . فذكروا كلامه هذا للامام أبى القاسم الجنيد رضى الله عنه فاستحسنه وقال : هذا كلام ولى من اولياء الله تعالى ثم قال : ماسمعت منذ زمن كلاما أحسن من هذا .

أما سيدى عبد الله بن المبارك رضى الله عنه فكان يجعل معروفة فى أهل العلم خاصة ، فقيل له : لو عممت به غيرهم ، فقال : انى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء ، فاذا اشتغل قلب العالم بالحاجة أو العيلة لم يتفرغ للعلم ولا يقبل على تعليم الناس ، فرأيت ان أعينهم واكفيهم حاجاتهم لتتفرغ قلوبهم للعلم وينشطوا لتعليم الناس .

وصدق سيدى ابن المبارك فيما ذهب اليه فان امامنا الشافعى رضى الله عنه وأرضاه قال : لو كلفت بصلة ما فهمت مسألة فى العلم .

والمتيسر من السادة الصوفية يستبشر اذا قبل العارف الفقير عطاءه لان ذلك علامة القبول من الله تعالى وليس قبوله كقبول غيره ولا رده كرد غيره وذلك لحسن معرفته وقوة صلته بالله تعالى ، وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحابى رضى الله عنه : " استفت قلبك وان أفتاك المفتون " والعارفون بالله يستفتون قلوبهم فى القبول والرد فاذا انشرحت صدورهم للقبول قبلوا العطاء واذا انقبضت ردوا العطاء على صاحبه .

وقد كان أسلافنا الصالحون يدفعون فى فريضة الزكاة المئات ويدفعون فى صدقة التطوع الآلاف ، وكانوا يصلون الفقير بما يخرجه عن حد الحاجة والضر ويغنيه ويكفيه . وكانوا يضعون الزكاة فى يد الاحوج فالأحوج ، والأفضل فالأفضل ، من أهل العلم بالله تعالى ، وأهل الطاعة العاكفين على مرضاة ربهم فى همة وصدق ممن قال تعالى فى وصفهم (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) .

ويقول السادة الصوفية : ان أفضل الاعمال العطف على اهل الضعف وهم يستندون فى ذلك الى الحديث الشريف : سئل النبى صلى الله عليه وسلم . أى الاعمال أفضل فقال " ان تغيث ملهوفا أو تنصر أخا لك . كما قال صلى الله عليه وسلم :

" الساعى على الارملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله "

وقال أيضا صلوات الله وسلامه عليه : " الخلق عيال الله فأحب الخلق اليه أنفعهم لعياله " .

وأولى الناس ببر المؤمن أبوه ثم الأدنى فلأدنى ، ويبين ذلك جليا من الحديث الشريف . فقد روى حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : أمك ثلاثا ثم قلت ، ثم من ؟ قال : أباك قلت ، ثم من ؟ قال : ادناك ادناك ، وفيه " وأختك واخاك " وروى عنه صلى الله عليه وسلم : (كفى بالمرء اثما أن يضيع من يعول) . وقال رجل يارسول الله ، عندى دينار ، قال : أنفقه على نفسك ، قال عندى آخر ، قال : أنفقه على اهلك ، قال عندى آخر حتى عد الخامس ، قال : شأنك به ، وقال : خير الصدقة ما كانت عن ظهر غنى وما أبقت غنى ، وأبدأ بمن تعول . ويؤيد كذلك قوله تعالى (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) .

أما امتلاء القلب من محبة الله تعالى وهو ما أشار اليه سيدى الشيخ عبد السلام فى آخر عبارته ، فلا يتم للمؤمن الا اذا أخلى قلبه من ذكر كل قاطع عن الله فزال عنه كل حاجب يحجبه عنه ، فتم بالله سروره ، وصفا ذكر الله فى قلبه ، ودام بالله شغله وطال اليه حنيفة فأنس به واستوحش مما سواه . وقد سمع سيدى ذو النون المصرى برجل صالح يتعبد فى جبل المقطم فذهب اليه وبقى عنده ثلاث ليال ثم طلب اليه دعوة صالحة قبل أن يفارقه فقال : آنسك الله بقربه ، قال سيدى ذو النون : زدنى ، فقال : من آنسه الله بقربه أعطاه أربعا بغير أربع ، علما بغير طلب ، وغنى بغير مال ، وعزا بغير عشيرة ، وأنسا بغير جماعة .

والحق أن الصديق الصالح المرحوم السيد / سالم جمعة كان موفقا فى ذكر الله وشكره وحسن عبادته كما هو شأن السادة الكرام من آل البيت الاخيار . ولقد أجريت لـه من نحو عامين عملية جراحية كبيرة بالمستشفى فذهبت لزيارته وصحبت معى صديقى الاستاذ محمد جاد الرب المفتش السابق بوزارة التربية وقلت لـه : أوكد لك أننا حين ندخل على السيد / سالم سنجد فى يده المسبحة على الرغم من جراحتـه لانـه دائم الشوق لربـه ، وماكدنا نـدخل الغرفـة حتـى رأى بعينه صدق ما قلته له قبل الدخول ، وعندما تمت الزيارة وخرجنا قال لـى الاستاذ جاد الرب : انى غرت من نشاط هذا الرجل الصالح . وقد استأثرت رحمة الله بالصديق الوفى الاستاذ محمد جاد الرب وكان شاعرا مجيدا فرحم الله الصديقين وطيب ثراهما وسبحان الحى الذى لايموت .

اللهم ارزقنا الهمة فى مرضاتك واجعلنا بفضلك من أهل الفتوة فـى محبتك الذين قلت فيهم (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) . آمين ..

فهرس الكتاب

	صفحة
مقدمة	١
رجال الله وأثرهم فى التربية الروحية	٢
ترقى الذاكرين	١٤
محاسبة النفس وتقوى الله	٢٥
المسبب والاسباب	٣٦
النور والظلام	٤٦
التوكل	٥٧
الاخلاص عند الصوفية	٦٦
الذاكرون والمحبون	٧٤
آل البيت ووراثه الاخلاق النبوية	٨٥
رحمة الشيوخ الاولياء بتلاميذهم	٩٤
الاشتغال بالله تعالى	١٠٢
التفويض لله تعالى	١١٢
الركون الى الله تعالى	١٢١
جهاد النفس والهداية	١٣٣
مسالمة الناس ومعرفة الله تعالى	١٤٤
التمسك بالله تعالى	١٥٥
الصبر و الشكر	١٦٦
ما شاء الله كان	١٧٦
الفرج بعد الشدة	١٨٤
المحبة فى الله تعالى	١٩٥
الافتقار الى الله تعالى	٢٠٧

صفحة

نور البواطن ٢١٧
الارزاق مقدرة ٢٢٩
حسبنا الله ٢٣٨
حزب الله ٢٤٧
الاسوة الحسنة ٢٥٨
أهل اليقين ٢٦٩
الذاكرون بين الأحوال والمقامات ٢٨٠
كل شيء بقضاء وقدر ٢٩٤
الانسان وعمله ٣٠٨
بين الخوف والرجاء ٣١٩
التوكل والاسباب ٣٣٢
الشاكرون ٣٤٢
الحضور والغفلة ٣٥١
خصال صوفية ٣٦١
فهرس الكتاب ٣٧١